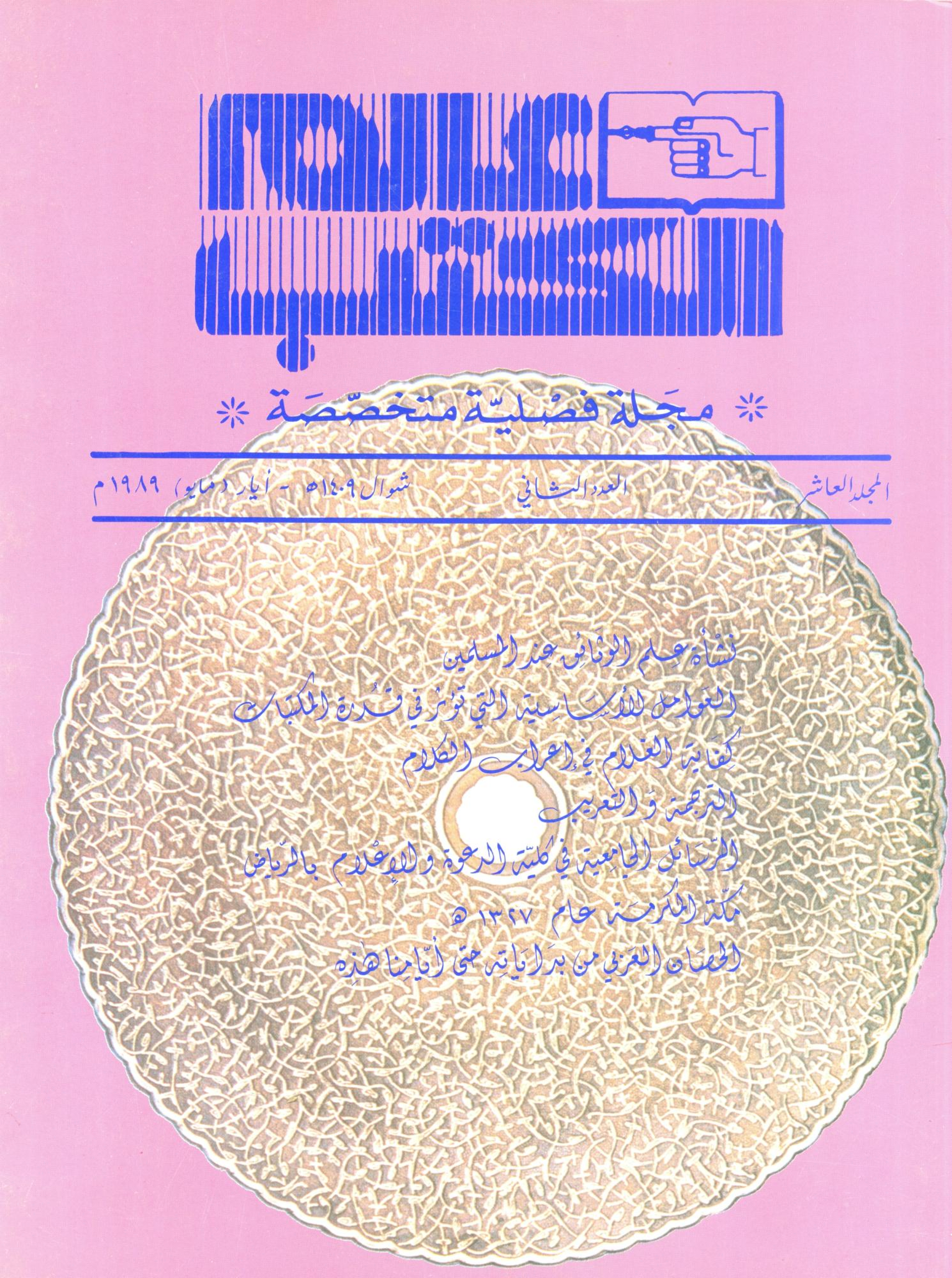
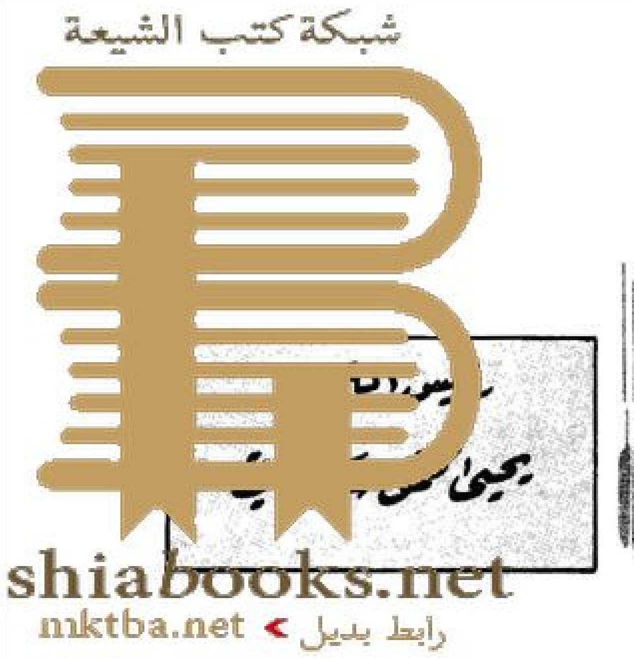
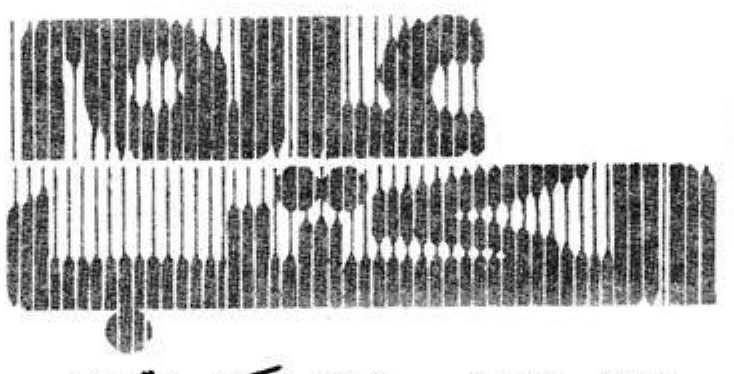


* مجلة فصلية متخصصة *
المجلد العاشر
العدد الثاني
شوال ١٤٠٩هـ - أيار (مايو) ١٩٨٩م
نشأة علم الوثائق عند المسلمين
العوامل الأساسية التي تؤثر في قدرة المكتبات
كفاية العلام في إعراب الكلام
الترجمة والتعريب
الرسائل الجامعية في كلية الدعوة والإعلام بالرياض
مكة المكرمة عام ١٣٢٧هـ
الحصان العربي من بداياته حتى أيامنا هذه



بسم الله الرحمن الرحيم



المؤسسان
عبد العزيز أحمد الرفاعي
عبد الرحمن فيصل المعمر

مجلة فصلية متخصصة تهتم بالكتاب وقضاياه
الناشر: دار ثقيف للنشر والتأليف - الرياض - المملكة العربية السعودية

المجلد العاشر العدد الثاني شوال ١٤٠٩هـ - أيار (مايو) ١٩٨٩م

المحتويات

○ منهاج النشر

- يشترط في المواد المراد نشرها:
- ١ــ أن تكون في إطار تخصص المجلة.
- ٢ــ مكتوبة بالآلة الكاتبة أو بخط واضح.
- ٣ــ لم تنشر من قبل.
- ٤ــ معتمدة على المنهجية والموضوعية في المعالجة.
- تخضع الدراسات والبحوث للتحكيم قبل نشرها.
- ترتب المواد وفقاً لأمور فنية بحتة.
- لايجوز إعادة نشر أية مادة من مواد المجلة كاملة إلا بإذن مسبق. وفي حالة الاقتباس يرجى الإشارة إلى المصدر.
- ما ينشر يعبر عن رأي كاتبه فقط ولا يمثل رأي المجلة بالضرورة.

○ بيانات إدارية

- المراسلات الخاصة بالتحرير توجه باسم رئيس التحرير (٤٧٧٧٢٦٩).
- المراسلات الخاصة بالاشتراكات والإعلانات توجه باسم مدير الإدارة (٤٧٦٥٤٢٢).
- عنوان المجلة :
- عالم الكتب
ص.ب: (١٥٩٠) الرياض : (١١٤٤١)
المملكة العربية السعودية
هاتف : ٤٧٦٥٤٢٢
- الاشتراك السنوي في الداخل والخارج ١٠٠ ريال سعودي أو ما يقابلها بالدولار الأمريكي.
- الإعلانات يتفق بشأنها مع الإدارة.

نشأة علم الوثائق عند المسلمين

مصطفى أبو شعيشع

أستاذ مشارك في كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز - جدة

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع نشأة علم الوثائق عند المسلمين، وكيف دعتهم الضرورة إلى إثبات التصرفات القانونية بالكتابة، بعد أن ظل الاعتماد الرئيسي في إثبات الوقائع لديهم هو شهادة الشهود الشفوية، وهو ما يعرف في الفقه باسم البيِّنة.

والمعروف أن الوثائق وغيرها من المدونات لا توجد في أمة من الأمم إلا إذا توافرت لها ثلاثة عناصر: أناس يعرفون الكتابة والقراءة، ومواد يكتبون عليها وأدوات يكتبون بها، وتراث فكري وحقوق يحرصون على تسجيلها وتدوينها للرجوع إليها عند الحاجة[١].

البدايات الأولى للتدوين الوثائقي

وعلى الرغم من أن الأميّة كانت منتشرة بين العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وكانت **الرواية الشفوية** هي وسيلة الاتصال الرئيسية التي تنقل الأخبار والأحاديث من جيل إلى جيل[٢]، إلا أن التدوين كان معروفاً لديهم، بدليل وجود العديد من **النقوش الجاهلية** التي عُثر عليها في أنحاء شبه الجزيرة العربية والتي كتبت بلهجات عربية متنوعة، تختلف عن عربية القرآن الكريم، اختلافاً متبايناً، أقربها إلى عربيتنا الكتابة التي عرفت بنقش النمارة الذي يرجع إلى حوالي سنة ٣٢٨ م[٣]، وغيره من النقوش العربية التي كتبت بعده، مثل نقش زبد المؤرخ بسنة ٥١٢ م، ونقش حرّان اللّجا المؤرخ بسنة ٥٦٨ م[٤].

كما تذكر المصادر التاريخية أن العرب كانوا يعرفون **الكتابة** في الجاهلية، فالبلاذري يروي أن الإسلام «دخل وفي قريش سبعة عشر رجلاً كلهم يكتب»، كما يذكر نقلاً عن الواقدي أنه «كان الكتاب بالعربية في الأوس والخزرج قليلاً، وكان بعض اليهود قد علم كتاب العربية، وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول، فجاء الإسلام وفي الأوس والخزرج عدة يكتبون»[٥].

وتعلم الكتابة في الجاهلية كان في مدارس أو كتاتيب خاصة بهذا الغرض «فقد كان جُفينة العبادي من أهل الحيرة نصرانياً، وقد جاء إلى المدينة ليعلم الكتابة بها»[٦].

والحقيقة أن وجود المعلمين في الجاهلية أمر ثابت أوردته المصادر العربية وذكرت أسماء المعلمين في الجاهلية وصدر الإسلام. فمن هؤلاء في الجاهلية عمرو بن زُرارة الذي كان يسمى بالكاتب، وغيلان بن سلمة بن معتب[٧] جاهلي أسلم يوم الطائف[٨]، — والطائف هي التي أخرجت فيما بعد يوسف بن الحكم الثقفي، وابنه الحجاج بن يوسف المعلمين فيها. وشهرة الطائف وقبيلة ثقيف خاصة بالكتابة وإتقانها منذ الجاهلية، دعت عمر بن الخطاب إلى أن يجعل كتبة المصحف من قريش وثقيف، ودعت عثمان بن عفان إلى أن يقول: «اجعلوا المُملي من هذيل والكاتب من ثقيف»[٩].

وكما كانت الكتابة في الجاهلية تُعلم في الكُتّاب، كانت للعلم مجالس تعقد وتتدارس فيها الأخبار والأشعار والأنساب. فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت قريش تألف منزل أبي بكر رضي الله عنه لخصلتين: العلم والطعام، فلما أسلم أسلم عامة من كان مُجالسه»[١٠].

ويثبت القرآن الكريم للعرب معرفتهم بالكتابة قبل الإسلام في أكثر من موضع، فيشير إلى أن بعض الجاهليين كانوا يدونون الأخبار والقصص والتاريخ. وأن هناك من كان يملي هذه الموضوعات في مجالسه[١١] ﴿**وقالوا أساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً**﴾[١٢].

وقد ذهب المفسرون إلى أن هذه الآية نزلت في بعض من كان يقول ذلك مثل النضر بن الحارث، الذي «كان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى، وتلا فيه القرآن، وحذّر فيه قريشاً ما أصاب الأمم الخالية — خلفه في مجلسه إذا قام، ثم يقول: والله ما محمد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين،

اكتتبتها كما اكتتبها »[١٣].

كما يحدثنا القرآن الكريم بأن العرب وهم بصدد إنكارهم لرسالة الإسلام قد طالبوا النبي ﷺ بأن ينزل عليهم كتاباً من السماء يقرؤونه : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ... أو يكون لك بيت من زخرف أو ترق في السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً** ﴾[١٤].

ويردّ القرآن الكريم على دعوى المنكرين ، ويطمئن رسوله بأن لا سبيل للإيمان إلى قلوب هؤلاء المنكرين حتى لو نزل عليهم الكتاب الذي يطالبون به في صورة مادية يرونها ويلمسونها فإنهم سيشكّون فيه ﴿ **ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾[١٥].

مما سبق يتضح أن العرب في الجاهلية عرفوا الكتابة ، وكان هناك معلمون يعلمون القراءة وضروباً من العلم ، منها أخبار الأولين وقصص التاريخ ، وقامت في البيئات الجاهلية المتحضرة مثل مكة والمدينة والطائف والأنبار وغيرها — مدارس يتعلم فيها الصبيان الكتابة[١٦].

وكان العرب قبل الإسلام يكتبون على موادّ عديدة[١٧] مستمدة من صميم بيئتهم الصحراوية التي يعيشون فيها ، أهمها : **الرق** ، وهو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه . **والأديم** ، وهو الجلد الأحمر أو المدبوغ ، **والقضيم** ، وهو الجلد الأبيض الذي كان يكتب فيه[١٨] . **والمهارق** ، وهي الصحف البيضاء من القماش[١٩] ؛ كانت تجلب مع القوافل التجارية من البلدان الأخرى ، ولذلك كانوا لا يكتبون فيها إلا الأمور المهمة ككتب الدّين وكتب العهود والمواثيق والأمان[٢٠].

وقد أطلقوا لفظ الورق على القطع الرقيقة من الجلود أو المواد الأخرى التي كانوا يكتبون عليها تشبيهاً بورق الشجر ، وعرفت أيضاً بالصحيفة[٢١] وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه إذ يقول :﴿ **إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى** ﴾[٢٢] و ﴿ **رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة** ﴾[٢٣] .

أما **أدوات الكتابة** فقد عرف الجاهليون منها الأقلام[٢٤] والمداد والدويّ . وكانت الأقلام تتخذ من القصب الذي ينمو في مواضع من شبه الجزيرة العربية حيث تتوافر المياه . وقد ورد ذكرها في شعر عدد من الشعراء الجاهليين ، منهم لبيد وعديّ بن زيد العبادي والمرقش وأمية بن أبي الصلت وغيرهم ممن وقفوا على الكتابة وكانت لهم صلات بالحضارة وأصحاب الديانات[٢٥].

كما ورد لفظ القلم إفراداً وجمعاً في القرآن الكريم ، مما يؤكد أن الأقلام كانت معروفة عند العرب قبل عصر النبوة ، فالله سبحانه وتعالى يقسم بالقلم في قوله ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾[٢٦] وينسب التعليم به إلى نفسه حيث يقول ﴿ **اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم** ﴾[٢٧]. وفي سورة لقمان نقرأ قوله تعالى ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[٢٨].

أما المداد فقد عرفه العرب قبل الإسلام واستخدموه في الكتابة على الرق ، وكان يجلب من الصين[٢٩] ، كما كان يصنع في بلاد العرب من العفص والزاج والصمغ ويسمى الحبر المطبوخ أو الحبر الرأس ويتصف بالبريق واللمعان[٣٠]. وقد ورد ذكر المداد والدواة في شعر عبد الله بن عنمة وهو من المخضرمين :

فلم يبق إلا دمنة ومنازل كما رُدَّ في خطِّ الدواة مدادها[٣١]

وكان العرب في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام على اتصال قوي بمن حولهم من الأمم ، حتى إنهم انقسموا إلى فريقين مختلفين ، حيال الحرب التي دارت بين الفرس والروم . وناصر كل فريق إحدى الدولتين[٣٢] .

ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك ويشير إلى عناية العرب بسياسة الفرس والروم في قوله تعالى ﴿ **الم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾[٣٣] . كما يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في قوله سبحانه ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾[٣٤] ، وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام ، والأخرى إلى اليمن . وقد تجاوز العرب بوغاز باب المندب إلى الحبشة ، كما تجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر[٣٥] .

كما حدثنا القرآن الكريم عن حياة العرب الاقتصادية الداخلية وما انتابها من فساد نتيجة لانتشار الربا فيقول الله تعالى ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ و ﴿ **يمحق الله الربا ويربي الصدقات** ﴾ و ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا** ﴾[٣٦] .

لذلك نجد أن الكتابة عند العرب في العصر الجاهلي لم تقتصر على كتابة النصوص الدينية كما جاء في قوله تعالى ﴿ **قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس** ﴾[٣٧] ، بل استخدمت كذلك في كتابة كثير من الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حرص عرب الجاهلية على تسجيلها في مكاتبات ووثائق[٣٨] ، أولها العهود والمواثيق والأحلاف

التي يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات ، فقد كانوا « يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذلك الحلف والهدنة تعظيماً للأمر وتبعيداً من النسيان »[٣٩] . وقد ورد ذكر هذه العهود المكتوبة في الشعر الجاهلي ، يقول الحارث بن حلزة اليشكري في شأن بكر وتغلب[٤٠] :

واذكروا حلف ذي المجاز وما قُدّ م فيه العهود والكفلاء
حَذَر الجَوْر والتَّعدّي ، وهل يَنْـ ـقُض ما في المهارق الأهواء ؟

ومن **الأحلاف** التي كتبت في الجاهلية حلف خزاعة ، بين عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله ﷺ ورجال خزاعة ، وقد « تحالفوا على التناصر والمواساة » وكتب لهم الحلف أبو قيس بن عبد مناف بن زهرة ، وعلقوا الكتاب في الكعبة ، وقد جاء خزاعة رسول الله يوم الحديبية بكتاب جده ، فقرأه عليه أبيّ بن كعب[٤١] . وأيضاً حلف الفضول الذي وثق في دار عبد الله بن جدعان واتفق فيه زعماء قريش على نصرة المظلوم وإغاثة الملهوف من غير نظر إلى قبيلته ولا إلى نسبه . وأول من دعا إلى هذا الحلف الزبير بن عبد الله ، وقد حضره رسول الله ﷺ وعمره يومئذ عشرون سنة[٤٢] .

ومن أشهر هذه العهود والمواثيق **صحيفة المقاطعة** ، حين اتفقت قريش على مقاطعة بني هاشم ، بعد أن رأت أن أصحاب رسول الله ﷺ الذين نزلوا الحبشة ، أصابوا بها أمناً واستقراراً ، وأن النجاشي منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقويت شوكة المسلمين ، مما جعل الإسلام ينتشر في القبائل ، فاجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا صحيفة يتعاقدون فيها على بني هاشم وبني عبد المطلب « ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعون منهم ...... ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم . وكان كاتب هذه الصحيفة منصور بن عكرمة ، فدعا عليه رسول الله فشل بعض أصابعه »[٤٣] .

وهكذا كان من عادة عرب الجاهلية تدوين أحلافهم في صحف توكيداً للعهد وتثبيتاً له ، وقد أشير إلى ذلك أيضاً في الشعر وفي الأخبار ، فورد في شعر قيس بن الخطيم[٤٤] :

لما بدت غدوة جباههم حنت إلينا الأرحام والصحف

وأشير إليه في شعر ينسب لدرهم بن زيد الأوسي ، يخاطب الخزرج بما كان بينهم من عهود ومواثيق ، إذ يقول :[٤٥]

وإن ما بيننا وبينكم حين يقال الأرحام والصحف

وكما كان العرب الجاهليون يكتبون العهود والأحلاف بين الجماعات ، كانوا كذلك يكتبون العهود والمواثيق بين الأفراد ، ومن أمثلة ذلك حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حيث يقول : « كاتبت أمية بن خلف كتاباً في أن يحفظني في صاغيتي بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة »[٤٦] .

كما كتبوا كتب الأمان وإن كانت أقل من سابقتها ، فمن ذلك كتاب النعمان بن المنذر الذي أرسله إلى الحارث بن ظالم وهو في مكة يؤمّنه[٤٧] .

وأمر آخر لعله أكثر الأمور التصاقاً بحاجات المرء وحياته المعاشية ، هو **الصكوك** التي كان عرب الجاهلية يكتبون فيها حساب تجاراتهم وحقوقهم على غيرهم ، فكانت الديون تسجل في كتب أو صحف عرفت « بذكر حق » أي صك دين[٤٨] . وقد حوى الشعر الجاهلي إشارات واضحة لهذه الصكوك ، فهذا علباء بن أرقم ابن عوف الشاعر اليشكري ، يذكر ديناً دوّن في صحيفة فيقول[٤٩] :

أخذت لدين مطمئن صحيفة وخالفت فيها كل من جار أو ظلمْ

ومن أغرب ما جاء في هذه الصكوك ما ذكره صاحب الفهرست ، من أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب ابن هاشم في جلد أدم فيه « ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من أهل مكة على فلان بن فلان الحميري من أهل وزل صنعا عليه ألف درهم فضة كيلاً بالحديدة ، ومتى دعاه بها أجابه ، شهد الله والملكان »[٥٠] .

واستعمل العرب في الجاهلية الصكوك في تعاملهم ، وكانت الأرزاق تسمى صكوكاً لأنها كانت تخرج مكتوبة . ومنه الحديث في النهي عن شراء الصكوك ، وذلك أن الأمراء كانوا يكتبون للناس أرزاقهم وأعطياتهم كتباً ، فيبيعون ما فيها قبل أن يقبضوها معجلاً ، ويعطون المشتري الصك ليمضي ويقبضه ، فنهوا عن ذلك لأنه بيع ما لم يقبض[٥١] .

ولما كان كثير من القوم آنذاك تجاراً فكان من الطبيعي ، أن يكثر عندهم هذا الضرب من الكتابة يحفظون به حقوقهم خشية أن تضيع ، حتى لقد كانت النساء التاجرات يلجأن إلى هذه الوسيلة شأنهن في ذلك شأن الرجال[٥٢] . فقد روي أن عبد الله بن أبي ربيعة كان يبعث بعطر من اليمن إلى أمه أسماء بنت مخرِّبة ، وهي أم أبي جهل — فكانت تبيعه إلى الأعطية ، فذهبت إليها الربيِّع بنت معوذ في نسوة من الأنصار ليشترين منها العطر ؛ قالت الربيِّع : « فلما جعلت لي في قواريري ، ووزنت لي كما وزنت لصواحبي ، قالت اكتبن لي عليكن حقي . فقلت : نعم ، أكتب لها على الربيِّع بنت

معوذ ... »[٥٣].

وهناك نوع آخر من الوثائق الجاهلية يتميز بأنه أكثر من غيره عدداً وهو **الرسائل** المتبادلة بين الأفراد ، يحمّلونها أخبارهم ، ويضمّنونها ما تتطلبه شئون حياتهم[٥٤] ، فمن رسائلهم التي كانوا يحملونها أخبارهم ما كتبه حنظلة بن أبي سفيان إلى أبيه بنجران يخبره بقيام محمد بن عبد الله يدعو إلى الله[٥٥] .

ومن أمثلة الرسائل التي يطلبون فيها العون والنصرة ، كتاب قصي بن كلاب إلى أخيه من أمه رزاح بن ربيعة بن حرام العذري يدعوه إلى نصرته[٥٦] .

وكان المسافرون النازحون يكتبون إلى أهلهم بما يعرض لهم من أمور . فهذه أم سلمة لما قدمت المدينة ، قبل زواجها من رسول الله ﷺ ، أخبرتهم أنها بنت أبي أمية بن المغيرة ، فكذبوها ، وقالوا : ما أكذب الغرائب ! « حتى أنشأ ناس منهم للحجّ ، فقالوا : أتكتبين إلى أهلك ؟ فكتبت معهم . فرجعوا إلى المدينة فصدّقوها وازدادت عليهم كرامة »[٥٧] .

وهناك نوع آخر من الكتابة هو : **مكاتبة الرقيق** ، وذلك أن يتفق العبد وسيده على قدر معلوم من المال يكون في الغالب مساوياً لثمنه ، فإذا أداه لسيده أعتق وأصبح حراً . وأغلب الظن أن هذا الاتفاق كان يتم في بعض الأحوال شفاهاً لا تسجيل فيه ، ولكنه كان في حالات أخرى يسجل ويكتب[٥٨] ، فقد روي « أن أبا أيوب الأنصاري[٥٩] ندم على مكاتبة مولاه أفلح ، فأرسل إليه فقال : إني أحب أن ترد إليَّ الكتاب ، وأن ترجع كما كنت . فقال لأفلح ولدهُ وأهله : أترجع رقيقاً وقد أعتقك الله ؟ فقال أفلح : والله لا يسألني شيئاً إلا أعطيته إياه ، فجاءه بمكاتبته فكسرها »[٦٠] .

وقد أعطي الجاهليون للصحف أسماء إذا كتبت في أغراض خاصة ، ففي حالة إعطاء أرض لشخص ، أي إقطاعه أرضاً ، يعطى الشخص صحيفة مدوَّنة بذلك ، تثبت له تسجيل الأرض المقطعة باسمه يقال لها «الوصر» و «الإصر»[٦١].

أما إذا كانت الصحيفة تسجل جوائز وتحدد قدر الجائزة ونوعها ، كأن يعطي الملك جوائز لأصحابه وأتباعه ، سميت القطوط ، والمفرد : قط ، كما أطلق اللفظ كذلك على الصحيفة للإنسان بصلة يوصل بها وعلى كتاب المحاسبة . وقد سميت الصحف المكتوبة قطوطاً لأنها تخرج مكتوبة في رقاع وصكوك مقطوعة[٦٢] .

ومما سبق يتضح أن العرب قبل الإسلام لم يعتمدوا على الرواية الشفوية وحدها في نقل الأخبار والأحاديث والتجارب من جيل إلى جيل ، ولكنهم عرفوا التدوين وحرّروا أحياناً بعض الوثائق الخاصة بالمعاملات والمداينات بين بعضهم البعض ، والمتعلقة بالعهود والمحالفات بينهم وبين القبائل المجاورة . إلا أن ذلك كان في دائرة محدودة[٦٣] وذلك لقلة عدد من يعرفون الكتابة والقراءة ، حتى إنهم كانوا يلقبون من جمع بين الكتابة والرمي والعوم « الكامل »[٦٤] . لذلك ظلوا يعتمدون في إثبات الوقائع لديهم على شهادة الشهود الشفوية[٦٥] .

اهتمام المسلمين بتدوين الوثائق

وإذا كانت الحاجة إلى الكتابة عند العرب قبل الإسلام قليلة ومحصورة في استخدامها في كتابة الوثائق الخاصة بأمور التجارة والمعاهدات والأحلاف . فإن معرفتهم بها تعتبر حدثاً مهماً وأمراً خطيراً لم يظهر أثره إلا بعد ظهور الإسلام[٦٦] . إذ إن **ظهور الإسلام أعطى للكتابة العربية بُعْداً جديداً** لم يكن موجوداً من قبل ، فقد خدمت الإسلام خدمة لا يضارعها شيء آخر ، وكانت بالنسبة له خيراً من السيف في كثير من الأحيان[٦٧] . فهي الوسيلة الأولى لتعليم مبادىء الدين وحفظ العقيدة ، بل إن القراءة كانت أول أمر سماوي ينزل به الوحي على رسول الله ﷺ فقال تعالى ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق** ﴾[٦٨] .

كما وصف جلّ وعلا ملائكته بكونهم ﴿ **كراماً كاتبين** ﴾[٦٩] .

وكان رسول الله ﷺ أحرص الناس على انتشار الكتابة والقراءة بين المسلمين ، لما لهما من عظيم الأثر في نشر العقيدة الإسلامية وحفظها من عبث العابثين . وقد ضرب المثل الأعلى في العناية بالكتابة ، ففي غزوة بدر « كان فداء الأسرى الذين يكتبون أن يعلموا عشرة من صبيان المسلمين الكتابة »[٧٠] .

ولم يقتصر اهتمامه ﷺ بالكتابة على **الرجال** فحسب ، بل شمل **النساء** أيضاً ، فقد أمر عليه الصلاة والسلام الشفاء بنت عبد الله أن تعلم زوجته حفصة الكتابة ليقتدي بها المسلمون في تعليم النساء[٧١] .

بل لقد حثَّ بعض الصحابة على أن يتعلموا لغات الأمم الأخرى لما دعت الحاجة إلى ذلك بعد انتشار الإسلام[٧٢] كالذي يرويه ابن سعد من أنه ﷺ أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود حتى يطمئن إلى أنهم لن يحرفوا كتبه التي يبعث بها إليهم[٧٣] . وفي حديث آخر أنه قال لزيد بن ثابت « إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليّ أو ينقصوا فتعلم السريانية . فتعلمتها في سبع عشرة ليلة »[٧٤] .

وقد استعان النبي ﷺ بعدد من أصحابه ممن يعرفون القراءة والكتابة في تدوين ما يُوحى إليه من آيات القرآن الكريم . وأول هؤلاء النفر من الكتاب ، أبي بن كعب الأنصاري ، وزيد بن

ثابت ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان[٧٥] .

كما استعان بآخرين في **كتابة الرسائل** التي بعث بها ﷺ إلى مختلف بقاع الأرض يدعو فيها إلى الدخول في الإسلام ، كرسائله إلى هرقل ملك الروم[٧٦] ، وكسرى ملك الفرس[٧٧] ، والنجاشي ملك الحبشة[٧٨] ، والمقوقس عظيم القبط[٧٩] . وكذلك رسائله إلى أفراد الأجناد وأصحاب سراياه من الصحابة رضوان الله عليهم[٨٠] .

وإلى جانب **كتّاب الوحي** والرسائل كان هناك كتاب آخرون بعضهم يكتب للرسول حوائجه كخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وآخرون يكتبون كل ما يتعلق بالناس من **الحوائج والمداينات وسائر العقود والمعاملات** ، كعبد الله بن الأرقم والعلاء بن عقبة[٨١] .

كما كان هناك كتّاب يكتبون أموال الصدقات كالزبير بن العوام ، وجهيم بن الصلت ، وآخرون يكتبون **الغنائم** ، كمعيقب ابن أبي فاطمة ، **وخرص النخل** كحذيفة بن اليمان[٨٢] . وغيرهم يكتبون كتب **الهدن والأمانات** كعهده ﷺ لأهل آيلة بالأمان[٨٣] ، وعهده لأهل نجران سنة ١٠ هـ[٨٤] . وكتب **الإقطاع** ؛ ككتابه بإقطاع أرض لمجاعة بن مرارة بن سلمى[٨٥] ، وكتابه للداريين وهم بنو الدار بن هانىء بن حبيب بن نمارة بن لخم بن عدي ، وقد وهب لهم « بيت عينون وحبرون والمرطوم .. »[٨٦] .

كذلك كان هناك كتّاب يكتبون **المواثيق** ، والمعاهدات التي عقدها الرسول ﷺ كصلح الحديبية في سنة ٦ هـ بين المسلمين والمشركين « واصطلحا فيه على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ... »[٨٧] .

وإلى جانب هؤلاء الكتاب كان هناك عدد آخر يتولى بعض المهام مثل **نفقات** الرسول **والحجابة** وكتابة أسماء **الجند** الذين يخرجون للجهاد في سبيل الله[٨٨] .

وهذا التخصص في أنواع الكتابة في حد ذاته دليل على انتشار الكتابة وكثرة عدد الكُتاب في ذلك الحين . وقد بلغ من كثرة كتاب الرسول ﷺ أن اختلف في عددهم ، فقيل ثلاثة وعشرون ، وقيل بل أربعون[٨٩] . ولذلك يذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل ، إنما أنشىء في المدينة زمن الرسول ﷺ وكان أول ديوان وضع في الإسلام[٩٠] .

ومما يدعم هذا الرأي أن عدد الكتب والمواثيق والعهود التي تنسب إلى الرسول ﷺ بلغ المائتين وستة وأربعين كتاباً وصلت إلينا نصوصها في المصادر التاريخية المختلفة[٩١] .

وهؤلاء الكتاب المثقفون في أمور دينهم وأمثالهم من الصحابة تفرقوا في جميع أنحاء الدولة الإسلامية ، بل وزعوا على الأمصار قصداً إلى تعليمها مبادىء الدين الإسلامي وتعاليمه ، فأرسل رسول الله ﷺ بعضهم إلى اليمن وإلى البحرين وإلى مكة بعد فتحها ، وكذلك فعل عمر بن الخطاب عندما اتسعت الفتوح وكثرت الأمصار . وقد اضطر الداخلون في الإسلام من غير العرب إلى تعلم العربية لدينهم ودنياهم[٩٢] .

وقد أمر الله رسوله بالفصل في الخصومات بين الناس ﴿ **فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[٩٣] . وكان أساس الأحكام ومدارها هو كتاب الله العزيز ، فالنبيّ كان يرجع في قضائه إلى القرآن الكريم[٩٤] ﴿ **فاحكم بينهم بما أنزل الله** ﴾[٩٥] ﴿ **إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً** ﴾[٩٦] .

وصدع رسول الله لأمر ربه ، فبلّغ دعوة الله ، ونصب نفسه في المدينة ليفصل في الخصومات ، وليقوم بالإفتاء ، بجانب ما يبلغه للناس من تشريع الأحكام الموحى بها والسهر على تنفيذ أحكام الإسلام . رفعت إليه القضايا فقضى فيها ، كما أفتى فيما استفتي فيه . وكان قضاؤه اجتهاداً لا وحياً[٩٧] . وقد ثبت في السنة الصحيحة أنه كان يجتهد في بعض الأحكام ، ويستشير في بعضها ، ومن ثمّ نشأ بعد وفاته مصدر آخر للقضاء وهو السنة بنوعيها القولية والفعلية[٩٨] .

وكان **المتخاصمان** يحضران إليه مختارين فيسمع كلام كل منهما ثم يحكم بينهما[٩٩] وكان حكمه في الحقوق بالظاهر ، وباليمين عند عدم البينة ، روى البخاري ومسلم أن الرسول قال لرجلين اختصما إليه في مواريث بينهما قد درست وليست بينهما بينة : « إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم ألحن (أفطن) بحجته من بعض فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله فإنما أقطع له قطعة من النار فلا يأخذها »[١٠٠] .

وكانت **طرق الإثبات** عنده : الإقرار والبينة واليمين والقسامة ، والفراسة وغيرها[١٠١] .

وكان الرسول ﷺ يقول : « البيِّنة على من ادّعى واليمين على من أنكر »[١٠٢] . والبينة في الشرع اسم لما يبيِّن الحق ويظهره ، بمعنى أن المدّعي ملزم بإظهار ما يبين صحة دعواه ، فإذا أظهر صدقه بإحدى الطرق حكم له ، وكان الرسول ﷺ يقول : « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »[١٠٣] .

أما المدعى عليه فيلزمه اليمين ، بدليل ما يرويه البخاري ومسلم

عن الأشعث بن قيس أنه قال : « كان بيني وبين رجل خصومة في بئر فاختصمنا إلى النبي ﷺ فقال : شاهداك أو يمينه »[١٠٤] . وما يرويه مسلم في قصة الحضرمي من « أن النبي ﷺ قال له : ألك بيِّنة ؟ قال : لا ، قال : لك يمينه » وزاد مسلم أن النبي قال للحضرمي : لك يمينه ، قال : « يا رسول الله : الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف وليس بمتورِّع من شيء ، فقال : ليس لك منه إلا ذلك » فهذه الأحاديث قاضية بأن اليمين توجب فصل النزاع وإقناع المدعي وردّ ماله من شهادة[١٠٥] .

وهكذا تظهر **أهمية تسجيل التصرفات** بكتابتها في وثائق ، حفظاً لحقوق الناس بعضهم على بعض خشية ضياعها بالجحود أو النسيان . وقد نصت الشريعة الإسلامية الغراء في أكثر من موضع على وجوب تسجيل التصرفات بالكتابة . ففي آية المداينة أمر الله عباده بكتابة الدين ، وأمر الكاتب أن يكتب ، ثم أكد على ذلك بأن نهاه أن يأبى أن يكتب ، ثم أعاد الأمر مرة أخرى بأن يكتب . وأمر من عليه الدين أن يملَّ ويتقي ربه فلا يبخس من الحق شيئاً ، فإن تعذر إملاؤه ، لسفهه أو صغره أو جنونه أو عدم استطاعته فوليّه مأمور بالإملاء عنه[١٠٦] ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يُملَّ هو ، فليملل وليه بالعدل** ﴾[١٠٧] .

كما أرشدهم جل وعلا إلى استشهاد شاهدين من الرجال ، أو رجل وامرأتين . ونهى الشهود أن يأبوا إذا ما دعوا إلى إقامة الشهادة[١٠٨] ﴿ **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا** ﴾[١٠٩] .

ثم أكد عز وجل ذلك بنهيهم أن يمتنعوا عن كتابة الحقير من الحقوق ، سآمة وملالاً . وأخبر أن ذلك أعدل عنده ، وأقوم للشهادة فيتذكرها الشاهد إذا عاين خطه فيقيمها . وفي ذلك تنبيه على أن له أن يُقيمها إذا رأى خطه وتيقَّنه . وأخبر أن ذلك أقرب إلى اليقين وعدم الريب[١١٠] ﴿ **ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا** ﴾[١١١] .

كذلك حث الشريعة الإسلامية على **مكاتبة العبد** (أي التعاقد معه) على تحرير نفسه بمال أو نحوه يدفعه إلى سيده إذا أراد ذلك وكان قادراً على الكسب : ﴿ **والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾[١١٢]. ذلك أن العبد « باع نفسه بمال في ذمته ، والسيد لا حقَّ له في ذمة العبد وإنما حقه في بدنه ، فإن السيد حقه في مالية العبد لا في إنسانيته ، وإنما يطالب العبد بما في ذمته بعد عتقه ، وحينئذ فلا ملك للسيد عليه . فالكتابة بيعه نفسه بمال في ذمته ، ثم إذا اشترى نفسه كان كسْبُه له ونفعه له ، وهو حادث على ملكه الذي استحقه بعقد الكتابة».

ومن تمام حكمة الشارع أن أخّر العتق إلى حين الأداء ، لأن السيد لن يرضى بخروجه عن ملكه إلا بأن يُسلم له العوض ، وإن عجز العبد عنه كان له الرجوع في البيع ، وإذا وقع العتق لا يمكن رفعه بعد ذلك[١١٣] .

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وكثرت مسئوليات النبي ﷺ أذن لبعض أصحابه بالقضاء والفصل في الخصومات بين الناس في حضرته ، وفي البلاد البعيدة عن المدينة إقراراً لمبدأ تولية القضاء وتشجيعاً للصحابة على الاجتهاد فيه . وقد بعث علي بن أبي طالب للقضاء في اليمن وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن ليعلم الناس الإسلام ويقضي بينهم . وكان أمراء كل بلد يتولون القضاء فيها ، فإذا لم يجدوا نصاً اجتهدوا في المسائل المعروضة عليهم ، ثم عرضوا ذلك على الرسول ﷺ الذي يعتبر المرجع الأعلى في جميع الشئون[١١٤] .

ولم تكن السلطة القضائية منفصلة عن السلطة التنفيذية ، فكان الرسول يتولى جميع شئون المسلمين الدينية والدنيوية ، وكان أمراؤه أيضاً يتولون نفس الصلاحيات الدينية والدنيوية . فكانوا يؤمون الناس في صلاتهم ، وينظرون في شئونهم ومنازعاتهم ، ويقودونهم في قتال أعدائهم[١١٥] .

وكان عهد الخلفاء الراشدين امتداداً لعهد النبوة ، ففي عهد أبي بكر لم يحدث تغيير في إدارة الحكومة الإسلامية عما كان عليه في عهد الرسول ﷺ ، لانشغاله بحروب الردة وغير ذلك من أمور السياسة والحكم ، ولعدم اتساع رقعة الدولة في عهده ، وقد اتخذ أبو بكر عثمان بن عفان ، كاتباً له لكتابة مراسلاته إلى العمال والقوّاد[١١٦] . ومن رسائله تجديده العهد الذي كان رسول الله أعطاه للنجرانيين ، وعهده لأمراء الأجناد ضد المرتدين ، وكتبه إلى قوّاده يأمرهم بالاتجاه لنشر الإسلام ؛ ككتابه إلى خالد بن الوليد يأمره بدخول العراق وبدعوة أهله إلى الإسلام[١١٧] .

وكان من كتاب رسائله أيضاً زيد بن ثابت وعلي بن أبي طالب[١١٨] ، وعبد الله بن الأرقم ، وحنظلة بن الربيع ، وعبد الله ابن خلف الخزاعي[١١٩] . وفي شئون المال والقضاء اعتمد على اثنين

من كبار الصحابة هما أبو عبيدة بن الجراح ، وعمر بن الخطاب ، أولهما كان يعاونه في شئون بيت المال الذي اتخذه الخليفة لحفظ أموال المسلمين قبل توزيعها عليهم[١٢٠] ، وثانيهما كان يعاونه في شؤون القضاء ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان لما عرف به من الشدة[١٢١] ، ولأن الناس كان فيهم من روح الورع والتقوى والصلاح والتسامح ما يمنع وجود تخاصم ومشاحنة[١٢٢] .

تدوين الدواوين

وفي خلافة عمر بن الخطاب كثرت الفتوحات الإسلامية واتسعت أعباء الحكم وازدادت مهام الولاة ، فقام عمر بتدوين الدواوين واضعاً بذلك اللبنة الأولى في تشكيل الجهاز الإداري للدولة الإسلامية الذي أخذ ينمو شيئاً فشيئاً حتى اتخذ صورته الواضحة في العصر العباسي .

وكان لفتح مصر في عهده أثر كبير في حركة التدوين ، فبدأت **الأقمشة المصرية** تدخل آفاق الحياة العربية كمادة تتقبل الكتابة أيسر من المواد التي كانت تستعمل من قبل ، غير أن المادة التي فرضت نفسها على العرب وانتقلت بحركة التدوين إلى مرحلة جديدة هي **أوراق البَرْدي المصري**[١٢٣] .

وقد أنشأ عمر **ديوان الجند** وطلب من بعض كُتابه أن يكتبوا الناس على منازلهم ، فكتبوهم على ترتيب الأنساب ، مبتدئاً من قرابة رسول الله وما بعدها الأقرب فالأقرب ، وحسب السابقة إلى الإسلام وحسن الأثر في الدين والبلاء في الجهاد[١٢٤] ووفقاً لهذه القاعدة فرض العطاء للمسلمين والمسلمات . وكان الديوان يسجل به أسماء كل من فرض له العطاء ، وعلى رأسهم أصحاب السابقة في الإسلام والجهاد والجند الذين اشتركوا في فتح الأمصار ، ولذلك سمي بديوان العطاء وبديوان الجند[١٢٥] .

ولكي يتم إحصاء الجند في الأمصار الإسلامية المختلفة ، وتقرير أعطياتهم أنشأ عمر بن الخطاب ديواناً للجند في الكوفة وفي البصرة وفي الشام . وكان التدوين في هذه الدواوين باللغة العربية[١٢٦] .

كما أنشأ عمر **ديوان بيت المال** ، وكانت الأموال تجبى من الأمصار ثم تحمل إلى المدينة ، وتوضع في بيت المال بعد صرف الأعطيات ، وما يجب صرفه بعد تكفية الجيوش[١٢٧] .

وكان لعمر عدة كُتّاب ، منهم من يكتب رسائله إلى العمال والقوّاد ، وآخرون للكتابة في شئون المال والقضاء . وكان من كُتّابه زيد بن ثابت ، وعبد الله بن خلف الخزاعي[١٢٨] ، وعبد الله بن الأرقم[١٢٩] . فقد استوجبت الفتوحات الإسلامية وضم أقطار جديدة للدولة الإسلامية ، كثرة تبادل الرسائل والكتب بين عمر بن الخطاب وقواد الجيوش الإسلامية والولاة والعمال الذين عيّنهم لحكم البلاد المفتوحة لأخذ رأيه فيما يعرض لهم من أمور في الحرب والحكم والقضاء والإدارة ، مثل كتابه إلى عمرو بن العاص حين سار لفتح مصر ، ومعاهداته مع البلاد التي فتحها ، كمعاهدته مع أهل إيليا (بيت المقدس) « حين أعطاهم الأمان لأنفسهم ولأموالهم »[١٣٠] .

وقد تطلب الأمر وضع نظام لحفظ هذه الرسائل والكتب والرد عليها ، فصار الاهتمام بديوان الرسائل . واقتضى ذلك اتخاذ الهجرة النبوية للمدينة بداية للتاريخ الإسلامي . وما فعله عمر بن الخطاب في هذا الصدد لا يعدو أن يكون تسجيلاً رسمياً لما كان يجري عليه العرف في الدولة الإسلامية حتى ذلك الوقت[١٣١] . وهكذا نرى أن ديوان الرسائل الذي كان مجرد نواة في عهد الرسول ، قد أخذ يكبر وينمو في عهد عمر بن الخطاب[١٣٢] .

ونتيجة لاتساع الدولة وازدياد مهام الولاة ، قام عمر بفصل القضاء عن الولاية ، وعين للقضاء أشخاصاً غير الولاة ، وفصل السلطتين التنفيذية والقضائية . فولى أبا الدرداء قضاء المدينة ، وولى شريحاً قضاء البصرة ، وأبا موسى الأشعري قضاء الكوفة ، وعثمان ابن قيس بن أبي العاص قضاء مصر[١٣٣] . ولمّا كان القضاء جزءاً من الولاية العامة[١٣٤] ، كان من حق صاحب هذه الولاية أن يخص القاضي ببعض أنواع القضايا دون غيرها ، ولذلك حينما خصص عمر بن الخطاب أفراداً للقضاء جعل قضاءهم قاصراً على فصل الخصومات المالية ، أما الجنايات وما يتعلق منها بالقصاص وبالحدود فإنها بقيت في يد الخلفاء وولاة الأمصار[١٣٥] .

وكان عمر بن الخطاب يتعهد الولاة والقضاة بالإرشاد لإعانتهم على الحكم والفصل في المنازعات بين الناس ، ومن ذلك رسالته إلى أبي موسى الأشعري قاضي الكوفة ، وهي الرسالة التي تلقاها العلماء بالقبول وبنوا عليها أصول الحكم والفصل في الخصومات بين الناس[١٣٦] .

ومن بعد الفاروق اتخذ عثمان بن عفان ، مروان بن الحكم كاتباً خاصاً له لكتابة .. رسائله إلى عماله في الولايات الإسلامية المختلفة[١٣٧] كرسالته إلى عامله الوليد بن عقبه في أمر النجرانيين في العراق ، وكتابه الخاص بفتح الأندلس[١٣٨] . كما كان من كتابه عبد الله بن مروان على ديوان المدينة ، وأبو جبيرة الأنصاري على ديوان الكوفة . وكان من أشهر كتابه أيضاً أبو غطفان بن عوف بن سعيد بن دينار من بني دهمان ، واثنان من مواليه هما : أهيب ،

وحمران بن أبان[139] .

أما علي بن أبي طالب فكان يكتب له رسائله إلى عماله : عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن جبير ، وسعيد بن غزان الهمذاني[140] . ومن أشهر المكاتبات التي كتبت في عهده وثيقة التحكيم بينه وبين معاوية في حق الاستخلاف[141] ، وتجديده العهد للنجرانيين «بأن لا يضاموا ولا يظلموا ولا ينتقص حق من حقوقهم»[142]، وعهده الذي كتبه إلى الأشتر النخعي واليه على مصر يوجهه فيه إلى الحكم بين الناس بالعدل[143].

وكان منهج القضاء والفصل في الخصومات بين الناس في عصر الخلفاء الراشدين أن القضاة إذا ما عرض عليهم قضاء ، نظروا في كتاب الله ، فإن لم يعرفوا شيئاً ، سألوا الناس هل فيهم من يعرف شيئاً في السنة في هذا الأمر ، فإن وجدوا أخذوا بما يقول بعد الاستيثاق بطلب شهود كما كان يفعل أبو بكر وعمر ، أو بتحليفه على صدق ما يقول كما كان يفعل الإمام علي . وإذا لم يكن هناك حكم للمسألة في الكتاب والسنة اجتهدوا اجتهاداً جماعياً إذا كان الموضوع له مساس بالحكم ويتعلق بالجماعة ، واجتهاداً فردياً في الجزئيات الخاصة بالأفراد[144] .

ولم يكن للقاضي في هذا العصر كاتب أو سجل تدون فيه أحكامه ، لأنه كان يقوم بتنفيذ الحكم بنفسه عقب إصداره . **ولم يعرف تسجيل الأحكام القضائية حتى ذلك العصر**[145] .

وثائق العصر الأموي

وفي العصر الأموي (٤٠ ــ ١٣٢ هـ) بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساع لها ، وأخذت الخلافة طابع الملك ، وصاحب ذلك ازدياد معرفة العرب بأحوال الأمصار المفتوحة ، وبمتطلبات التطور في نظام الحكم . ومن ثم فإن الجهاز الإداري للدولة الإسلامية في العصر الأموي أخذ يتطور وينمو تبعاً لهذه المتغيرات . وقد تمثل ذلك في تطور نظم الحكم والدواوين التي وضعت في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده وفي إنشاء دواوين جديدة دعت الحاجة إليها[146] .

وتنحصر أغلب وثائق هذا العصر في **الوثائق الإدارية والسياسية** ، وأغلب موضوعاتها تصف **أحداث الخلفاء ووقائعهم وحروبهم وأعمالهم الإدارية** ، علاوة على **الوثائق الخاصة بالعهود والمواثيق والوصايا**[147] . وقد اختار معاوية على ديوان الرسائل[148] كاتباً من أشهر كتابه هو عبيد الله بن أوس الغساني ، وكان من أقربائه ومن عظماء قبيلته . وكان في كل ولاية من الولايات ديوان للرسائل يشرف عليه الوالي أو من ينوب عنه ، كالذي كان في البصرة في عهد زياد ، وكان يشرف عليه عبد الله بن أبي بكرة ، وجبير بن حبة . وكان زياد يراقب كتاب ديوان الرسائل مراقبة شديدة ويختارهم من الذين يجيدون الكتابة العربية إجادة تامة . غير أن أشهر كتاب هذا العصر على الإطلاق هو عبد الحميد الكاتب الذي التحق بديوان الرسائل في دمشق في عهد هشام بن عبد الملك ، ثم أصبح رئيساً له في عهد مروان بن محمد[149] .

وقد تعددت اختصاصات ديوان الرسائل في العصر الأموي وكثر عدد من يعملون فيه ، فأصبح هناك كتاب رئيسيون يقومون بالإنشاء ، وآخرون يساعدونهم في التلخيص والتبييض ، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن . فكانت المراسلات ونسخها تنظم في سجلات أو مغلفات خاصة يقال لها أضابير ، توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل استخراجها والرجوع إليها . وعادة كانت مكاتبات كل شهر تلف في إضبارة تحمل اسم الشهر ، وكانت الرسائل الصادرة من هذا الديوان تختم بخاتم الخليفة[150] .

وإلى جانب هذا الديوان استحدث معاوية **ديوان الخاتم وديوان البريد** ، ليعاونا ديوان الرسائل في أداء مهامه . ذلك أن الرسائل لم يقتصر أمرها على مجرد كتابتها على يد كاتب الرسائل ومن كان يعاونه من الكتاب الذين يعملون معه في ديوان الرسائل ، وإنما شارك في ختمها بخاتم الخليفة وفي توثيقها ثم إرسالها إلى أصحابها ديوان الخاتم وديوان البريد[151] .

وفي هذا العصر لم يختلف منهج القضاء والفصل في المنازعات بين الناس عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين . فقد كان القضاة يعتمدون على المصدرين الأساسيين (القرآن والسنة) . فإذا لم يجدوا فيهما الحكم اجتهدوا في ذلك معتمدين على الرأي والقياس وفقاً للمبادىء الأساسية والقواعد الشرعية العامة . وكان كل قاض يجتهد رأيه وعلمه دون أن يكون ملزماً بتقليد غيره من القضاة ، نظراً لعدم ظهور المذاهب الاجتهادية في ذلك الحين . ولذلك كان الخلفاء يتشددون في اختيار القضاة ، وكثيراً ما كان القضاة يرجعون إلى رأي الخليفة في بعض الأمور التي كانت تستعصي عليهم[152] .

ولم تكن أحكام القضاة حتى ذلك الوقت قد عرفت التسجيل ، وإنما تعرض الدعوى فينظرها القاضي ويفصل فيها ويُعرِّف الخصمين بحكمه ويبين للمحكوم عليه ما بني عليه الحكم . غير أن قاضي مصر سليم بن عتر الذي تولى القضاء من قبل معاوية سنة ٤٠ هـ

تنبه إلى أهمية تسجيل الأحكام ، إذ عرضت عليه قضية ميراث بين ورثة تخاصموا إليه ثم تناكروا الحكم الذي أصدره واختلفوا فيه . فعادوا إليه مرة أخرى فحكم بينهم ودوّن الحكم في سجل خاص . فكان أول حكم قضائي يسجل[١٥٣] .

ونتيجة لهذا التطور في الجهاز الإداري للدولة الإسلامية وتعدد مصالحها وتزايد أغراضها ، ظهرت الحاجة إلى تحديد **اختصاصات الكتاب** في هذا العصر فقد صاروا خمسة : **كاتب الرسائل** ، ويخاطب الملوك والأمراء والعمال وغيرهم[١٥٤] ، وكان أهم الكتاب في المرتبة وأقدمهم ويسمى **كاتب السر** ، لأنه يد الخليفة ومستودع سره ، ولخطورة هذا المنصب كان الخلفاء لا يولونه إلا أقاربهم وخاصتهم[١٥٥] . **وكاتب الخراج** ، ويدون حساب الخراج داخله وخارجه ، **وكاتب الجند** ، ويقيد أسماء الأجناد وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات الأسلحة ، وغير ذلك . **وكاتب الشرطة** ، ويكتب التقارير عما يقع من أحوال القَوَد والقصاص والديات وغيرها ، **وكاتب القاضي** ويكتب الشروط والأحكام[١٥٦] .

نشأة علم الوثائق عند المسلمين

نخلص مما سبق إلى أن المسلمين قد مارسوا التدوين منذ صدر الإسلام ، وسجلوا تصرفاتهم في وثائق ـــ على نطاق أوسع ـــ مما كان عليه الحال في عصر ما قبل الإسلام . وذلك راجع إلى تزايد أعداد المتعلمين الذين يجيدون القراءة والكتابة ، نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلتها الدولة الإسلامية ـــ ممثلة في الرسول ﷺ في هذا الشأن ، لحاجتها إلى المثقفين الذين يقومون بنشر تعاليم الدين الإسلامي وشرح مبادئه .

ومع أنه من الصعب تحديد **أول وثيقة كتبت في الإسلام** ، إلا أن البعض يرجح أن الوثيقة التي آخى فيها الرسول بين المهاجرين والأنصار هي : أول وثيقة كتبت في عهد الرسول ﷺ . فلما قرّ رسول الله ﷺ بالمدينة كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم ، واشترط لهم « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ...»[١٥٧] .

ومعروف أن الرسول ﷺ كتب العديد من الرسائل التي حث فيها ملوك الدول المجاورة على الدخول في الإسلام ، وكذلك الوثائق الخاصة بالهدن والأمانات والمواثيق والمعاهدات التي عقدها بين المسلمين والمشركين . هذا إلى جانب ما كتبه الخلفاء وملوك الإسلام وأمراء جيوشهم بعد ذلك من كتب المعاهدات والصلح بينهم وبين الأمم الأخرى[١٥٨] فإذا اعتبرنا وثيقة صلح الحديبية أول وثيقة ذات قيمة كبيرة في الإسلام ، في السنة السادسة من الهجرة ، أمكننا أن نجزم بأن الأمة الإسلامية لم تهمل كتابة الوثائق منذ بدء ظهورها سواء أكان ذلك في المعاهدات أو كتب الصلح بينهم وبين من يسالمون من الأمم ، أو كان ذلك في المعاملات التي كانت تجري بينهم من بيع أو رهن أو إجارة أو وصية أو غير ذلك من باقي التصرفات بأنواعها المختلفة .

وقد قسم العلماء الوثائق العربية بصفة عامة إلى وثائق عامة ووثائق خاصة . ويعتمد هذا التقسيم على تقسيم القانون ذاته ، فالوثائق التي تسجل بالكتابة تصرفاً قانونياً يخضع لقواعد القانون العام تعتبر من الوثائق العامة . في حين أن التصرفات القانونية التي تخضع لقواعد القانون الخاص تعتبر الوثائق المسجلة لها من الوثائق الخاصة[١٥٩] .

والوثائق العامة هي التي كانت تصدر عن ديوان الرسائل والدواوين الأخرى التي نشأت في الدولة الإسلامية في مختلف العصور مثل ولاية العهود وتعيين الوزراء والقضاة والمحتسبين ووثائق الإقطاع والرسائل المتبادلة بين الدول الإسلامية والدول الأخرى ، والمعاهدات المعقودة بين الطرفين . وقد حفظت لنا بطون الكتب التاريخية صوراً من تلك الوثائق[١٦٠] . وبالرغم من أن الذين نقلوا هذه الصور من أصولها حذفوا منها أجزاء اعتبروها غير مهمة مثل صيغ الافتتاح وصيغ الانتهاء والتواريخ وعلامات الإثبات ، إلا أنه أمكن للباحثين إلقاء الضوء على قواعد كتابة الوثيقة العامة ، وذلك عن طريق مقارنة هذه الصور بالمؤلفات التي قُصد بها تعليم الكُتاب فن الإنشاء التي عرفت بكتب المصطلح الوثائقي العامة التي تتعلق بالوثائق الصادرة عن دواوين الدولة[١٦١] ومن أمثلتها كتاب قانون ديوان الرسائل لابن منجب الصيرفي أعظم كتاب الدولة الفاطمية (ت ٥٤٢ هـ) ، والتعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري (ت ٤٧٩ هـ) ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (ت ٨٢١ هـ) وغيرها .

أما **الوثائق الخاصة فهي** التي تسجل التصرفات الخاصة للأفراد سواء كانت بيعاً ، أو شراء ، أو إيجاراً ، أو زواجاً ، أو هبة ، أو وقفاً ، أو عتقاً ... الخ . وعلى الرغم من أهميتها في تسجيل حقوق الأفراد ومعاملاتهم فإن الناس لم يحرصوا ـــ أول الأمر ـــ على تسجيل تصرفاتهم بكتابتها في وثائق خاصة حفظاً للحقوق ، وظلوا يعتمدون في إثبات حقوقهم على شهادة الشهود الشفوية[١٦٢] لأن

النظرية الفقهية الإسلامية كانت لا تجيز الاعتماد على الوثيقة المكتوبة كوسيلة للإثبات عند قيام الدعاوي وطلب البيانات ، وإنما كان الإثبات يتم عند القاضي عن طريق شهادة الشهود الذين حضروا العقد وذلك خشية « أن يتطرق الكتابة الهزل وتجربة الأقلام والقرائح ، في ميدان الإنشاء والتمرن ، فوهي جانب اعتبارها مجردة عما يعضدها ، من ثبوت يد أو غيرها »[١٦٣] . ولأن « الكتاب قد يُزور ويفتعل به والخط يشبه الخط والخاتم يشبه الخاتم »[١٦٤] .

ولكن منذ منتصف القرن الثاني الهجري ، وبعد أن تعقدت الحياة في الأمصار الإسلامية نتيجة لتطور أنواع العمران البشري ، واعتماد العباسيين على الفرس في إدارة شئون الدولة واقتباس كثير من أنظمة الحكم عنهم ، واتساع نطاق الجهاز الإداري للحكومة الإسلامية ، حيث استحدثت الوزارة ، وطورت نظم العمل فيما كان موجوداً من الدواوين ، وذلك علاوة على معرفة العرب بالورق عن طريق بعض الأسرى الصينيين ، وقيامهم بتصنيعه ــ **دعت الضرورة إلى إثبات التصرفات القانونية بالكتابة** وذلك بسبب موت الشهود أو سفرهم أو غيابهم لأي سبب من الأسباب[١٦٥] .

وقد ساعد على ذلك نشاط حركة التدوين في أول هذا القرن ، **فدوّنت السنة** ، وفتاوي المفتين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، كما دونت موسوعات في تفسير القرآن وفقه الأئمة المجتهدين ، ورسائل في أصول الفقه ، كما ظهرت مواهب عدد كبير من رجال الاجتهاد والتشريع وسرت فيهم روح تشريعية كان لها أثر بارز في التقنين واستنباط الأحكام فيما وقع ويحتمل وقوعه . وتمخض ذلك عن ثروة تشريعية أغنت الدولة الإسلامية بالقوانين والأحكام على سعة أرجائها واختلاف شئونها وتعدد مصالحها . وكان المسلمون في ذلك العهد شديدي الحرص على أن تكون جميع أعمالهم من عبادات ومعاملات وعقود وتصرفات وفق أحكام الشريعة الإسلامية[١٦٦] .

وفي ذلك العهد برز أعلام لهم مواهبهم واستعداداتهم ، وساعدتهم البيئة التي عاشوا فيها على استثمار هذه المواهب والاستعدادات فتكونت الملكة التشريعية لدى كثير من أفذاذهم أمثال أبي حنيفة وأصحابه والشافعي وأصحابه وأحمد وأصحابه وغيرهم من معاصريهم من الأئمة المجتهدين[١٦٧] .

وكانت الحاجات العملية اليومية للناس تحتم إثبات التصرفات بالكتابة ، لأن ذاكرة الشهود لم تكن لتتسع لتذكر كافة التفاصيل عند تنازع الأطراف المعنية أمام القاضي « فالمقصود من الكتاب أن يتذكر (الشخص) إذا نظر فيه لأن الكتاب للقلب كالمرآة للعين ، وإنما تعتبر المرآة ليحصل الإدراك بالعين »[١٦٨] .

فإذا ترافع إلى القاضي خصمان فأقر أحدهما لصاحبه ، وطلب المقرّله من القاضي أن يشهد له شاهدين على إقرار الخصم « لزمه ذلك لأن الحاكم (القاضي) لا يحكم بعلمه فربما جحد المقرّ فلا يمكنه الحكم بعلمه » ولو كان يحكم بعلمه احتمل أن ينسى فالإنسان عرضة للنسيان ، فلا يمكنه الحكم بإقراره . وكذلك إذا ثبت عنده حق بنكول المدعى عليه أو بيمين المدعي بعد النكول فسأله المدعي أن يشهد على نفسه « لزمه لأنه لا حجة للمدعي سوى الإشهاد » . وإن ثبتت عنده بيّنة فسأله الإشهاد يجبه ذلك ، وإن حلف المنكر وسأل القاضي الإشهاد على براءته لزمه ليكون حجة له في سقوط المطالبة مرة أخرى « وفي جميع ذلك إذا سأله أن يكتب له محضراً بما جرى ، يلزمه ذلك لأنه وثيقة له فهو كالإشهاد ، لأن الشاهدين ربما نسيا الشهادة أو نسيا الخصمين « فلا يذكرهما إلا ذوي خطهما » لأن الشهود تكثر عليهم الشهادات ويطول عليهم الأمد ، فالظاهر أنهم لا يتحققون الشهادة تحققاً يحصل به أداؤها « فلا يتقيد إلا بالكتاب »[١٦٩] .

وكانت الخصومات تكتب في مجلس القضاء بواسطة كاتب من أهل العفاف والصلاح ، وكان القاضي يقعده حيث يرى ما يكتب وما يصنع ، فتكتب خصومة كل خصمين وما كان بينهما من الشهادة في صحيفة (وثيقة) يطويها ويخرمها (يثقبها) ثم يختمها بخاتمه ويكتب عليها « خصومة فلان في شهر كذا من سنة كذا » ويجعل خصومة كل شهر في قمطر على حدة « حتى يكون أبصر على ذلك »[١٧٠] .

وعلى الرغم من أهمية تسجيل التصرفات بالكتابة واقتناع الفقهاء بضرورة تسجيل الإقرار وشهادة الشهود عند القضاء خشية اختفاء الشهود لسبب من الأسباب فتضيع الحقوق على أصحابها إذا ما تنازع الخصوم ، إلا أنهم انقسموا على أنفسهم حيال الاعتماد على الوثيقة المكتوبة ــ وتعاملوا معها بحذر ــ كأداة إثبات للحقوق . فإذا وجد القاضي في ديوانه كتاباً (وثيقة) فيه شهادة شهود « لا يحفظ أنهم شهدوا عنده فإنه لا يقضي به » في قول أبي حنيفة رضي الله عنه « حتى يذكره » ، ويجيزه « إذا تذكره وإن لم يثبته » .

وفي قول أبي يوسف وابن أبي ليلى يقضي « بما وجد من ذلك إذا وجده في قمطره وتحت خاتمه »[١٧١] لأن القاضي مع كثرة اشتغاله يعجز أن يحفظ كل حادثة ، ولهذا يكتب . « وإنما يحصل المقصود بالكتاب إذا جاز له أن يعتمد على الكتاب عند النسيان » فإن الآدمي ليس في وسعه التحرُّز عند النسيان « ألا ترى إلى ما ذكر الله تعالى في حق من هو معصوم فقال : **﴿ سنقرؤك فلا تنسى إلا ما**

شاء الله ﴾ [سورة الأعلى : ٦:٨٧]». وفي تخصيصه بذلك بيان أن غيره ينسى ، وسمي الإنسان إنساناً لأنه ينسى ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً ﴾[١٧٢] . فلو لم يجز له الاعتماد على كتابه عند نسيانه ، لأدّى إلى الحرج « والحرج مدفوع ، ثم ما كان في قمطره تحت خاتمه ، فالظاهر أنه حق وإن لم يصل إليه يد معتبرة ولا زائدة فيه ، والقاضي مأمور باتباع الظاهر ... »[١٧٣] .

وإذا وجد القاضي كتاباً (وثيقة) في ديوان القاضي الذي قبله لم يلتفت إليه ولم يقض به ، إلا أن تقوم البيّنة على قضائه به وهو قاض قبل أن يعزل . وإذا أتى أحد القاضي بكتاب قاض على بلد سوى بلده ، فإنه ينبغي له أن يستوثق من صحته ، فيسأل الذي جاءه بالكتاب البيّنة على كتاب القاضي ، أنه كتابه وخاتمه ، ثم يقرؤه على الشهود « بمحضر المكتوب له والمكتوب فيه » بعد أن يشهد الشهود أن القاضي الذي كتبه إليه قد قرأه عليهم[١٧٤] . وإذا مات القاضي الكاتب (صاحب الوثيقة) أو عزل ، فلا يجب على القاضي المكتوب إليه أن يجيز ذلك الكتاب ، وكذلك إذا مات القاضي المكتوب إليه أو عزل ثم ولي القضاء غيره « لم ينبغ له أن يجيز ذلك الكتاب لأنه لغيره »[١٧٥] . كما أنه لا ينبغي للقاضي أن يقبل كتاب قاض إليه في حق لرجل على رجل حتى يكتب اسمه واسم أبيه وجدّه وقبيلته ، وذلك « حتى لا يكون في قبيلته أحد يقع الإشكال في أمره »[١٧٦] .

وهكذا فإنه على الرغم من **انتشار الوثائق المكتوبة** ، إلا أن وسيلة إثبات الحقوق بها لم تكن لقيمة الوثيقة ذاتها وإنما لما تحتويه من إشهاد ، أي أن الوثيقة المكتوبة ليست إلا شهادة الشهود بعد تسجيلها بالكتابة . ولهذا النظام عيوبه لأنه كان يمكن الطعن في عدالة الشهود . ومن هنا نشأت الحاجة إلى إيجاد نظام يحدد الشهود الذين تحق لهم الشهادة وهو النظام الذي نشأ فيما بعد وعرف باسم نظام الشهود العدول[١٧٧] .

فقد كان القضاة يقبلون الشهادة إذا لم يطعن فيهم الخصم ويجرحهم . فكان الخصم هو الذي يجرح شهادة الشاهد ، وإذا أراد الخصم أن يسأل عن الشهود فله ذلك . وإذا ثبت للقاضي صحة ما جرح به الشاهد توقف عن قبول شهادته[١٧٨] .

وكان لا يفترض أن يكون الخصم على علم بعدالة من يشهد عليه ، وربما عجز عن إثبات فقدان الشاهد لشروط الشهادة ، ولهذا كان القضاة يطلبون من الشاهد أن يُحضر من يزكيه وهو ما عرف باسم « التزكية العلنية » والمقصود بها التحقق من أمانة الشاهد وصدقه ، وبناء على هذه التزكية يقبل القاضي الشاهد أو يرفضه[١٧٩] .

ولم يقتصر القضاة على هذه التزكية العلنية ، فلجأوا أيضاً إلى ما عرف باسم « **التزكية السرية** »[١٨٠] . وللتحقق من صدق الشهود ظهرت وظيفة عرفت باسم « صاحب مسائل » يتولى القائم بها بحث بعض الأمور التي تتطلبها القضايا (تحريات) ومن بينها السؤال عن الشهود وهو ما عرف باسم « التعديل »[١٨١] .

ومع ذلك فإن أي شخص كان يحق له أن يكتب الوثيقة ما دام أنه يعرف الكتابة . ولكن قلة انتشار التعليم وعدم معرفة الصيغ الفقهية والقانونية هو الذي أدى إلى أن تنحصر كتابة الوثائق في أيدي فئة متخصصة يمكن وصفهم بأنهم أصحاب صناعة كتابة الوثائق . إذ إنه لو تولى شخص لا يعرف القواعد الفقهية في كتابة الوثيقة لما استطاع أن يصوغها في قالبها الذي يحفظ حقوق المتعاقدين[١٨٢] .

والملاحظ بصفة عامة أن الوثائق الإسلامية الخاصة لم تكن تحمل علامات إثبات موسمية معتمدة من جهة عامة ، ولا إشهاداً للتصرفات القانونية ، وإنما هي مجرد كتابة مضبوطة لهذه التصرفات أو حفظ لها عن طريق الكتابة[١٨٣] . ولهذا يصفها الفقهاء المسلمون بأنها مجرد **ضبط لأمور الناس الشرعية وحفظ دماء المسلمين وأموالهم** ، فيذكر ابن خلدون في مقدمته أنها « الشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم تحملاً عند الإشهاد وأداء عند التنازع وكتباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم[١٨٤]» . ومن هنا لم يظهر في المجتمع الإسلامي قانون يلزم المتعاقدين أو أصحاب التصرفات القانونية بوضع علامات معينة لإثبات وثائقهم ، فكانت جميع الوثائق المكتوبة تجري بين أفراد بصفتهم الشخصية .

هذا بالنسبة لجميع أنواع التصرفات القانونية والعقود فيما عدا «الدَّيْن» الذي نصت الآيتان ٢٨٢ و ٢٨٣ من سورة البقرة على كتابته ، ووضحت قواعد هذه الكتابة . وبالرغم من هذه القاعدة الفقهية التي نصادفها في كتب الشريعة الإسلامية ، فإن ممارسة إثبات التصرفات القانونية خلاف « الدَّيْن » بالكتابة كان أمراً شائعاً في العالم الإسلامي منذ ظهور الإسلام ، حتى إن مؤلفي علم الشروط قد استنلوا عند تأليفهم لقواعد هذا العلم إلى واقعتين من السنة النبوية الشريفة ، أولاهما وثيقة عامة هي صلح الحديبية ، والثانية وثيقة خاصة كتبت عندما اشترى الرسول ﷺ من العداء خالد بن هوذة الحيسر عبداً[١٨٥] .

ظهور علم الشروط

ومع نشأة الحاجة إلى تسجيل التصرفات بالكتابة كان لا بد من إيجاد قواعد محددة يلزم بها كاتب الوثيقة بحيث تصاغ كل عبارة لتدل على معنى قانوني محدد . ولذلك نشأ علم يختص بوضع صيغ مناسبة لكتابة كافة أنواع العقود ، وسمي ذلك العلم بعلم الشروط ؛ وقد عرّفه حاجي خليفة بأنه « علم باحث عن كيفية ثبت الأحكام الثابتة عند القاضي في الكتب والسجلات على وجه يصح الاحتجاج به عند انقضاء شهود الحال . وموضوعه تلك الأحكام من حيث الكتابة ، وبعض مبادئه مأخوذ من الفقه ، وبعضها من علم الإنشاء ، وبعضها من الرسوم والعادات والأمور الاستحسانية . وهو من فروع الفقه من حيث كون ترتيب معانيه موافقاً لقوانين الشرع ، وقد يجعل من فروع الأدب باعتبار تحسين الألفاظ »[١٨٦] .

وهكذا اقتضت الممارسة الاجتماعية وظروف الشهادة والشهود أن تظهر **مهنة الوثائقي** أو الموثوق **المسمى كاتب الشروط** وينتظم عمله شكل الوثيقة ومضمونها معاً . فكان لا بد أن يكون مدرباً على كتابة الوثائق عارفاً بمختلف أنواعها ، دارساً لعلم الشروط دراسة وافية قبل البدء في كتابة الوثائق[١٨٧] .

وقد ظهر في هذا العلم مجموعة من المؤلفات حفظت لنا دور الكتب عدداً منها ، وأقدم ما وصلنا منها « كتاب الجامع الكبير في الشروط » لأبي جعفر الطحاوي (ت ٣٢١ هـ)[١٨٨] . وقد عرفت هذه الكتب بكتب المصطلح الوثائقي الخاصة وهي تحوي القواعد التي يجب أن يلتزم بها كاتب الوثيقة في صياغتها . وقد احتاط الشروطيون على قدر ما وسعهم الجهد عند انتقاء الألفاظ وتركيب الصيغ الفقهية بحيث تكون غاية في الدقة . فإن أي اختلاف حول تفسير أي لفظ أو صيغة قد يؤدي إلى الدفع ببطلان الوثيقة عند تقديمها للقاضي[١٨٩] .

وقد نشأ هذا العلم أول الأمر في **المدرسة الحنفية** في منتصف القرن الثاني الهجري ، إلا أنه سرعان ما انتقل إلى المذهب الشافعي . كما انتقل إلى المذهب المالكي ، وعرف عند أصحابه باسم « علم الوثائق » . ويلاحظ بصفة عامة أن العبارات والصيغ التي استعملها أصحاب كل مدرسة تختلف عن العبارات والصيغ التي استعملها أصحاب المدارس الأخرى[١٩٠] .

وقد ارتبط بعلم الشروط علم آخر هو **علم المحاضر والسجلات**[١٩١] الذي يدرس الصيغ اللازمة لكتابة الحكم الذي أصدره القاضي في الدعوى وإثباته في السجلات التي يحتفظ بها عنده في ديوانه . فإذا ترافع خصمان إلى قاض فأقر الحق لصاحبه ، وسأله صاحب الحق أن يكتب له محضراً بما جرى أجابه القاضي لذلك « لأنه وثيقة له فهو كالاشهاد لأن الشاهدين ربما نسيا الشهادة أو نسيا الخصمين » ، ورؤية خطهما تعينهما على التذكر[١٩٢] .

وصفة المحضر « حضر القاضي فلان بن فلان الفلاني قاضي عبد الله الإمام فلان على كذا » . وإن كان خليفة القاضي قال : « خليفة القاضي فلان بن فلان الفلاني عبد الله قاضي الإمام بمجلس حكمه وقضائه » . فإن كان يعرف المدعي والمدعى عليهما بأسمائهما وأنسابهما قال : « فلان بن فلان الفلاني وأحضر معه فلان ابن فلان الفلاني » ، ويرفع في نسبهما حتى يتميز ، ويستحب ذكر حليتهما ، وإن أخل به جاز لأن ذكر نسبهما إذا رفع فيه أغنى عن ذكر الحلية . وإن كان الحاكم (القاضي) لا يعرف الخصمين قال : « مدع ذكر أنه فلان بن فلان الفلاني وأحضر معه مدعى عليه ذكر أنه فلان بن فلان الفلاني » ويرفع في نسبهما ويذكر حليتهما لأن الاعتماد عليها ، فربما استعار النسب ... ويذكر صفة العينين والأنف والفم والحاجبين واللون والطول والقصر ، ما ادعى عليه كذا وكذا فأقر له . ولا يحتاج أن يقول « بمجلس حكمه » لأن القرار يصح في غير مجلس الحكم . وإن كتب أنه شهد على إقراره شاهدان كان أوكد . ويكتب الحاكم (القاضي) على رأس المحضر « الحمد لله رب العالمين أو ما أحب من ذلك »[١٩٣] .

وفي حالة إنكار المدعى عليه الحق ، وشهدت عليه بيّنة ، وطلب المدعي من القاضي أن يكتب له محضراً بما جرى أجابه لذلك . وصفة المحضر : وذلك في وقت كذا ، ويحتاج ههنا أن يذكر « بمجلس حكمه وقضائه » بخلاف الإقرار ، لأن البينة لا تسمع إلا في مجلس الحكم والإقرار بخلافه . ويكتب الحاكم في آخر المحضر « شهدا عندي بذلك » . فإن كان مع المدعي كتاب فيه خط الشاهد ، كتب تحت خطوطهما ، أو تحت خط كل واحد منهما « شهد عندي بذلك » ويكتب علامته في رأس المحضر « وإن اقتصر على ذلك دون المحضر جاز »[١٩٤] .

وإذا لم تكن للمدعي بينة فاستحلف المنكر ، ثم سأل المنكر القاضي محضراً حتى لا يحلف له مرة ثانية في ذلك الأمر ، كتب له مثل ما تقدم (مثل المحضر السابق) (إلا أنه يقول : فأنكر فسأل الحاكم المدعي « ألك بيّنة ؟ » فلم تكن له بيّنة . فقال لك يمينه فسأله أن يستحلفه ، فاستحلفه في مجلس حكمه وقضائه في وقت كذا وكذا . ولا بد من ذكر تحليفه لأن الاستحلاف لا يكون إلا في مجلس الحكم ، ويعلم في أوله خاصة . وإن نكل المدعى عليه اليمين قال : « فعرض اليمين على المدعى عليه فنكل عنها ، فسأل خصمه

الحاكم أن يقضي عليه بالحق فقضى عليه في وقت كذا ، ويعلم في آخره ، ويذكر أن ذلك في مجلس حكمه وقضائه»[١٩٥].

فأما إذا سأل صاحب الحق القاضي أن يحكم له بما ثبت في المحضر (لزمه أن يحكم له به وينفذه . فيقول : « حكمت له به ، ألزمته الحق ، أنفذت الحكم به » . فإن طالبه أن يشهد له على حكمه لزمه ذلك « لتحصل له الوثيقة به » لأن الكتابة لا تثبت حقاً بخلاف الاشهاد)[١٩٦] .

وإذا طلب صاحب الحق من القاضي « أن يُسجل له به » وهو يكتب المحضر ويشهد على إنفاذه « سَجّل له » . وهذه صورة السجل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أشهد عليه القاضي فلان بن فلان الفلاني قاضي عبد الله الإمام على كذا وكذا في مجلس حكمه وقضائه في موضع كذا وكذا في وقت كذا وكذا . أنه ثبت عنده بشهادة فلان وفلان ونسبهما . وقد عرفهما بما ساغ له به قبول شهادتهما عنده بما في كتاب نسخه (وينسخ الكتاب إن كان معه أو المحضر في أي حكم كان) . فإذا فرغ منه قال بعد ذلك فحكم به فأنفذه وأمضاه بعد أن سأله فلان بن فلان أن يحكم له به . ولا يحتاج أن يذكر أنه بمحضر المدعي عليه . لأن القضاء على الغائب جائز ، فإن أراد أن يذكره احتياطاً ، قال : بعد أن حضره من ساغ له الدعوى عليه »[١٩٧] .

ويكتب القاضي من السجل والمحضر نسختين : إحداهما تكون في يد صاحب الحق ، والأخرى تكون في ديوان القاضي . فإن هلكت إحداهما نابت الأخرى عنها ، وتختم التي بديوان القاضي « ويكتب على طيه سجل فلان بن فلان أو محضر فلان بن فلان أو وثيقة فلان ابن فلان » . وإذا كثر عدد السجلات والمحاضر التي « تخص سنة معينة » رتبها الكاتب ترتيباً زمنياً داخل السنة بالأسبوع والشهر « ويدعها ناحية ويكتب عليها ، كتب سنة كذا » حتى إذا دعت الحاجة استرجاع ما قد يطلب منها تيسّر له ذلك . وينبغي أن « يتولى جمعها وشدّها بنفسه لئلا يُزَوَّر عليه »[١٩٨] .

هذا بالنسبة للمحاضر والسجلات ، أما بالنسبة للوثائق ، فقد أورد الشروطيون في كتبهم نماذج للوثائق المختلفة ، منها على سبيل المثال ذلك **النموذج الذي أورده الطحاوي لوثيقة رجل اشترى داراً** : « هذا ما اشترى فلان بن فلان بن فلان الفلاني من فلان بن فلان بن فلان الفلاني ، اشترى منه جميع الدار التي بمدينة كذا في الموضع الذي منها المعروف بكذا ، ويحيط بهذه الدار ويجمعها ويشتمل عليها حدود أربعة أحد حدود جماعتها الحدّ الأول وهو كذا ينتهي إلى كذا والحد الثاني وهو كذا ينتهي إلى كذا والحد الثالث وهو كذا ينتهي إلى كذا والحد الرابع وهو كذا ينتهي إلى كذا ؛ وفيه يشرع باب هذه الدار المحدودة في هذا الكتاب ، اشترى فلان بن فلان بن فلان بن فلان بن فلان بن فلان جميع هذه الدار المحدودة الموصوف جماعتها في هذا الكتاب بحدودها كلها وأرضها وبنائها وسفلها وعلوّها ومرافقها في حقوقها وطرقها التي هي لها في حقوقها ومسايلها في حقوقها وكل قليل وكثير هو لها فيها ومنها من حقوقها وكلّ حقّ هو لها داخل فيها وكلّ حقّ هو لها خارج منها بكذا كذا ديناراً مثاقيل ذهباً عيناً وازنة جياداً[١٩٩] شراء لا شرط فيه ولا عدة ودفع فلان بن فلان إلى فلان بن فلان جميع الثمن المسمّى في هذا الكتاب وقبضه منه فلان بن فلان واستوفاه منه تامّاً كاملاً وأبرأه من جميعه بعد قبضه إياه واستيفائه له منه وهو كذا وكذا ديناراً مثاقيل ذهباً عيناً وازنة جياداً وسلم فلان بن فلان بن فلان إلى فلان بن فلان بن فلان جميع ما وقع عليه هذا البيع المسمى في هذا الكتاب وقبضه منه فلان ابن فلان وصار في يده وقبضه بهذا الشراء المسمّى في هذا الكتاب . وذلك بعد أن أقر فلان بن فلان وفلان بن فلان أنهما قد رأيا جميعاً جميع هذه الدار المحدودة في هذا الكتاب . وجميع حقوقها وجميع ما فيها ومنها من بناء ومنازل وكلّ قليل وكثير وعاينا ذلك كله داخله وخارجه . وتبيّن لهما ذلك كله جميعاً وعرفاه عند عقدة هذا البيع المسمى في هذا الكتاب بينهما وقبل ذلك فتبايعا على ذلك وتفرقا جميعاً بأبدانهما بعد هذا البيع المسمى في هذا الكتاب عن تراض منهما جميعاً بجميعه وإنفاذ منهما له فما أدرك فلان بن فلان فيما وقع عليه هذا البيع المسمى في هذا الكتاب ، وفي شيء منه ومن حقوقه من درك من أحد من الناس كلهم ، فعلى فلان بن فلان تسليم ما يجب عليه في ذلك من حق ويلزمه بسبب هذا البيع المسمى في هذا الكتاب حتى يسلم ذلك إلى فلان بن فلان على ما يوجبه له عليه هذا البيع المسمى في هذا الكتاب . شهد على إقرار فلان بن فلان الفلاني يعني البائع وفلان بن فلان بن فلان الفلاني يعني المشتري بجميع ما في هذا الكتاب ، بعد أن قرىء عليهما جميعاً جميع ما فيه من أوله إلى آخره . فأقرّا أن قد فهماه وعرفا جميع ما فيه حرفاً حرفاً في صحة عقولهما وأبدانهما وجواز أمورهما طائعين غير مكرهين ، وعلى معرفتها بأعيانهما وأسمائهما وأنسابهما وذلك في شهر كذا من سنة كذا »[٢٠٠] .

والفقرات التي وردت في هذا النموذج تبيّن مقدار **الدقة** التي اتبعها الطحاوي عند كتابة الوثيقة والاحتياط الذي اتخذه ليمنع الدفع ببطلانها عند تقديمها إلى القاضي[٢٠١] ، وهذه الفقرات هي :

أولاً : تحديد شخصية أطراف التصرف القانوني (المشتري والبائع) كل واحد منهما باسم أبيه وجده ولقبه وصناعته إن كانت له صناعة

وملامحه المميزة بحيث لا يختلطان بغيرهما من الأشخاص .

ثانياً : تحديد موقع الدار المشتراة عن طريق إثبات ما يجاور كل حد من حدودها مع الاحتياط بذكر أن الشراء قد شمل كل حقوق الارتفاق .

ثالثاً : تحديد الثمن الذي اتفق عليه الطرفان ، وإثبات دفعه إلى البائع وتحديد نوع الدنانير ووزنها . وإثبات تسليم الدار المباعة إلى المشتري وإثبات تفرق البائع والمشتري بعد ذلك بالأبدان حتى لا يكون هناك مجال لإفساد العقد .

رابعاً : إثبات معاينة الدار المباعة قبل شرائها وأن المشتري قد رضي بالشراء بعد المعاينة .

خامساً : إلزام البائع بتسليم الدار خالية من الموانع القانونية (أي أنه لا حق لأحد فيها سوى البائع) . فإذا ظهر في المستقبل خلاف ذلك كان على البائع إنهاء النزاع

سادساً : إثبات أن الطرفين قد أقرّا بفهم ما في الوثيقة وهما في صحة أبدانهما وعقولهما .

سابعاً : إثبات شهادة الشهود على توقيع العقد .

وهذه الوثيقة بفقراتها السابقة هي الأساس الذي بنيت عليه كتابة سائر وثائق بيع العقارات في مختلف البلدان الإسلامية ، مع اختلاف العبارات من بلد إلى آخر ، ومن زمن إلى آخر ، ومن مذهب إلى آخر[٢٠٢] .

على أن هناك أنواعاً أخرى من البيوع اجتهد الشروطيون في وضع عباراتها وألفاظها مثل بيع الرقيق ، وبيع السلم ، وبيع الدواب ، وبيع الثمار إلى غير ذلك[٢٠٣] .

وذلك **نموذج آخر لوثيقة في المُكاتب**[٢٠٤] أملاها الإمام الشافعي رحمه الله ، قال الشافعي : « هذا كتاب كتبه فلان بن فلان في شهر كذا من سنة كذا ، وهو صحيح لا علّة به من مرض ولا غيره ، جائز الأمر في ماله ، لمملوكه فلان الفلاني الذي صفته كذا وكذا ، أنك سألتني أن أكاتبك على كذا وكذا ديناراً مثاقيل جياداً تؤديها إليّ منجمة في مضي عشر سنين كلما مضت سنة أديت إليّ كذا وكذا ديناراً . وأول نجومك التي تحلّ لي عليك انسلاخ سنة كذا ، كل نجم منها بعد مضي سنة حتى يكون أداؤك آخرها انسلاخ سنة كذا ، فإذا أديت جميع ما كاتبتك عليه ، وهو كذا وكذا فأنت حرّ لوجه الله تعالى ، لا سبيل لي ولا أحد عليك ولي ولاؤك وولاء عقبك من بعدك . فإن عجزت عن نجم من هذه النجوم فلي نسخ كتابتك ، شهد على إقرار السيد وفلان الفلاني المملوك بما في هذا الكتاب »[٢٠٥] .

والفقرات التي أوردها الشافعي في هذا النموذج تبيّن أيضاً مقدار الدقة التي اتبعها عند كتابة الوثيقة والاحتياط الذي اتخذه ليحفظ لكل ذي حق حقه . وهذه الفقرات هي :

أولاً : تحديد شخصية أطراف التصرف القانوني : السيد ، والمملوك (العبد) ؛ السيد باسمه واسم أبيه ، والمملوك باسمه وصفته (ملامحه) المميزة حتى لا يختلط بغيره من الأشخاص .

ثانياً : تاريخ التصرف بالشهر والسنة .

ثالثاً : إثبات أن المتصرف (السيد) صحيح البدن لا علّة به من مرض وغيره وجائز الأمر في ماله .

رابعاً : تحديد مقدار المال الذي اتفق عليه الطرفان وكيفية تسديده في فترات زمنية محدودة .

خامساً : إلزام السيد بإطلاق سراح المملوك ليصبح حراً إذا أدى جميع ما تمّ مكاتبته عليه . وإن عجز عن الوفاء بما هو متفق عليه ، كان للسيد فسخ هذه المكاتبة .

سادساً : إثبات شهادة الشهود على إقرار طرفي الوثيقة .

وإذا تتبعنا نماذج الوثائق التي وردت في كتب الشروط وجدنا أن مؤلفيها حاولوا إحصاء كل التصرفات القانونية في المعاملات بين الأفراد ، ثم اجتهدوا في صياغة العبارات بنفس المنهج المتبع في وثائق البيع ، سواء كان ذلك في وثائق الزواج والطلاق أو الرهن أو الهبة أو الوقف أو الإيجارات أو المزارعة أو المغارسة[٢٠٦] ، وذلك لحرص الناس على تسجيل تصرفاتهم في وثائق تحفظ حقوقهم . وكان شيوع هذا العلم مدعاة إلى أن يتخذ بعض الشهود العدول المشار إليهم ، حرفة كتابة الوثائق . وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الصناعة وسماها وظيفة ، مما يدل على أن كتاب الوثائق كانت لهم أماكنهم المخصوصة أو حوانيتهم ، ودكاكينهم ، وكانت تسمى « حوانيت التعديل »[٢٠٧].

وكانت من **شروط هذه الوظيفة** « القيام بكتب السجلات والعقود من جهة عبارتها وانتظام فصولها ، ومن جهة أحكام شروطها الشرعية وعقودها ، فيحتاج إلى ما يتعلق بذلك من الفقه . ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض العدول .... ولهم في سائر الأمصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها فيتعاهدهم أصحاب المعاملات للإشهاد وتقييده بالكتاب »[٢٠٨] .

خاتمة

وهكذا كان كاتب الوثائق يقوم بكتابة كل أنواع العقود

المختلفة ، كعقود البيع ، والزواج ، وعتق العبيد ، وتقسيم الميراث ، والوقف ، والشركات ، والديون ، والرهون ، والإيجارات إلى غير ذلك .

وقد أدى تحول وظيفة شاهد العدل إلى كاتب وثائق إلى نتائج بعيدة المدى في كتابة الوثائق من حيث الشكل (إخراج الوثائق) ، والمضمون (محتوى الوثيقة وصياغتها)[٢٠٩] ، حتى لا يمكن الدفع ببطلانها ، ومن ثم تحقق الأهداف التي كتبت من أجلها ؛ وهي :

أولاً : صيانة الأموال ، وقد أمرنا بصيانتها ونهينا عن إضاعتها .

ثانياً : قطع المنازعة ، فإن الكتاب يصير حكماً بين المتعاملين يرجعان إليه عند المنازعة فيكون سبباً في تسكين الفتنة ، لا يجحد أحدهما حق صاحبه مخافة أن يخرج الكتاب وتشهد الشهود عليه فيفتضح في الناس .

ثالثاً : التحرز عند العقود الفاسدة ، لأن المتعاملين ربما لا يهتديان إلى الأسباب المفسدة للعقد ليتحرزوا عنها فيحملهما الكاتب على ذلك إذا رجعا إليه .

وأخيراً : رفع الارتياب ، فقد يشتبه على المتعاملين — إذا تطاول الزمان — مقدار البدل ومقدار الأجل . فإذا رجعا إلى الكتاب لا يبقى لواحد منهما ريبة ، وكذلك بعد موتهما تقع الريبة لوارث كل واحد منهما بناء على ما ظهر من عادة أكثر الناس في أنهم لا يؤدون الأمانة على وجهها ، فعند الرجوع إلى الكتاب لا تبقى الريبة بينهم[٢١٠] .

الهوامش

١ . عبد الستار الحلوجي : المخطوط العربي منذ نشأته إلى آخر القرن الرابع الهجري . الرياض ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٩٧٨ ، ص ١٧ .

٢ . سيدة إسماعيل كاشف : مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه . القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٦ ، ص ١٢ .

٣ . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ ٨ . بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧١ ، ص ٢٤٨ .

٤ . محمد أبو الفرج العش : نشأة الخط العربي وتطوره ؛ مجلة الدارة ، ع ١ ، ١٣٩٩ هـ ، ص ١٢٣ ، ١٢٧ .

٥ . البلاذري (أبو الحسن أحمد يحيى بن جابر) : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، نشر صلاح الدين المنجد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٦ ، ص ٥٨٣ .

٦ . المرجع نفسه ، القسم الثالث ، ص ٥٨٣ .

٧ . ابن سعد : الطبقات الكبرى ، مج ٥ . بيروت ، دار صادر وادر بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ص ٥٠٥ — ٥٠٦ ، البلاذري : المرجع السابق ، القسم الثالث ، ص ٥٧٩ .

٨ . لما انهزم المشركون سنة ٨ هـ أمام المسلمين في حنين أتوا الطائف ، وأغلقوا عليهم أبوابها وصنعوا الصنائع للقتال ، ثم صار رسول الله ﷺ إلى الطائف وفرض عليها الحصار . ولم يشهد حنيناً ولا حصار الطائف عروة بن مسعود ، ولا غيلان بن سلمة ؛ فقد كانا بجرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق (انظر ، الطبري (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، جـ ٣ . بيروت ، دار القاموس الحديث ، د .ت ، ص ص ١٣٠ — ١٣٢ ، البلاذري : المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ٦٥) .

٩ . ابن حبيب (أبو جعفر محمد) : المحبر ، رواية سعيد الحسن بن الحسين السكري ، تصحيح ايلزة ليختن شتيتر . بيروت ، المكتب التجاري للطباعة ، د .ت ، ص ٤٧٥ ، ابن رستة (أبو علي محمد بن عمر) : الأعلاق النفيسة . ليدن ، مطبعة بريل ، ١٨٩١ ، ص ٢١٦ .

١٠ . الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) : البيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، جـ ٤ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٧٥ ، ص ٧٦ .

١١ . ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، ص ٥٧ .

١٢ . سورة الفرقان : ٢٥ : ٥ .

١٣ . ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) : سيرة النبي ﷺ ، جـ ١ ، مراجعة محمد محيي الدين عبد الحميد . بيروت ، دار الفكر ، ١٩٨١ ، ص ٣٨١ .

١٤ . سورة الإسراء : ١٧ : ٩٠ — ٩٣ .

١٥ . سورة الأنعام : ٦ : ٧

١٦ . ناصر الدين : المرجع السابق ، ص ٥٢ .

١٧ . كتب العرب في الجاهلية أيضاً على العسب (جريد النخل إذا يبس ونزع خوصه) ، والكرانيف (أصول السعف الغليظ الملتصق بجذع النخلة) . (ابن منظور، جمال الدين محمود بن مكرم : لسان العرب ، مج ٩ . بيروت ، دار صادر ودار بيروت ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩٧) . وأكتاف الإبل والغنم وأضلاعها ، واللخاف (وهي

العوامل الأساسية التي تؤثر في قدرة المكتبات على تحقيق طلبات المستفيدين

عجلان بن محمد العجلان

أستاذ مساعد في قسم المكتبات والمعلومات بكلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تشير نتائج الدراسات التي أجريت على عدد من المكتبات إلى أن فرص المستفيدين في الحصول على المواد التي يبحثون عنها تقل عن ٦٠ في المئة على الرغم من أن المكتبات تمتلك في المعدل ٩٠ في المئة من طلبات الكتب التي يبحثون عنها . وبعبارة أخرى فإن من بين كل عشرة كتب يبحث عنها المستفيد سوف يغادر المكتبة دون أن يحصل على أربعة أو خمسة منها .

ولقد أجريت دراسات لمعرفة الأسباب التي تجعل من المواد غير متيسرة أو متاحة unavailable للمستفيدين وقت طلبها . ويمكننا أن نميز بين نوعين من هذه الدراسات . دراسات اتجهت إلى التركيز على عامل أو عوامل منفصلة من العوامل التي تؤثر في قدرة المكتبات على تحقيق طلبات المستفيدين . فجاسكيل[١] Gaskill وغيره[٢،٣،٤] فيما بعد على سبيل المثال أشاروا إلى عدم حصول المستفيد على الكتب التي يبحث عنها لأن بيانات المؤلف والعنوان التي أحضرها المستفيد معه إلى المكتبة غير صحيحة أو دقيقة ، أما شفيلد[٥] Schofield فقد ذكر عدم تيسر المواد وقت طلبها بسبب كونها غير مقتناة من قبل المكتبة أو بسبب أخطاء المستفيدين عند البحث في المكتبة . ودراسة أخرى[٦] أجريت في مكتبة جامعة تنسي Tennessee أشارت إلى عدم حصول القراء على الكتب التي يبحثون عنها بسبب كونها معارة أو بسبب بعض الإجراءات المكتبية أو نتيجة لبعض الأخطاء التي ارتكبها المستفيدون عند البحث في رفوف المكتبة . أما النوع الآخر من الدراسات فإنها لا تكتفي بدراسة عامل أو عوامل منفصلة وإنما تحاول أن تجمع أو تدمج في مقياس واحد كل العوامل الرئيسة التي تؤثر في قدرة المكتبة على تلبية طلبات المستفيدين .

ولقد بدأ هذا الاتجاه حين وضع بول كانتر[٧] Paul Kantor طريقة التحليل التفريعي Branching Analysis . وهذه الطريقة — بإيجاز وتبسيط شديدين — تعتمد على معرفة عدد طلبات الكتب التي حققتها المكتبة وقت طلبها وطلبات الكتب التي لم تحققها . ثم تقسم هذه الطلبات الأخيرة في فئات أو مجموعات متتابعة تقابل العوامل المختلفة التي سببت فشل المستفيدين في الحصول على المواد التي يبحثون عنها . ويقاس أداء المكتبة في كل فئة أو مجموعة . ولقد أظهرت الدراسات المختلفة التي استخدمت هذه الطريقة أن هذه العوامل التي تؤثر في قدرة المكتبة على تحقيق طلبات المستفيدين يمكن أن تصنف في الفئات أو المجموعات التالية :

١ — أخطاء المستفيدين الببليوجرافية . وتحدث هذه الأخطاء عندما تكون بيانات المؤلف أو العنوان أو كليهما التي أحضرها المستفيد معه إلى المكتبة غير صحيحة أو غير كاملة ، أو عندما تكون طلبات الكتب التي يبحث عنها المستفيد غير معقولة ولا يتوقع من المكتبة أن تمتلكها .

٢ — أخطاء التزويد . وتحدث عندما يكون الكتاب المطلوب غير مملوك من قبل المكتبة على الرغم من أنه يتوقع من المكتبة أن تمتلكه .

٣ — أخطاء المستفيدين عند البحث في الفهارس . وتحدث عندما لا يجد المستفيد بطاقة الكتاب المطلوب في الفهرس على الرغم من كونها موجودة ، أو عندما يجد البطاقة ولكن يخطىء في تسجيل رقم الطلب Call number .

٤ — مداخلات الإعارة . وتحدث عندما يكون الكتاب المطلوب معاراً أو في حالة استعمال داخل المكتبة . وتشكل الإعارة الخارجية الجزء الأكبر من حالات الاستعمال . ومن هنا فإن هذه الفئة تتأثر بسياسة الإعارة الخارجية التي تتبعها المكتبة .

٥ — أخطاء بسبب بعض الإجراءات المكتبية الأخرى . وتحدث عندما يكون الكتاب غير المعار داخلياً أو خارجياً غير موجود في مكانه الصحيح على الرف وقت البحث عنه . كأن يكون الكتاب

موجوداً في مكان آخر خطأ Misshelved أو ينتظر وضعه على الرف أو عند التجليد أو مفقوداً .

٦ ــ أخطاء المستفيدين عند البحث على الرفوف . وتحدث عندما يكون الكتاب في مكانه الصحيح ولكن المستفيد فشل في العثور عليه ، أو عندما يكون محجوزاً ومشاراً إلى هذا في الفهرس ومع هذا لم يستطع المستفيد الاهتداء إليه .

ويلاحظ أن ترتيب العوامل أو الفئات السابقة على هذا النحو يماثل الخطوات المتتابعة التي يقوم بها المستفيد عند استخدام المكتبة ؛ فعند البحث في مكتبة من المكتبات لا بد في البداية من أن تكون بيانات المؤلف والعنوان التي أحضرها المستفيد معه صحيحة أو على الأقل كافية في التعرف على الكتاب الذي يبحث عنه ، وأن يكون هذا الكتاب ضمن إطار المكتبة . إذا كان الكتاب في الفهرس (أي مملوكاً) وليس معاراً داخل المكتبة أو خارجها وفي مكانه الصحيح . فإن الباحث يمكن أن يجده .

ويمكن قياس أداء (أو نجاح) المكتبة في كل فئة عن طريق تقسيم عدد الطلبات التي اجتازت كل عامل من هذه العوامل على مجموع الطلبات التي واجهت أو قابلت هذا العامل . ولتوضيح هذا لنفرض أن من بين ٤٠٠ كتاب معين يبحث عنها المستفيدون في مكتبة من المكتبات وجد أن معلومات المؤلف والعنوان لـ ٣٩٠ كتاباً كانت صحيحة وأنها ضمن إطار المكتبة ، وأن عشرة كتب كانت غير صحيحة البيانات أو خارج إطار المكتبة . فلقياس أداء عامل مهارات المستفيدين الببليوجرافية نقسم ٣٩٠ (الطلبات التي اجتازت العامل) على ٤٠٠ (مجموع الطلبات التي واجهت العامل) ولنفرض أيضاً أن من بين هذه الـ ٣٩٠ كتاباً وجد أن المكتبة تمتلك ٣٦٥ كتاباً ولا تمتلك ٢٥ كتاباً . فلقياس أداء التزويد نقسم الـ ٣٦٥ (الطلبات التي اجتازت التزويد) على ٣٩٠ (مجموع الطلبات التي واجهت التزويد) وهكذا مع العوامل الأخرى حسب الترتيب المشار إليه . ونكون بهذا قد حصلنا على مقاييس أداء لمختلف العوامل التي تؤثر في قدرة المكتبة على تلبية طلبات المستفيدين . مقاييس الأداء الناتجة هذه يمكن تفسيرها على أنها احتمالات Probabilities . وللوصول إلى مقياس عام لأداء المكتبة Overall Performance Measure أو لمدى نجاحها في تحقيق طلبات المستفيدين نضرب هذه الاحتمالات الناتجة في بعضها البعض .

في هذا البحث سنتناول بالتوضيح هذه العوامل الأساسية التي تؤثر في أداء المكتبات من خلال مراجعة لعدد من الدراسات الميدانية[٨-١٥] التي أجريت في عدد من المكتبات الجامعية . كما سنشير إلى بعض الحلول العامة التي يمكن أن تستعين بها المكتبات من أجل تحسين أدائها في أي جانب من هذه الجوانب . ويظهر جدول (أ) نتائج هذه الدراسات الميدانية ، كما يوضح مستويات الأداء (أو النجاح) لهذه العوامل المختلفة التي تؤثر في قدرة المكتبات على تحقيق طلبات المستفيدين . ولأن ثلاثة من هذه العوامل ترتبط أو تصف مهارات المستفيدين في استخدام المكتبة فإننا سنناقشها جميعاً في موضع واحد .

التزويد

جدول (أ) يظهر مستويات الأداء لبرامج التزويد في تلك المكتبات التي أجريت فيها الدراسات . كما يبين أن معدل الأداء في هذه المكتبات يصل إلى ٩٠ بالمئة ، بمعنى أن هذه المكتبات تمتلك في المعدل ٩٠ في المئة من طلبات الكتب المعنية التي يبحث عنها القراء .

مستويات الأداء للعوامل المختلفة التي تؤثر في قدرة المكتبات على تحقيق طلبات المستفيدين

	مكتبة سيرس ٪			مكتبة فرايبرج ٪			مكتبة الملك سعود ٪	مكتبة جامعة الملك فهد ٪	جامعة ولاية سان هوزي ٪	أريزونا ٪	جامعة الينوى ٪	سيل كيرك ٪	معدل الأداء
	٧٢	٧٤	٧٨	٧٣	٧٥	٧٩							
المهارات الببليوجرافية	—	—	—	—	—	—	٩٨	٩٥	٩٦	—	—	٩٩	٩٧
برنامج التزويد	٨٨	٩١	٨٥	—	٩٠	٧٤	٨٤	٩٥	٩٢	٩٤,٥	٩٨,٠٤	٩١,٥	٩٠
أداء الفهارس	—	—	—	—	—	—	٩١	٩٦	٨٨	٩٣,١	٩٠,٣٨	٨٨	٩١
سياسة الإعارة	٧٧	٨٧	٨٦	٨٤	٩١	٩٤	٩١	٧٨	٨٩	٩٢,٢	٩٣,٥٧	٧٩,٤	٨٧
الإجراءات الداخلية	٨٩	٨٦	٨٤	٨٥	٨٤	٩١	٩٢	٨٥	٩٤	٨٥,٧	٩٤,٠٨	٩٠,٥	٨٨
أداء المستفيدين	٨٠	٨٢	٨٦	٨٧	٩٤	٩٢	٨٤	٩٤	٩٢	٨٦,٩	٩٢,١٩	٩٨,٣	٨٩
الأداء العام	٤٨	٥٦	٥٣	—	٥٦	٥٨	٥٣	٥٤	٥٨,٩	٦٠,٤	٧١,٩١	٥٥,٣	٥٧

وهذه النسبة تشير بشكل عام إلى أن سياسات وإجراءات التزويد تعمل بشكل جيد في هذه المكتبات الجامعية . ويلاحظ في الدراسات التي أجريت على مكتبات سيرس Sears وفرايبرجر Freiberger أن هناك انخفاضاً في أداء التزويد في السنوات الأخيرة ، وذلك لأن الاشتراكات في الدوريات بدأت تستولي على قسم كبير من ميزانية الكتب في هذه المكتبات نظراً للأهمية المتزايدة التي أصبح أعضاء هيئة التدريس يولونها للدوريات المتخصصة ، مما أدى إلى انخفاض في أداء برامج تنمية المجموعات في هذه المكتبات . ولأن هذه الظاهرة غير مختصة بهاتين المكتبتين فإنه يتوقع أن تكون هناك مكتبات جامعية أخرى تعاني من المشكلة نفسها ولرفع مستوى أداء برنامج التزويد في هذه الحالة لا بد من زيادة عدد الكتب في المكتبة التي تتطلب بدورها زيادة في الدعم المادي لميزانية الكتب بالمكتبة .

في مكتبة جامعة الملك سعود كان أداء التزويد ــ أيضاً ــ منخفضاً انخفاضاً نسبياً . ومن الأسباب التي ربما أدت إلى هذا الانخفاض النسبي عدم وجود خطة مكتوبة وواضحة المعالم لتنمية المجموعات المكتبية بالمكتبة ؛ بالإضافة إلى ضعف مشاركة أعضاء هيئة التدريس في عملية الاختيار . وكذلك هناك نقص واضح في الأدوات الببليوجرافية التي يمكن أن تستعمل في اختيار الكتب العربية ، مثل الببليوجرافيات التجارية والوطنية ومراجعات الكتب وغيرها من الأدوات التي تساعد في تنمية المجموعات العربية . بالإضافة إلى هذه الأسباب هناك أسباب أخرى أشار إليها يحيى ساعاتي[16] مثل الشحن وصعوبة الحصول على الكتب من شركات التوزيع الحكومية في بعض الدول العربية ، وغيرها من الأسباب التي لا ترتبط مباشرة بالمكتبة ولكنها تؤثر في النهاية في أداء برنامج التزويد فيها .

هذا الوضع ليس خاصاً بمكتبة جامعة الملك سعود بأي حال من الأحوال بل يتوقع أن نجد مشكلات مماثلة في مكتبات جامعية أخرى تهتم بتنمية مجموعات مكتبية عربية مما يترتب عليه انخفاض في أداء التزويد . ولتحسين أداء برنامج التزويد في المكتبات التي تعاني من مثل هذه المشاكل يمكن عمل ما يلي :

١ ــ المبادرة إلى وضع خطط مكتوبة لتنمية المجموعات . فالخطة المكتوبة تساعد من يتولون الاختيار في العمل بطريقة أكثر انسجاماً نحو تحقيق الأهداف المحددة لمجموعات المكتبة ، ومن ثم لا تتأثر برامج الاختيار بتغير الأشخاص المشرفين على الاختيار ، كذلك فالخطة المكتوبة تفيد في إرشاد وإعلام مستعملي ومسؤولي المكتبة وغيرهم فيما يتعلق بإطار وطبيعة مجموعات المكتبة ، كما تقدم معلومات تساعد في توزيع وتقسيم ميزانية الكتب . ويمكن الاستفادة من المعايير التي أعدتها لجنة تنمية المجموعات بجمعية المكتبات الأمريكية[17] في المساعدة في صياغة خطط تنمية المجموعات .

٢ ــ العمل على إيجاد متخصصين موضوعيين بحيث يتولون مهمة الاختيار . ويمكن عمل هذا الشيء عن طريق توظيف خريجين جامعيين في تخصصات مختلفة ثم تدريبهم محلياً داخل قسم التزويد بالمكتبة المعنية أو عقد دورات لهم في أقسام المكتبات الموجودة بالبلاد في المعاهد والجامعات أو ابتعاثهم إلى الخارج لفترة محددة ، وبعد ذلك تستطيع المكتبة أن تعتمد عليهم في القيام بمهمة الاختيار .

٣ ــ إقامة علاقة وثيقة بين المكتبة والأقسام العلمية المختلفة داخل الكليات بحيث يكون هناك مثلاً لجان مكتبية داخل الكليات تضم ممثلين من مختلف الأقسام . كل لجنة تتولى الاختيار في مجالها العلمي بالتعاون مع موظفي المكتبة . ولضمان استمرار حيوية اللجنة ينبغي تغييرها بشكل دوري كل سنة دراسية مثلاً .

٤ ــ ينبغي العمل على توفير الأدوات الببليوجرافية اللازمة التي يمكن استخدامها في المساعدة لاختيار الكتب المنشورة باللغة العربية . ويمكن الاستعانة بالببليوجرافية المختارة التي أعدها ساعاتي[18] كأساس لتجميع هذه الأدوات الببليوجرافية .

الإعارة

جدول (أ) يبين مستويات أداء برامج الإعارة في هذه المكتبات الجامعية التي أجريت فيها الدراسات . ويظهر أن معدل الأداء يبلغ ٨٧ بالمئة في هذه المكتبات . بمعنى أن المستفيدين وجدوا في المعدل ٨٧ في المئة من الكتب التي يبحثون عنها غير معار خارج المكتبة أو في حالة استعمال داخل المكتبة ؛ و ١٣ في المئة لم يجدوها لأنها إما معارة خارج المكتبة أو داخلها .

ويلاحظ أن الإعارة ــ بشكل عام ــ تعتبر أكبر المصادر التي تسبب فشل المستفيدين في الحصول على المواد التي يبحثون عنها في هذه المكتبات الجامعية وفي المكتبات الجامعية بشكل عام .[19] هذا ونلحظ انخفاضاً في أداء برامج الإعارة في مكتبات سيرس (١٩٧٢) وفرايبرجر (١٩٧٣) وجامعة الملك فهد وسيل كيرك . ويمكن أن يعود هذا الانخفاض إلى سياسة الإعارة التي تتبعها هذه المكتبات . فنظام الإعارة في مكتبات سيرس وفرايبرجر يسمح بالإعارة لمدة فصل دراسي . ويصدق الشيء نفسه على مكتبة جامعة الملك فهد بالنسبة لأعضاء هيئة التدريس والباحثين بالجامعة ، بينما تتراوح فترة الإعارة من ١٠ إلى ٢٥ يوماً للطلبة . كذلك فإن معدل طلبات الكتب Book requests التي ترد إلى المكتبة عال مما يؤثر

على أداء الإعارة فيها .

وتظهر الدراسات التي تمت فيما بعد على مكتبات سيرس وفرايبرجر قوة التأثير الذي يتركه تغيير سياسة الإعارة . فبعد أن كانت الإعارة تصل إلى فصل دراسي خفضت إلى أربعة أسابيع مما نتج عنه زيادة في أداء الإعارة في حدود ١٠ بالمئة . وينبغي أن نشير إلى أن مدة الإعارة الواحدة لا تحدث نتائج متطابقة في أداء الإعارة في المكتبات المختلفة ، وذلك لأن أداء برنامج الإعارة يتأثر بالإضافة إلى مدة الإعارة بمعدل طلبات الكتب Book requests وبسياسة اقتناء النسخ المكررة Duplication التي تتبعها المكتبة .

من ناحية أخرى يلاحظ في مكتبات جامعة ولاية أريزونا وجامعة الملك سعود وجامعة الينوي ارتفاع في أداء الإعارة وذلك لقصر مدة الإعارة في مكتبات الجامعتين الأوليين ، ولوجود نسبة عالية من النسخ المكررة للكتب التي تستعمل بكثرة في الجامعة الأخيرة ، وكذلك لوجود نظام إعارة آلي يمكن الباحثين — من خلال النهايات الطرفية — من معرفة وضع الكتاب قبل طلبه على سبيل المثال إذا كان معاراً أو محجوزاً أو ينتظر التجليد ، ومن ثم فإن بعض الباحثين قد لا يطلب كتاباً يعرف أنه محجوز أو معار .. الخ . مما أدى إلى تقليل مثل هذه الطلبات في عينة البحث .

إن أداء الإعارة في أي مكتبة من المكتبات يتأثر بمدة الإعارة وبسياسة اقتناء النسخ المكررة التي تتبعها المكتبة . ومما يزيد في تعقيد المسألة المرتبطة بسياسة الإعارة هو التوزيع غير المتساوي لطلبات الكتب Demands بمعنى أن نسبة صغيرة من الكتب تطلب بكثرة ، وفي المقابل كتب كثيرة يقل الطلب عليها أو لا تطلب إلا نادراً . ومن هنا فإنه إذا لم يكن هناك مبرر لاقتناء نسخ إضافية أو لتخفيض فترة الإعارة في حالة الكتب التي يقل استعمالها فإن عمل مثل هذا الشيء سيصبح أمراً مفيداً في حالة الكتب التي يكثر استعمالها . ويمكن التعرف على الكتب التي يكثر استعمالها من سجلات الإعارة . بعد التعرف على هذه الكتب التي يكثر استعمالها فإنه يمكن إعارتها لمدة أسبوع أو أقل أو حتى قصر استعمالها داخل المكتبة . وإذا رأى موظفو المكتبة أن هذا الإقبال يمكن أن يستمر ففي تلك الحال تطلب نسخ إضافية . أما الكتب التي يقل الطلب عليها فيمكن أن تعار لفترات أطول . هذا الوضع وهو تكييف سياسة الإعارة وسياسة اقتناء النسخ المكررة حسب الاستعمال الحقيقي للكتب هو الوضع والحل الأمثل إزاء الطلب غير المتساوي للكتب . من ناحية أخرى فإن شو Shaw[٢٠] يشير إلى أن اتباع سياسة إعارة بسيطة بمدة محددة لا تتجاوز ٢٥٪ من المدة الدراسية (مثلاً لا تتجاوز شهراً من فصل دراسي مدته أربعة أشهر) يمكن أن يؤدي إلى مستويات مقبولة لأداء برنامج الإعارة .

وبعد تقرير نظام الإعارة الذي سوف يتبع لا بد من تطبيق هذا النظام تطبيقاً حازماً . ذلك لأن قدرة المكتبة على تلبية طلبات المستفيدين تضعف حينا لا يلتزم بعضهم بأنظمة الإعارة المحددة . ويمكن للمكتبة أن تلجأ إلى بعض الأساليب لضمان تطبيق سياسة الإعارة التي وضعتها مثل رفع الغرامات المقررة أو الحرمان من حق الإعارة . أمر آخر مهم لتحسين أداء الإعارة هو أن على المكتبة أن تضع أنظمة فعالة تسمح بحجز المواد واسترجاعها من الإعارة عندما تطلب من قبل مستعيرين آخرين .

الإجراءات المكتبية الأخرى

جدول (أ) يظهر مستويات الأداء المختلفة للإجراءات المكتبية ويوضح أن معدل الأداء يصل إلى ٨٨ بالمئة في هذه المكتبات الجامعية . بمعنى أن المستفيدين وجدوا في المعدل ٨٨ بالمئة من الكتب التي يبحثون عنها في أماكنها الصحيحة على الرف و ١٢ بالمئة لم يجدوها بسبب بعض الإجراءات المكتبية كأن يكون موضوعاً في مكان آخر خطأ Misshelved أو مفقوداً أو في المنطقة الخاصة بتجميع الكتب قبل إعادتها إلى الرفوف Preshelving area أو عند التجليد أو محفوظاً في غير قاعة حفظ الكتب الرئيسة ولم يشر إلى هذا في الفهرس العام للمكتبة .. الخ . ولرفع مستوى الأداء لأي مكتبة تعاني من ضعف في هذا الجانب المتصل بالإجراءات المكتبية فإن عليها أن تقوم بتحسين الإجراءات المتصلة بالأمن وقراءة الرفوف Shelf reading والجرد Inventory والإجراءات اليومية المتصلة بترفيف الكتب .

ويلاحظ أن معظم الكتب التي لم يجدها القراء في هذه الفئة من الإجراءات المكتبية يعود إلى كونها مفقودة Missing . والكتاب المفقود يمكن أن يكون مسروقاً كما يمكن أن يكون موجوداً بالمكتبة ولكن وضع في غير مكانه الصحيح إما خطأ وإما عمداً كنوع من الحجز الخاص . وفيما يتصل بفقدان الكتب بسبب السرقة فإن أي مكتبة تعاني من هذه المشكلة يمكن أن تحسن من إجراءاتها الأمنية عن طريق استخدام ضابط الخروج Exit Control . وفي حالة عدم فعالية هذا الإجراء يمكن استخدام نظام الأمن الألكتروني Electronic Sycurity System . وينبغي أن نشير إلى أن استعمال نظام الأمن لن يرفع من قدرة المكتبة على تحقيق طلبات القراء حتى يتم تعويض المكتبة عن هذه الكتب المفقودة التي لا تزال تطلب من قبل المستفيدين . وبعض المكتبات تتصرف حيال هذه المشكلة عن طريق سحب بطاقات الكتب المفقودة من الفهارس . ولكن إذا كان القراء لا يزالون يطالبون هذه الكتب فإن هذا لا يعني سوى تحويل

الفشل الناتج عن الإجراءات المكتبية إلى فشل بسبب برنامج التزويد. وفيما يتعلق بمشكلة وضع الكتب في غير أماكنها الصحيحة فإن الحل يمكن أن يكون في المحافظة على الترتيب الجيد لمخازن الكتب عن طريق قراءة الرفوف وملاحظة المخازن بصفة مستمرة مع تعليمات للمستفيدين بعدم إعادة الكتب إلى أماكنها.

فيما يتعلق بعمليات الجرد فإن الهدف الأساسي منها هو تعرّف الكتب المفقودة ومن ثم سحب بطاقاتها من فهارس المكتبة إذا لم يكن عليها طلب، وتعويضها بنسخ أخرى إذا كانت لا تزال تطلب من قبل القراء. ويجدر التنبيه إلى أنه وإن كان عدد الكتب المحدودة قليلاً فإنه يمكن أن يخفض من أداء المكتبة تخفيضاً ملحوظاً. ذلك أن الكتب التي عليها إقبال هي التي تفقد غالباً وليست الكتب المحدودة الطلب. وهذا يعني أن تعويض الكتب التي فقدت بنسخ بديلة يمكن أن يحسّن من أداء المكتبة أكثر من صرف هذه المبالغ على كتب جديدة. هذا الإجراء معاكس للممارسات الشائعة في كثير من المكتبات وتوجد خيارات صعبة للموظفين المناط بهم تنمية مجموعات المكتبة الذين لا يستطيعون شراء كل الكتب الجديدة التي تحتاجها المكتبة.

كذلك فإن على المكتبة أن تولي العناية اللازمة لإجراءاتها الروتينية المتصلة بترفيف الكتب، وذلك من أجل منع أي تراكم قد يحصل في منطقة تجميع الكتب بغرض إعادتها إلى أماكنها على الرفوف.

هذه المهام المشار إليها آنفاً تتطلب مجهوداً وقدراً كبيراً من العمل، ومن هنا فلا بد من دعم الجهاز الذي يتولى هذه الأعمال الذي عادة ما يكون ضمن قسم الإعارة بالمكتبة. وأي محاولة تقوم بها المكتبة للتخفيض من نفقات العمل عن طريق تقليل عدد العاملين في هذا الجهاز. سيؤدي إلى إضعاف قدرة المكتبة على تحقيق طلبات القراء.

أداء المستفيدين

جدول (أ) يظهر مستويات الأداء لمهارات المستفيدين البيليوجرافية ومستويات أداء المستفيدين عند استخدام الفهرس وعند البحث في رفوف المكتبة ومعدلات هذه المستويات. ولأن هذه المقاييس تصف مهارة المستفيد في استخدام المكتبة فسنناقشها جميعاً في هذا الموضع.

يستخدم المستفيدون عادة المدخل الرئيسي (مؤلفاً كان أو عنواناً) من أجل الحصول على رقم التصنيف للكتب المعنية التي يبحثون عنها داخل المكتبة. ومن هنا فإن صحة المعلومات المتعلقة بالمؤلف أو بالعنوان التي يحضرها القراء معهم إلى فهارس المكتبة تعتبر عاملاً مهماً في نجاح أو فشل المستفيدين في بحثهم. ولذا فمن الأهمية بمكان أن يعرف المستفيدون كتابة الاستشهادات البيليوجرافية بطريقة صحيحة والمصادر التي يمكن استعمالها لغرض التحقق البيليوجرافي عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

ويبين جدول (أ) أن معدل الأداء لمهارات المستفيدين البيليوجرافية يبلغ ٩٧ في المئة. بمعنى أن المستفيدين استطاعوا في المعدل إحضار معلومات صحيحة أو كافية لـ ٩٧ بالمئة من الكتب المعنية التي يبحثون عنها. وبعبارة أخرى فالمعلومات المتعلقة بالمؤلف أو بالعنوان أو بهما التي أتى بها المستفيدون إلى المكتبة كانت صحيحة أو على الأقل كافية بحيث تمكن من العثور على الكتب والتعرف عليها في فهارس المكتبة.

كذلك فإن جدول (أ) يوضح أن معدل أداء المستفيدين عند البحث في الفهارس يبلغ ٩١ بالمئة. بمعنى أن المستفيدين نجحوا في المعدل في التعرف على ٩١ في المئة من الكتب التي يبحثون عنها في الفهارس العامة لتلك المكتبات وفشلوا في التعرف على تسعة بالمئة من الكتب التي يبحثون عنها بسبب بعض الأخطاء التي ارتكبوها أثناء البحث في الفهارس مثل نقل رقم التصنيف خطأ أو عدم ملاحظة رموز الأماكن مثل «م» و «REF» لقسم المراجع أو غيرهما من الرموز التي تعني أن الكتاب موضوع في مكان خاص بالمكتبة، مثل عدم العثور على رقم التصنيف المطلوب مع أنه موجود في الفهارس بسبب عدم معرفة أشكال المداخل المستخدمة أو قواعد ترتيب البطاقات في الفهرس. ويظهر جدول (أ) أيضاً أن معدل أداء المستفيدين عند البحث في رفوف المكتبة يبلغ ٨٩ بالمئة. بمعنى أن المستفيدين نجحوا في المعدل في العثور على ٨٩ بالمئة من الكتب التي يبحثون عنها وأخفقوا في العثور على ١١ بالمئة من الكتب التي يبحثون عنها على الرغم من كونها موجودة في مكانها الصحيح، وذلك لأن المستفيد بحث في المكان الخاطىء ربما لعدم فهمه خطة التصنيف المستعملة.

هذه الأخطاء المختلفة التي يرتكبها المستفيدون في مختلف مراحل البحث في المكتبة تقلل من فرصهم في الحصول على الكتب التي يبحثون عنها. ويمكن لأي مكتبة تعاني من ضعف في أداء مستفيدها أن تحسن من أدائهم من خلال الطرق التالية:

١ ـ عمل برنامج إرشادي في كيفية استخدام المكتبة مع زيارات تعريفية لأقسام المكتبة التي تهم المستفيد. وينبغي أن يشتمل البرنامج على ما يلي: فكرة عامة عن سياسات المكتبة وإجراءاتها، ومعلومات أساسية عن فهرس المكتبة، وطريقة ترتيب الكتب على الرفوف،

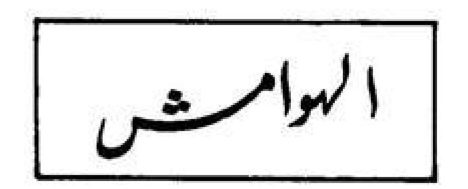
والمصادر البيليوجرافية الأساسية بالمكتبة . كذلك فإن هذا البرنامج ينبغي أن يحتوي على عرض ومناقشة للأخطاء الشائعة التي يقع فيها المستفيدون عند البحث في المكتبة وكيفية تجنب هذه الأخطاء . ويمكن إعداد عروض على أفلام فديو أو شرائح من أجل الاستعانة بها في تلك البرامج الإرشادية .

٢ — تدريب بعض الطلاب المتفوقين من قبل أمناء المكتبة وذلك للقيام بتعليم أساسيات استخدام المكتبة لزملائهم الطلاب . هذا الوضع سيفرغ أمناء المكتبة لأعمال المكتبة الأخرى من ناحية ، كما أنه سيسهم من ناحية أخرى في زيادة عملية الاتصال بين المكتبة وبين الطلاب الذين سيرون في هؤلاء الطلاب العاملين بالمكتبة زملاء لهم كما أثبتت هذا الدراسات[٢١] التي تمت في جامعة ولاية كاليفورنيا . وبعبارة أخرى فإن استخدام الطلاب المساعدين سيساعد في إزالة ما قد يكون هناك من حواجز نفسية تمنع من اتصال المستفيدين بموظفي قسم المراجع . وأمر آخر مفيد في زيادة الاتصال بالمكتبة والتغلب على أية حواجز نفسية قد توجد هو ما أشار سووب وكاتزر[٢٢] Swope and Katzer اللذين اقترحا أن يقوم أمناء المكتبات بالتجوال بين المستفيدين وعدم البقاء في قسم المراجع فقط بانتظار أن يأتي إليهم القراء .

٣ — وضع لوحات واضحة وجذابة عند فهارس المكتبة توضح كيفية استعمال الفهرس وتنبه المستفيدين إلى الأخطاء التي يرتكبونها عند كتابة أرقام التصنيف وخصوصاً فيما يتعلق برموز الأماكن . كذلك فإن وضع لوحات إرشادية عند قسم الإعارة يمكن أن يشجع المستفيدين في طلب توضيح أرقام التصنيف وأماكن الكتب وطلب المساعدة في البحث عن الكتب إذا كانوا لا يزالون غير قادرين على العثور عليها بعد توضيحها لهم .

الخلاصة :

إن قدرة المكتبة على تحقيق طلبات المستفيدين تتأثر بالعديد من العوامل التي لا بد من التغلب عليها من أجل الحصول على الكتاب أو الكتب المطلوبة . وقد رأينا أن بعض هذه العوامل يعود إلى المكتبة ، كما أن بعضها الآخر يعود إلى المستفيدين أنفسهم . فالمكتبة قد تتبع سياسات أو تقوم بإجراءات في برامج التزويد أو الإعارة أو غيرها من الوظائف يمكن أن تؤثر في أدائها ومستوى خدماتها . من ناحية أخرى فإن أداء المستفيدين يمكن أن يؤثر تأثيراً بالغاً في أداء المكتبة ، وذلك من خلال بعض الأخطاء التي يرتكبونها في مختلف مراحل البحث بالمكتبة . أما أي من هذه العوامل يؤثر بشكل أكبر في أداء مكتبة بعينها ومن ثم يحتاج إلى عناية فائقة من المكتبة ، فهذا أمر يمكن أن تقرره إدارة المكتبة إذا كان لديها صورة واضحة عن هذا الأداء . أما إذا كانت صورة الأداء غير واضحة لدى موظفي المكتبة ولا يستطيعون تحديد نقاط الضعف في الخدمات التي تقدمها مكتبتهم ففي تلك الحال يمكن إجراء دراسات على أداء المكتبة مثل هذه الدراسات التي أشرنا إليها في هذا البحث ، وذلك من أجل الخروج بصورة متكاملة عن أداء المكتبة وتحديد العوامل التي تؤثر تأثيراً سيئاً في هذا الأداء وتحتاج — من ثم — إلى اهتمام من إدارة المكتبة من أجل تحسين مستوى الأداء .



1 - H.V. Gaskill, R.M. Dunbar and C.H. Brown,"An Analytical Study of the Use of a College Library", **Library Quarterly** 4 (1934) : 564-89.

2 - A. D. Burnett, "Reader Failure : A Pilot Survery", **Research Librarianship** 15 (1967) : 142-57.

3. R. Tag liacozzo Kochen, "Information Seeking Behavior of Catalog Users", **Information Storage and Retrival** 6 (1970) : 363-81.

4 - Carol Seymour and L.J. Schofield, "Measuring Reader Failure at the Catalogue", **Library Resources and Technical Services** 17 (1973) : 6-24.

5 - J. Schofield, A. Cooper, and D. Waters, "Evaluation of an Academic Library's Stock Effectiveness," **Journal of Librarianship** 7 (1975) : 207 - 27.

6 - R. Smith, and W. Granade, "AL Report, Undergraduate Library Availability Study 1975 - 77, University of Tenness, in **User Surveys and Evaluation of Library Services.** 1981, pp. 83 - 90.

7 - P. B. Kantor, "The Library as an Information Utility in the University Context : Evalation and Measurment of Services", **Journal of American Society for Information Science** 27 (1976) : 100 - 12.

8 - T. Saracevic, W. Shaw, and P. Kantor, "Causes and Dynamics of User Frustration in an Academic Library," **College and Research Libraries** 38 (1977): 7-18.

9 - P. B. Kantor, "Availability Analysis," **Journal of the American Society for Information Science** 27 (1976): 311-19.

10 - J. Whitlatch, and K. Kieffer, "Service at San Jose State University : Survery of Document Availability," **The Journal of Academic Librarianship** 4 (1978) : 196-9.

11 - W. Shaw, "Longitudinal Studies of Book Availability," **Library Effectiveness : A State of the Art.** Chcago : Library Administration and Management Association/ALA, 1980.

12 - E. Palais, "Availability Analysis Report, Arizona State," in **User Surveys and Evaluation of Library Services,** Washington, D.C.: Association of Research Libraries, 1981.

13 - G. Rinkel, and P. Mc Candless, "Application of a Methodology Analyzing user Frustration," **College and Research Libraries 44 (1983) : 29-37.**

14 - J. Mansbridge,"A Methodology for Evaluating Resource Sharing Library Networks "(Ph. D. Dissertation, Case Western Reserve University, 1984).

15 - A. Ajlan, "The Effectiveness of two Academic Libraries in Saudi Arabia : An Enquiry into the Main Factors Affecting Their Services" (Ph. D. Dissertation, Case Western Reserve University, 1985).

١٦ ــ يحيى ساعاتي ((الاختيار والتزويد في المكتبات الجامعية بالمملكة العربية السعودية)) (رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣) .

17 - Collection Development Committee, Resource Section, RTSD, ALA, "Guidelines for the Formulation of Collection Development Policies,, Library Resources and Technical Services 21 (1977) : 40-47.

١٨ ــ يحيى ساعاتي ، ((الاختيار والتزويد في المكتبات الجامعية بالمملكة العربية السعودية)) .

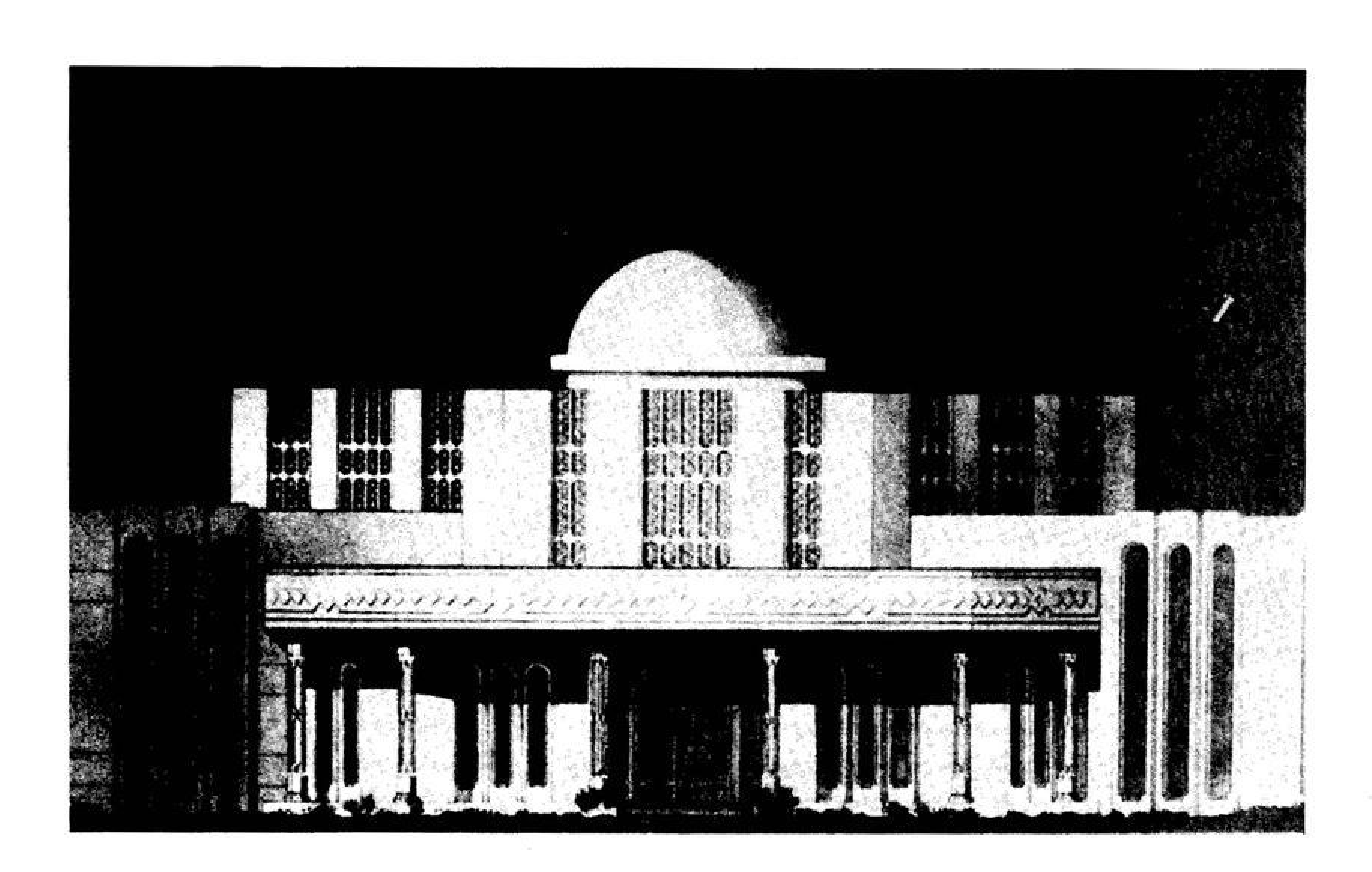
19 - D. Urquhart and A. Irving, Access to Libraries, a Study of Methodology : Final Report to the British Library Research and Development Department (Lovghborough University, 1978).

20 - W. Shaws, "Longitudinal Studies of Book Availability,"

21- William F. Heinlen, "Using Student Assistants in Academic Reference," **RQ** 15 (1976) : 312-25.

22 - Mary J. Swope and Jefferey Katzer, "The Silent Majority, Why Don't They Ask Questions ?" **RQ** 16 (1977) : 220-23.

● ● ●



مكتبة الملك فهد

المخطوطات

زين الدين شعبان الآثاري وألفيته في النحو

«كفاية الغلام في إعراب الكلام»

تقديم وتعليق

محمد السعيد عبد الله عامر

أستاذ مساعد - جامعة أم القرى - مكة المكرمة

المقدمة

أثناء تحقيقي لكتاب (القلادة الجوهرية) شرح الحلاوة السكرية لزين الدين الآثاري ، ونظري في كتب التراجم وغيرها عن هذا العالم ، وجدت من بين مؤلفاته تلك الألفيّة ، وعجبت لعدم معرفة أحد لهذا العالم الذي يمكن أن نطلق عليه ــ أيضاً ــ الناظم ، وذلك لكثرة مؤلفاته المنظومة في النحو والأدب والعروض والخط ، وفي مدح الرسول ﷺ ، ووجدتني مشوقاً للنظر في تلك الألفيّة ، وعثرت لها على مخطوطة بمكتبة الحرم المكي ، وأخرى بدار الكتب المصرية ، وثالثة بمكتبة كده بخش بالهند ، ويوجد بمكتبة الأوقاف بالموصل بالعراق نسخة لم أستطع الحصول عليها بعد .

وحديثي عن تلك الألفية يتضمن نظرة فيها ، وبيان ما أضافته على ألفية ابن معط وابن مالك ، وليس تحقيقاً لنص الألفية ، لأن النسخ التي في حوزتي مختلفة وبكل منها نقص ، ولا أستطيع أن أعوّل على واحدة وأعتبرها الأصل لعدم معرفة تاريخ نسخها أو ناسخها أو أي شهادة تملك أو غير ذلك ، ولعلني أستطيع الحصول على مزيد من النسخ التي تساعدني على تحقيق النص والتأكد من صحته والتعرف على النقص ، وآمل أن تنشر كاملة محققة قريباً إن شاء الله .

وأرجو أن أكون قد وفقت في حديثي عن ألفيّة الآثاري .

التعريف بالآثاري :

شعبان بن محمد بن داود بن علي بن أبي المكارم زين الدين الموصلي الأصل المصري المولد . اشتهر بالآثاري لإقامته برباط الآثار بمصر ، وقيل : لكونه أقام بالأراضي الحجازية نحو عشر سنين بمكة .

وولد بمصر ليلة النصف من شعبان سنة خمس وستين وسبعمائة ، واشتغل في مبدأ أمره بالكتابة عند أبي علي الزفتاوي[1] حتى صار ماهراً بالخطوط المنسوبة وصار من أبرع من كتبه ، وتتلمذ على الغماري[2] والقاضي جمال الدين بن ظهيرة[3] وغيرهم[4] . حفظ عدة مختصرات في أيام يسيرة ونظم الشعر ، ولكنه كما يقول ابن حجر العسقلاني : « كان يهجو الناس ويسلب الأعراض ويمزقها بنظمه » . عمل نقيباً للحكم بمصر ، وتولى أمر الحسبة على المال وصار يمدح الحكام ثم يذمّهم حتى تعرض للإهانة مما اضطر معه إلى الفرار إلى الحجاز ، ثم إلى اليمن وعاد إلى مدحه وهجائه لأعيان اليمن إلى الهند ، ثم عاد إلى اليمن فلم يترك عادته فأخرج منها ، فرحل إلى مكة ثم إلى الشام ثم إلى القاهرة ثم دمشق ، وتكرر دخوله إلى مصر مرات حتى توفي بها ثاني يوم قدومه آخر مرة في جمادى الآخرة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة . وسبب هذه الرحلات والتنقلات الكثيرة أنه كان كثير الهجو للناس ، حتى الحكام لم يسلموا من هجوه ، يمدح هذا ويذم ذاك ، هذا يقرّبه وذاك يبعده ، فلم يهنأ بالإقامة في مكان واحد مدة طويلة .

مؤلفات الآثاري[5]

١ ــ آثار العشرة في تخميس قصيدة البردة .

٢ ــ بديعيات الآثاري[6] (ثلاث بديعيات : الصغرى والوسطى باسم بديع البديع في مدح الشفيع ، والكبرى اسمها : العقد البديع في مدح الشفيع) .

٣ ــ تاريخ النحاة المعروفة من أهل البصرة والكوفة[7] .

٤ ــ الحلاوة السكرية « أرجوزة مائة بيت في النحو » .

٥ ــ حل العقدة في شرح قصيدة البردة .

٦ ــ الرد على من تجاوز الحد .

٧ ــ السراج المنير في مدح البشير النذير .

٨ ــ شرح ألفية ابن مالك في ثلاثة مجلدات (لم يكمل)[8] .

٩ ــ عنان العربية « أرجوزة في علم النحو » .

١٠ ــ العناية الربانية في الطريقة الشعبانية (منظومة في أدب الكاتب ورسم الخط)[9] .

١١ ــ القلادة الجوهرية (شرح الحلاوة السكرية)[10] .

١٢ ــ كفاية الغلام في إعراب الكلام (وهو موضوع بحثنا هذا) .

١٣ ــ لسان العرب في علوم الأدب (ألفية مخطوطة بدار الكتب المصرية)[11] .

١٤ ــ مفتاح باب الفرج (مجموعة نظم في مدائح النبي) .

١٥ ــ مقرّب البعيد ومدرّب المريد في النحو .

١٦ ــ منائح القرائح في مختار المراثي والمدائح .

١٧ ــ المنهج المشور في تلقيب الأيام والشهور[12] .

١٨ ــ المنهل العذب (ديوان في النبويّات) .

١٩ ــ نزاهة الكرام في مدح طيبة والبيت الحرام (قصيدة في تسعين بيتاً)[13] .

٢٠ ــ نزهة المنفرجة[14] .

٢١ ـ نعمة المعطي في تصحيح ألفية ابن معطي[١٥].
٢٢ ـ النهاية في إعراب الكفاية.
٢٣ ـ الوجه الجليل في علم الخليل. (أرجوزة في العروض)[١٦].
٢٤ ـ وسيلة الملهوف عند أهل المعروف[١٧].
٢٥ ـ الهداية في شرح الكفاية (أربعة أجزاء، موجود بدار الكتب المصرية الجزء الأول والثاني).
٢٦ ـ الهلال في السحر الحلال.

كفاية الغلام في إعراب الكلام

أراد الآثاري أن يدخل مضمار الشهرة ويجاري ملوك النظم في النحو، فنظم ألفيته هذه، واختط لنفسه منهجاً جديداً في التأليف النحوي في النظم، لم يسبق إليه. ولقد اعترف الآثاري بأن ألفيتي ابن معط وابن مالك لهما فضل السبق وفيهما غنية للمتعلم، إلا أنه يقول :[١٨]

على أن الكتابين المذكورين وإن كانا مشهورين على ألسنة الطلبة إلا أن هذا المزيد وهذا الترتيب مع سهولة النظم وتقريب البعيد أنفع للمريد فلذلك قلت :

قائمـــة بأنفـــع المســـــالك عن ابن معط وعن ابن مالك

وعندما أراد أن ينحو بها منحى جديداً يختلف عن سابقيه بحث حوله فوجد أن « المقدمة المحسبة » لابن بابشاذ جديرة بالنظر والاقتداء، فتأثر بمنهجها وأفرغ ما فيها في كافيته وزاد عليها كما صرح الآثاري بذلك حيث يقول :

« قال أهل التحقيق : إن الأشياء التي لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها هي سبعة : وهي إما شيء لم يسبق إليه يخترعه، وإما شيء ناقص يتممه، وإما شيء مغلق يشرحه، وإما شيء طويل يختصره دون أن يخل بشيء من معانيه، وإما شيء مفرق يجمعه، وإما شيء مختلط يرتبه، وإما شيء أخطأ فيه مصنفه يصلحه، وكان من أحسن ما يعانيه النحوي في علم اللغة العربية مقدمة بلدينا : « الأستاذ الكبير أبي الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوي المصري بلداً، والبصري مذهباً، وسماها : « المحسبة » يعني بالباء الموحدة، أي الكافية، ثم إن الشيخ رحمة الله عليه، شرحها في عام خمسة وستين وأربعمائة وكانت متروكة فسلكتها، ومنثورة فنظمتها وزدت عليها زوايد كانت محتاجة إليها لينتفع بها طالب الإعراب، إذا أراد أن ينحو نحو الصواب، فإن النحاة المتقدمين ـ كما قال أبو حيان في أول (الارتشاف) :- قد أهملوا كثيراً من الأبواب وأغفلوا ما فيه الصواب، فتآليفهم محتاجة إلى تأليف وتصانيفهم مضطرة إلى تصنيف انتهى كلامه.[١٩] ثم لما أنهيتها نظماً أفرغتها في قالب (الكفاية) ليستعين بها طالب (الهداية) والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وفوق كل ذي علم عليم » ويستطرد « الآثاري » فيقول :

« الأمر الثاني : المراد من هذا العلم، وينحصر ذلك في عشرين شيئاً : أولها : معرفة النحو، والثاني : معرفة اللفظ والكلمة والكلام والكلم والقول، والثالث : معرفة الاسم وما يتعلق به، والرابع : معرفة الفعل وما يتعلق به، والخامس : معرفة الحرف وما يتعلق به، والسادس : معرفة الأصول التي يحتاج إليها المعرب قبل الفصول، وهي أربعون أصلاً. والسابع : معرفة توجيه الحروف، والثامن : معرفة الرفع، والتاسع : معرفة النصب، والعاشر : معرفة الجرّ، وحادي عشرها : معرفة الجزم، وثاني عشرها : معرفة العوامل وما يتعلق بها، وثالث عشرها : معرفة النواسخ وما يتعلق بها، ورابع عشرها : معرفة المنادى وما يجري مجراه، وخامس عشرها : معرفة التوابع وما يتعلق بها، وسادس عشرها : معرفة الحذف في الأسماء والأفعال والحروف، وسابع عشرها : معرفة التقديم والتأخير والفصل، وثامن عشرها : معرفة الجمل، وتاسع عشرها : معرفة الوقف وأحكامه، والعشرون : معرفة الأدب. وقد حصل جميع ذلك بعون الله في هذه الكفاية على هذا الترتيب ».

ثم يعود « الآثاري » فيعترف بتأثره وإعجابه بمقدمة « ابن بابشاذ » وسيره على منهجها فيقول :

ومع أني جئت فيها بالنحو الذي ذكره « ابن بابشاذ » في مقدمته، ثم زدتها من العلم ما ستراه في أبوابه إن شاء الله، وذلك مع اعترافي بأن الفضل للمتقدم، وإنما أردت الزيادة على ذلك بما فيه نفع المتعلم، وليعرف مقدار هذه الطريقة وليدخل من المجاز إلى الحقيقة، فإن الشيخ قال في خطبة شرحها :

واعلم أن الغرض بهذه المقدمة التسهيل والتوطيد لما عسى أن يقرأ بعدها انتهى كلامه[٢٠] .... فلهذا جعلها الشيخ ـ رحمه الله ـ على نحو « العمدة » و « الجرجانية » و « اللمحة »[٢١] ونحو ذلك من المقدمات المنثورات في هذا العلم، ويتبين شدة إعجاب الآثاري بتلك المقدمة فينقل إطراء الغزالي لها بقوله :

« هذا وقد وقيل للإمام الغزالي ـ رحمة الله عليه ـ يا إمام الناس، يا حجة الإسلام قد ألفت في كل علم، فلم لا تؤلف لنا في النحو كتاباً ننتفع به ؟ فقال : تكفيكم مقدمة « ابن بابشاذ »، أتريدون أن أصنّف لكم كتاباً في النحو ومعكم هذه المقدمة ؟ ! والله لو فهمتم ما فيها لما سألتموني هذا السؤال » ا هـ آثاري.

وإن الناظر في المقدمة المحسبة يجدها تنقسم إلى عشرة فصول هي :

فصل الاسم ـ فصل الفعل ـ فصل الحرف ـ فصل الرفع ـ فصل النصب ـ فصل الجر ـ فصل الجزم ـ فصل العامل ـ فصل التابع ـ فصل الخط.

ولو قارنّا هذه الفصول العشرة بالفصول العشرة الأساسية التي ذكرها الآثاري في كافيته لوجدنا اختلافاً في عاشرها، حيث يذكر الآثاري فصل الحذف بدلاً عن فصل : الخط. يقول الآثاري :

فصولها عشر جلاها العرف الاسم ثم الفعل ثم الحرف[٢٢]
والرفـع والنـصب ثم الجرّ والجزم في الإعراب تستقرّ
وعامـل وتابـع والحـذف عاشرهـا ومنتهـاه الوقـف
وقبلهـا فاتحـة الأصـول وبعدهـا خاتمـة الفصـول

ولقد أحسن الآثاري مدخله إلى علم النحو بفاتحته هذه، فعرف فيها النحو لغة واصطلاحاً وذكر فوائده وواضعه وسبب الوضع ومقدمات الإعراب، وأصول الإعراب. يقول زين الدين الآثاري في فاتحته :

النحو علم في اصطلاح والأدب فهم الكتاب منه أو قول العرب
ومنهما استنبط في الأساس وصف بالاستقـراء والقيـاس
والنحو في اللغة قصد أصل وجهـة قدر وقسم ميـل
أول من أفادنا النحو علي سببه خلف حكاه الدؤلي
عن بنته التي نوت تعجبا فاستفهمت برفع فعله أبا
وقال قولي : ما أشد الحرّا بالنصب في الذال الثقيل والرّا
فاستنكـرت مقالـة أباهـا واستخبرت عن أصلها أباها[٢٣]
فقام في الوقت إلى الإمام وارث علم سيد الأنـام
وقال عنـدي ـ يا إمام ـ من لحن واللحن في أبنائنا من المحن

فما الذي يدني إلى الصواب — وما طريق الأجر والثواب
قال الإمام : اكتب وخذه مني — وانقله بين التابعين عني
وقال : ما أكتب ؟ قال : البسملة — وضع ثلاثاً في الكلام مجملة
اسماً وفعلاً ثم حرفاً منها — ركبه والمعنى يلوح عنها
فالاسم ما أنبأ عن مسمى — والفعل عن حركة المسمى
والحرف ما عداهما للمقتبس — فانح على ذا النحو ثم زد وقس[٢٢]

ثم يذكر مقدمات الإعراب الخمس وهي : اللفظ والكلمة والكلام والكلم والقول ، ثم يذكر أصول الإعراب في مبحث مستقل فيقول :

أصول الإعراب وهي أربعون أصلاً

الأصل في الإعراب للأسماء — والأصل في الأخبار بالأسماء
والأصل في البناء للحروف — والأصل بالتسكين في الوقوف
والأصل في الإعراب أن يكونا — حركة في الختم أو سكونا
والأصل في الرفع بضمٍّ قد عرف — والأصل في النصب بفتح قد أُلِف
والأصل في الجر بكسرٍ ظاهرِ — والأصل في الجزم سكون الآخر
والاسم أصل عندهم للفعل — ووزن الاسم أصلُ وزن الفعل
وأصْل الإعراب للبناء — وأصْل السكونَ في البناء
ومعربًا أصْلُ لمبنيٍّ وضع — ومصدراً أصْلُ لمشتقٍّ تبع
والأصل في المبتدأ التعريف — والأصل في تقديمه معروف
والأصل في خبره التنكير — والأصل في ترتيبه التأخير
والأصل في تقديم ما نقول — الفعل والفاعل والمفعول
وأصْل الفاعل باتصال — وأصْل المفعول بانفصال
وأصْل المفرد للمجموع — وأصْل المصروف للممنوع
وفرْعُ التعريف عن تنكير — وفرْعُ التأنيث عن تذكير
وفرْعُ التصغير عن تكبير — وفرْعُ الممدود عن مقصور
وفرْعُ التركيب عن موحد — وفرْعُ المزيد عن مجرد
والعدل عن معدوله والأعجمي — عن عربيٍّ سابق مُقَدَّم
وتابعاً عن سابق وعن أُلِف — مؤنثٍ بالقصر إلحاقاً أُلِف

هل أضافت ألفية الآثاري شيئاً جديداً على ألفيتي ابن معط وابن مالك ؟

لست هنا بصدد المقارنة بين ألفيتي ابن معط وابن مالك اللتين نالتا حظاً كبيراً من الشهرة والذيوع ، وتصدّى لشرحها كثير من صفوة العلماء في القرون السابقة ، ولا لأبين أفضلية هذه الألفية عليهما ، فلقد اعترف الآثاري نفسه بالفضل والأسبقية للعالمين الكبيرين ، وبأن ألفية كل منهما فيه غنية للمتعلم . ولكن قد يأتي اللاحق بإضافات ومباحث يراها جديرة بالإثبات ، ولقد كنت أريد أن أتفحص الألفيات الثلاث لبيان ما في كل منها من مباحث أو فصول أو فروق عن أختيها ، ولكني وجدت أن هذا الأمر يحتاج لوقت وجهد كبيرين لإعطاء كل ذي حق حقه ، وأعد مستقبلاً بمشيئة الله تعالى أن أقوم بهذا العمل ، وأردت الآن أن أطوف سريعاً بذكر طرف مما امتازت به تلك الألفية إلى أن يشاء الله بالمقارنة الدقيقة والتامة بين الألفيات الثلاث ، ولم أجد أدقّ ولا أوفى مما ذكره الآثاري في هذا الصدد .[٢٥] يقول الآثاري في ألفيته :

قائمة بأنفع المسالك — عن ابن معط وعن ابن مالك

ويشرح ذلك في الهداية شرح الكفاية فيقول [٢٦] :

« سبيل المتأخر من نصحاء هذه الأمة أن يستدرك ما أهمله المتقدم من الأمور المهمة . فالأمور التي أهملها ابن مالك ولم يتعرض لها في ألفيته مائة وثلاثون مسلكاً ، فمنها ما هو ضروري الذكر وأضرب عن ذكره ، ومنها ما هو ضروري الحصر ولم يجتهد في حصره ، ومنها ما هو ضروري التبويب ولم يتعرض إلى تبويبه ، ومنها ما هو ضروري التعريف وسكت عن تعريفه . أما ما هو ضروري الذكر ولم يتعرض إلى ذكره فهو ستون باباً وهي :

ذكر ما جرى من الكنايات مجرى الأعلام وذكر أمس والبناء الأصلي والبناء العارض وما ركب من الأعداد والظروف والمبنيات والزمن المبهم ، وما لا ينصرف مكبراً وينصرف مصغراً وعكسه والمسمى بالمثنى ، وما يمنع ويصرف ويذكر ويؤنث ويمدّ ويقصر من أسماء الأشخاص وما ليس بمعدول ولا مجموع ، والممنوع والمصروف من أسماء القرى والأماكن والبلاد ، وما يصرف ويمنع ويؤنث ويذكر من أسماء الأيام والشهور ، والممنوع والمصروف من أسماء السور ، وما ينصرف من أسماء الملائكة عليهم السلام ، وما ينصرف من أسماء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشرط المجموع جمع المذكر السالم ، وشرط المجموع جمع المؤنث السالم ، وتثنية المعدول والأعجمي توكيداً وتوحيداً وتثنية المكنى وجمعه تكسيراً أو تصحيحاً ، وما جاء للفرد والمثنى بلفظ الجمع وضمير الفصل والعماد ، وما يختص من الأفعال بأحد الأزمنة الثلاثة وحكم الأمر والنهي وحكم التقاء الساكنين وذكر ألف القطع وألف الوصل في الأسماء والأفعال والحروف وذكر أحرف الزيادة في الكم وذكر أحرف القلب ودخول الفاء على خبر المبتدأ ، والتاريخ وإعمال الظرف والمجرور والموصول الحرفي وأحوال «ال» في الإثبات والحذف وأحوال « ذا » وأحوال «أي» في معانيها وأحوال « مَنْ » — بفتح الميم — وأحوال « ماذا » ، وأحوال « ليس » ، وأحوال « كان » ، وأحوال « ما » الكافة وأحوال « غير » ، وأحوال « إنما » ، وأسماء الابتداء وأسماء الشرط ، وما ركب مع « لا » من الأسماء والأفعال ، وما اختلف عدده من الضمائر لسياق الكلام وذكر كلمات التعجب ، وذكر القسم وحروفه وأسمائه ، وما ثلث من الأسماء والأفعال ، وحذف الاسم وحذف الفعل وحذف الحرف ، والتقديم والتأخير والفصل وتركيب الجمل ، والجمل التي لها محل من الإعراب ، والجمل التي ليس لها محل من الإعراب ، والمواضع التي تحل الجملة محل المفرد فيها ومدة الإنكار ، ومدة التذكار وإعراب الأدب ، والتسمية بلفظ كائن ما كان .

وأما ما هو ضروري للحصر ولم يتعرض إلى حصره فهو أربعون باباً وهي : أصول الإعراب ، ومسوّغات الابتداء ، وتقسيم الأسماء وتحديدها ، وما يستوي فيه لفظ المنصوب والمجرور ، وحصر الحروف التي لا عمل لها ، وحصر الحروف المعنوية ، وحصر توجيهها ، وحصر الجوامد والمشتقات ، وحصر الموانع والمعدولات ، وحصر تنوين الأسماء ، وحصر جموع الكثرة ، وحصر الضمائر ، وحصر أسماء الإشارة ، وحصر الأسماء الموصولة وحصر شروط الأسماء الستة ، وحصر شروط ما لا ينصرف ، وحصر شروط فعل التعجب ، وحصر علامات أنواع الإعراب ، وحصر أصنافها ، وحصر علامات الاسم ، وحصر علامات الفعل ، وحصر علامات الحرف ، وحصر عوامل الرفع والنصب والجر والجزم من الأسماء والأفعال ، وحصر العوامل الحرفية ، وحصر

جميع العوامل اسمية كانت أو فعلية أو حرفية ، وحصر المرفوعات ، وحصر المنصوبات ، وحصر المجرورات ، وحصر المجزومات ، وحصر معاني التصغير ، وحصر ما جاء على (فعال) ، وحصر أحوال (ذا) ، وحصر أحوال (ماذا) ، وحصر أحوال (أي) ، وحصر أقسام النعت ، وحصر أقسام الوقف . انتهى ذلك .

وأما ما هو ضروري التبويب ولم يتعرض إلى تبويبه فهو خمسة أبواب وهي : تقسيم الأسماء ، وتقسيم الأفعال ، وتقسيم الحروف ، وضمير الشأن والقصة ، وضمير الفصل والعماد . انتهى ذلك .

وأما ما هو ضروري التعريف ولم يتعرض إلى تعريفه فهو خمسة وعشرون شيئاً وهي : معرفة النحو اصطلاحاً ولغة ، ومعرفة فائدته ، ومعرفة سببه وتعريف اللفظ وتعريف الكلمة وتعريف الكلم وتعريف المذكر وتعريف المكبر والمصغر وتعريف الاسم وتعريف الفعل وتعريف الحرف وتعريف الظاهر ، وتعريف المبهم إشارة كان أو موصولاً ، وتعريف المصروف وتعريف الممنوع وتعريف المفرد وتعريف المثنى وتعريف المجموع وتعريف اسم الجمع وتعريف اسم الجنس وتعريف المبتدأ وتعريف العامل وتعريف التابع . انتهى ذلك . فأضرب الشيخ من هذا الضروري كله واستعمل التصريف عوضاً عنه في أربعين بيتاً ، والكتاب مختصراً ، فلا أعطاه حقه وضيّق على نفسه فيما هو بصدده ، وكان الأولى إفراده عن النحو كما فعل ابن الحاجب وغيره من أرباب المختصرات ؛ لأن التصريف علم مستقل بذاته . ولهم فيه تصانيف كثيرة ، وهو في كلها مفرد على حدته ، وإن كان كل من العِلْمَيْن متعلقاً بالآخر ، وحينئذ كان يتسع له المجال ؛ لأن الشيخ رحمة الله عليه مجتهد ، وقد رأى ذلك باجتهاده ولكل مجتهد نصيب .

ويوجه الآثاري لألفية ابن معط نقداً ــ أيضاً ــ ويرى فيها قصوراً فيقول في الهداية[٢٧] :

« وأما ما أهمله ابن معط ولم يذكره في ألفيته فهو أيضاً على هذا النمط[٢٨] من عدة هذه الأبواب وهذه التعاريف إلا أنه ذكر منها عشرة وهي :
تعريف اللفظ وتعريف الكلام وتعريف الاسم وتعريف الفعل وتعريف الحرف والقَسَم وبعض شيء من الممنوع والمصروف من أسماء السور وضمير الشأن وضمير الفصل ومدة الإنكار . انتهى ذلك .

وأما كلامه في الهجاء وضرائر الأشعار ومخارج الحروف فليس بذاك ، وإنما تكلم في جميع ذلك على سبيل الإيجاز والاختصار فلا أشبع في شيء منها ولا أقنع ، وكل واحد من هذه الثلاثة المذكورة فن مستقل بذاته وكان الأولى إفراده في تصنيف على حدته كما فعل الأكثرون من النحاة المتقدمين ؛ وذلك لأن علوم الأدب عشرة ، الثلاثة منها فكان ينبغي إفرادها عن النحو ، ولهذا نظمتها وجعلتها في ألفيتي « لسان العرب في علوم الأدب » والله الموفق ، وعلى هذا فطالب الكفاية يشارك غيره فيما لديه والغير لا يشاركه في هذه الأبواب المذكورة ولا في شيء من هذه التعاريف ولا في غيرها من الأمور المهمة النافعة ، لأنها مزيدة على ما عنده من العلم بعون الله وتوفيقه ، على أن الكتابين المذكورين وإن كانا مشهورين على ألسنة الطلبة إلا أنّ هذا المزيد وهذا الترتيب مع سهولة النظم وتقريب البعيد أنفع للمريد فلذلك قلت :

قائمة بأنفع المسالك عن ابن معط وابن مالك

وذلك مع اعترافي بأن الفضل للمتقدم وأن كلاً منهما في كتابه غنية للمتعلم» ا هـ .

الشكل الإيقاعي لألفية الآثاري

سارت ألفية الآثاري على نظام بحر « الرجز » مستخدمة نظاماً للتقفية يسمى بالمزدوج يتساوى فيه الشطران تساوياً يماثل التصريع ، ومن أجل ذلك اختلف طول الأبيات في الألفية ، فبيت يتوافق شطراه على أساس من تمام التفعيلة عروضاً وضرباً : مستفعلن مستفعلن ، وبيت يتوافق على أساس مستفعل مستفعل ، وآخر على أساس : مستفعلان مستفعلان .

ومعلوم أن استخدام الرجز بهذا النظم المزدوج يوافق الألفيات والمنظومات التعليمية تلك التي تعبر عن قاعدة لها حدود ، على الناظم أن يطوّع لها الوزن حتى تأتي كاملة دون نقص أو خلل .

وقد رحّب الرجز بذلك لأن فيه قدرات إيقاعية عبر أطواله النهائية ، تساير طواعية اللغة ، فالوزن في داخله أن تأتي (مستفعلن) في نظام إيقاعي مع (مستعلن) و (متفعلن) و (متعلن) ، وهذه إمكانات تخدم الناظم في التعبير عما يريد . وفي قضية الرجز وطواعيته يتحدث إبراهيم أنيس قائلاً[٢٩] : « وقد وجدوه أليق بنظم القصص الطويلة والحكم والأمثال وما أرادوا نظمه من مسائل العلوم ، ذلك لأن الناظم يستطيع أن ينظم منه آلافاً من الأبيات دون أن يصيبه جهد أو عنت ، دون أن يتعثر في التعبير عن معانيه » .

وإذا أمكن للرجز أن يعطي الناظم كل هذه المبادلات والإمكانات السابقة فمن الواجب على الناظم ألا يقع كثيراً في الضرورات الشعرية إلا نادراً وتلك مسألة وقع في حبالها صاحب «كفاية الغلام» كثيراً فقد بان عنده ما يلي :

١ ــ كثيراً ما كان يقطع همزة الوصل أو يصل همزة القطع ، والضرورة هنا وإن كانت مقبولة فإن الإكثار منها عند الآثاري يعتبر دليل ضعف .

٢ ــ التسوية بين الشطرين يعتبر مطلباً ذوقياً لمن لديه حسّ إيقاعي مرهف ، فإذا ما قبلنا أن ننهي الشطر الأول بـ (متفعلن) مثلاً فمن المستحب أن ينتهي الشطر الثاني مثله ، وهذا خان صاحبَ الكفايةِ كثيراً .

٣ ــ عاب على الناظم اللجوء كثيراً إلى تكرار كلمات ما لها داع أو أساس في القاعدة ، بل أتى بها لإتمام الوزن .

وسأعرض في الصفحات التالية لثلاثة نماذج من الألفية حرصت على اختيارها من الأمور التي ذكر الآثاري أنها لم تأت بها ألفية ابن معط وكذا ألفية ابن مالك تتمثل في مبحث (تقسيم الأسماء) ، وفصل (الحروف) و (خاتمة الفصول)

تقسيم الأسماء وتحديدها ، وهو على خمسين قسماً :

وجلة الأسماء ثلاثاً تُقْسَمُ قُلْ ظَاهِر وَمُضْمَرٌ وَمُبْهَمُ
ظَاهِرُهَا اسْمٌ دَلَّ بالإعراب فيه على معناه كالأحزاب
مضمرها دلَّ لفظُه على حُضُوره أو غيبةٍ كأقبلا
مبهماً اسمٌ ناقِصٌ أُشِيرَ به أو كان موصولاً به كمن وته
معربها مغير لطالب كجا أَبُ يدْعُو أباً إلَى أَبِ
مبنيها اسم لم يغيره عَمَل ممدودها كهؤلاء عنه دل
مقصودها المعتل لاماً بالألِف منقوصها بالياء في لَامٍ أَلِفْ
مصروفها اسم خُصَّ بالتنوين كدرهم وأمكن التمكين
ممنوعها اسم مشبه للفعل في عدم تنوين وكسر قَدْ قُفِي

منكورها ما عمَّ مذكوراً كشَيْ — معروفها ما خص شيئاً نحو « مَيْ »
مذكر بذا كزيد وزمن — مؤنث بذي كهند ويَمَنْ
مكبر من ياء تصغير سَلِمْ — مصغّر بياء تصغير عُلِمْ
مفردها اسم من علامة خَلَا — واسند أضف وامزج لتركيب تلا
ثم المثنى وهو ما دلَّ على — اثنين كابنين لفصل أهَّلَا
مجموعها ما كان فيه وَاحِدُهْ — صحيحاً أوْ مكسراً وزَائِدُه
ثم اسم جمع وَهْو ما دلَّ على — جمع بغير مفردٍ نحو الملَا
ثم اسم جنسٍ فصله بالتَّا عُلِم — جمعاً وللمعنى وشخص ينقسمْ
واسم إشارة لما دلَّ على — إشارة مع المسمَّى مسجلا
موصولُها الَّذي لوصل يفتقر — بجملة وعائد طبقاً ذكر
والمبتدا اسمٌ وبمعنى يرفع — والخبر الجزء المتمُّ يتبع
والفاعل اسم مسند إليه — فعلٌ له مقدم عليه
مفعوله اسم واقع في طلبه — فعل و (بِعْ ثَوْباً) هو المفعول به
مفعوله المطلق وهو المصدر — أي حدث عنه الفروعُ تَصْدُرُ
والمصدر المعلل المفعولُ له — كتبت خوف الله يَوْمَ المسأله
وانصب بفعلٍ بعد واوٍ مُتْبِعَهْ — باسمٍ كَسِرْ والرَّكْبَ مفعُولاً مَعَهْ
وظرفُهَا المفعولُ فيه اسمٌ قُفِي — مكاناً أوْ وقتاً على إضْمارِ «فِي»
والحالُ مَا أبَانَ وَصْفَ الْفَاعِلِ — أوْ وصْفَ مَفْعُولٍ بِنَصْبِ الفَاضِلِ
تمييزُها ما يرفعُ الإبْهَامَ عَنْ — ذاتٍ كَرِطْلٍ عَسَلاً فِيهِ انْصِبَنْ
خرِّجْ بإلا وانصب المستثنى — بعْضاً بفعلٍ مَعْ أداة استثنا
والنعتُ وصفٌ تُمِّم المتبوعَ بِهْ — طِبْقاً وفي إعرابِه بَحسَبِهْ
توكيدُها مقرِّرٌ بِنسْبَتِهِ — أو الشمول أوْ بلفظٍ جِيءَ بِهْ
عطفُ البيانِ مُوضحٌ لِلمعرِفهْ — مُخَصِّصٌ لِلنكرِ من غير صِفَهْ
مشاركٌ لفظاً وحُكماً واعتلِقْ — بعاطفٍ بينهُمَا عطفُ النَّسَقْ
والبدلُ المقصودُ بالحكمِ بِلَا — واسطةٍ مَاتَ الْوجيعُ المُبْتَلَى
ثم اسمُ فعلٍ نائبٌ عن فِعْلِ — شَتانَ صَه أَوَّهْ بِمعنَى الفعلِ
تَعجُّب بِمَا مَعَ الأفعالِ — إظهارُ وَصْفٍ لم يكنْ في بَالِ
ثم اسْمُ فاعلٍ كمثلِ قاتِلِ — أو مُكْرِم بكسرِ رَاءِ الفاعلِ
واسمُ المثالِ فَعِلٌ فَعِيلُ — مِفْعَالٌ أوْ فَعَّال أوْ فَعُولُ
ثم اسم مفعولٍ كمقتولٍ جَرى — بوزنِهِ أو مُكْرَم بفَتْحِ (را)
واسم مثاله فعيلٌ فَعَلٌ — وفُعَلَةٌ وفاعِلٌ وفِعَلُ
والصِّفَةُ المشبهةُ اسْم الفاعِلِ — مشتقَّةٌ مِنْ لازمٍ كفَاضِلِ
للمصدرِ اسم عَامِلٌ كمَفْعَل — لَا مَشْعرٍ ومَطْلَعٍ ومَنْقَلِ
ما اشتُقَّ من فِعْلٍ لموصوفٍ عَلَا — هو اسمُ تفضيل له كأفضلا

فصل الحرف

قسم الآثاري هذا الفصل إلى سبعة مباحث وهي كما يلي :

المبحث الأول
تعريف الحرف وعلاماته

ما لا يرى الإسناد فيه العرفُ[٣٠] — أو جاب[٣١] في سواه فهو الحرفُ
وجعله بواسطة بين الحدَثْ — والذَّاتِ[٣٢] والتجريد[٣٣] تعريفُ حَدَثْ

المبحث الثاني : صفة الحرف

الحرف ركنٌ بالبنا قد اتَّصَف[٣٤] — ولقّبوه الحرف ، إذ كان الطرف[٣٥]
خصص به واربط أجِبْ واعمل وَزِدْ — أكّد وَصِلْ وعَدِّ وانقل تستفد[٣٦]

المبحث الثالث
تقسيم الحروف التي لا عمل لها وهي ثمانون حرفاً في عشرين قسماً

صدِّر حروفا ، صدرها واوا ابتدا — كأنما خمس بِمَا كُلٌّ بَنَا
لكن ، وإن ، إذا ، ألا ، أمَّا ، أمَا — لَوْلَا ولَوْمَا ، اللَّامُ ، حتى ، رُبَّمَا
واستفهموا بهمزةٍ وهلْ وأمْ — ثلاثةُ التعريف : ال واللام أمْ[٣٧]
للعطف واوٌ ، فَا ، ثُمَّ ، أوْ وأمْ — إمَّا وبَلْ ، لكن وَلَا ، حتى ختم[٣٨]
وتسعةُ الجوابِ كلَّا ، إي ، بَجَلْ — جَيْرِ ، بلَى ، إنَّ ، نعمْ ، أجلْ ، جَلَل[٣٩]
وأربع أتَيْنَ للمضارعهْ — خاطِبْ بِتَا والكاف أوْ بَا «جامِعَهْ»[٤٠]
وأربع التوبيخ لَوْمَا ألَّا — وهُنَّ للتحضيض لولا ، هلا[٤١]
فسِّرْ بِأيْ وأنْ ونَابَتْ نوبها — أشِرْ بِـ «هَا» وللاعتلال قُلْ: «وَيَا»[٤٢]
واثنان للتنفيس سَوْفَ السِّينُ — أكِّدْ مَعاً نُونْ وَواقِ نُونُ[٤٣]

المبحث الرابع
حصر الحروف المعنويّة وهي ثمانون حرفاً
في خمسة أقسام[٤٤]

أسهل ما تنوي بفَكِّ لِلأحد — بَلْ هلْ، والْ، وَا، يَا، وهَا وفي وقَدْ
مع كَيْ ولو وأَيْ وإي ومِنْ وعَنْ — وما ومُذْ أمْ لَمْ ولَا إنْ أنْ ولَنْ
جَيْرِ أجَلْ إنَّ نَعَمْ ثُمَّ بَلَى — ألَمْ عَدا مُنْذُ ، إذَا ، لَيْتَ ، علَى
خلَا أيَا هَيَا ، إذَنْ ، رُبَّ ، إلَى — سَوْفَ كَأنْ إنَّ أما ، لَاتَ ، ألَا
حاشَ حَشَا لِكَيْ، جَلَلْ، بَجَلْ، مَتَى — هَلَّا وكَلَّا كَيْ ، مَعاً ، لَكِنْ أتَى
إلَّا وإمَّا أزْبَعْ وحَتَّى لَمَّا — لعَلَّ حَاشَا وكَأنَّ إذْ مَا

المبحث الخامس
ما دخلت عليه (ما) كافة له وما دخلت عليه (ما) أو غيرها صلة له[٤٥]

واكفف بما حرفاً وعَمِّمْ بالصِّله — في اسم وفي حرف وفعلٍ مقبله
والخلف في حاشا إذا قيس على — عدا خلا بما فَبَعْضٌ قَلَّلَا
وقيل لا تصحُب «مَا» قلتَ العجب — وقد أتَى عن الرسولِ والعرَبِ

المبحث السادس
أحرف الإبدال وأحرف القلب

أهديت موطئاً لإبدال عُرِف — في كثرة والقلب فِي (وَيَا) أَلِف

المبحث السابع
توجيه الحروف المعنويّة ، وينحصر ذلك في خمسمائة وخمسة وستين وجهاً :
ما له وجه واحد وهي ثلاثة عشر حرفاً

يا ، ليت ، سين ، سوف ، لم ولن أبا — لكن معاً إذْ مَا إذَنْ كأنْ هَيَا

ما جاء على وجهين وهي خمسة عشر حرفاً[٤٦]

أما لِلاستفتاحِ أو حقًّا وأيْ — حرف نداء ، حرف تفسير لِشَيْ

حرفٌ سِمْ ، مُذْ منذ ، وَا ، إذَا جَلَل   أجِبْ وحَقاً جَيْر ، رُبَّ أكثِرْ وقَلّ
هلّا وألّا ، وَبُخا حَضِّضْ ، بَلَى   فِعْلٌ وحَرْفٌ وعدَا حَاشَا خَلا

ما جاء على ثلاثة أوجه وهي خمسة عشر حرفاً[47]

أمّا اشترطْ ، أكّدْ وتفصيل وبَلْ   عطف وإضراب ومعنى رب قَلّ
وال لتعريف ووصل زائدة   « حشا » اسم أو فعل وحرف واردة
لمّا جزمت استثنِ للوجودِ   نَعَمْ أجِبْ أعلِمْ وللوُعُودِ
وَكَنَعَمْ على الثلاث إيِ أجل   تصديق أو كحسب أو يَكْفِي بجَلْ
وكَيْ كأنْ واللام واسمٌ مقتطع   واسم وحرف وبمعنى عند «مَعْ»
« ها » مضمرٌ ثم اسمُ فعلِ حرف   حاشَ اسم تنزيهٍ وفعل حرف

ما جاء على أربعة أوجه وهي خمسة أحرف[48]

(لولا) امتناعٌ ولتحضيضٍ وفي   عرض وفي التوبيخ أو (لَوْمَا) يَفِي
(كأنَّ) شَبِّه شكِّ حَقِّق قَرِّبِ   (ثُمَّ) اشترك أمهل وزِدْ وَرَتِّبِ
(كَلّا) للاستفتاح والتصديق أوْ   للردع والزجر وحقًّا قَدْ رَأَوْا

ما جاء على خمسة أوجه وهي خمسة أحرف[49]

(إنَّ) مضى ، أكّد نعَمْ أمّرْ حَصرّ   (أنَّ) مضى أكّد وعَلَّ اسمٌ حَصَرْ
و (لو) كإنْ قَلّل وعرضُ مَصْدَرُ   تمنٍّ (إمّا) فَصِّلَتْ أو خيروا
فاشكك أبِحْ، أبهِمْ (مَتَى) كَهَبْ وإنْ   ومَعْ إلى وبَّخْ ومَعْ مَا صِلْ كمِنْ

ما جاء على ستة أوجه وهي أربعة أحرف[50]

و (هَلْ) بها استفهم وتنفي أو كقد   ومُرْ كإنّ والتمني قد ورد
(حتّى) ابتداء وبمعنى «كي» إلَى   والـواو إلّا أنْ أقبِـلَا
تَرَجَّ عَلِّل شُكَّ واجرر بـ (لَعَلّ)   وتقتفِي كإن في المعنى وهَل
و (أمْ) بها اقطع صِلْ وزد مثل ال   ومثل همزةٍ كهَلْ ومثل بَلْ

ما جاء على سبعة أوجه وهي أربعة أحرف[51]

و (الكاف) أصِّلْ زِدْ وللتشبيهِ   واستعلِ علِّلْ سَمِّ أكّدْ فِيهِ
(قد) حقِّقَتْ قَرِّبْ توقَّعْ قَلِّلَتْ   كثِّرْ كحسب أو كيكفِي إن نَمَتْ
(ألّا) كغير زِدْ كواو أخرجت   لكن واما حقّقتْ وأوجبَتْ
و (إنْ) كإذْ إمّا اشترط خفِّف وزِدْ   كلَوْ ولِلنَّفْـي بتربيـع يَرِدْ

ما جاء على ثمانية أوجه وهو ألا وأن بالفتح والتخفيف فيهما[52]

(ألا) افتتح حَقِّق ووبِّخ نَبِّه   تمنَّ واعرِضْ حضِّضْ استفهم به
(أن) مصدر فسِّرْ كأنْ خفِّفْ وزِدْ   كَلَا لِئَلا إذْ بتثليث يرد

ما جاء على تسعة أوجه وهو : إلى[53]

(إلى) لغاية معاً ظرف كَمَعْ   في عند لام زد وكالباء يقَعْ

ما جاء على عشرة أوجه وهو : عن وفي[54]

(عَنْ) جاوزت كبعد علل أبدلا   ألصِق كَبا في واستَعِنْ كمِنْ على
و (في) كمعْ ظرفٌ معاً كمِنْ إلَى   واستَعْلِ كالبا زِدْ وقايِسْ عَلِّلا

ما جاء على أحد عشر وجهاً وهو : النون[55]

والنّونُ أصلٌ منه نون العظمه   نوِّنه أو زيادة في الكلمه
ولوقايـة فشتْ ونـونُ مَا ثُنِّي   والجمع وشبهِ لَهُمَـا
وأنثُـوا وذَكِّـرُوا وأكِّـدوا   فخففُـوا نُونـاً له وشدَّدُوا

ما جاء على اثني عشر وجهاً وهو أو[56]

وأوكيل والواو بيِّـن قسم   خير أبح واشكك وفرق أبهم
وكإلى أن وكإلّا أنْ كإنْ   وغيرها أربعةٌ فِيهَا طُعِـنْ

ما جاء على ثلاثة عشر وجهاً وهو : على[57]

عَلَى كَعَنْ ومَعْ ومثل الباءِ   عَلِّـلْ كَلَام أوْ لِلاستِعْـلَاءِ
وَزِدْ مَعاً واسمٌ وفعلٌ حَرْفُ   كَبَلْ كَمِنْ كَفِي وهَذَا ظَرْفُ

ما جاء على أربعة عشر وجهاً وهي : الياء[58]

والياءُ أصِّلْ زِدْ وأنِّثْ ذَكِّرِ   وانسبْ أضيف ضَارِعْ ولِلْمُصَغَّرِ
وعِلَّـةٍ أطْلِـقْ وللإنكـارِ   والنَّصْبِ والجَرِّ ولِلتَّذْكَـارِ

ما جاء على خمسة عشر وجهاً : الهاء[59]

والهاء زد نبه وأنث أصِّلِ   أضمر أو انعت بالغ حَوِّلِ
وانسب وصغِّر عَوِّضَنْ والجمع أو   لمصدرٍ فَرِّقْ بتربيـع رَأَوْا

ما جاء على ستة عشر وجهاً (التاء)[60]

والتاءُ أصِّلْ والمزيدُ والقسمْ   عَلِّمْ كقامتْ أو ضمير انقسمْ
أنِّثْ وللإلحاقِ شَبِّهْ أبْـدِلِ   ضَارِعْ وطاوِعْ ثُمَّ صِلْ وحَوِّل

ما جاء على سبعة عشر وجهاً وهو : (من) و (الفاء)[61]

و (مِنْ) كَعَنْ والبا وفي ومُذْ عَلَى   عَلِّلْ وبَيِّنْ وافصِلَنْ وأبْدِلَا
وابدأ ثلاثةً وبَعِّض وانتهِي   أكّدْ وزِدْ سَبْعاً ومُرْ إنْ تَنْتَهِي
و (الفا) للاستئناف واعطف رتِّبِ   عقِّب وزِدْ أصِّلْ وإلّا سَبِّبِ
واقسِمْ وأكّد أو فقدِّرْ واحْذِفِ   والشرط أو ربط ثمانٍ هُنَّ في
عَرْض وتحضيضٍ دُعاءٍ نَفْيٍ   تَمَنٍّ استفهامٍ أمـرٍ نهْـيِ

ما جاء على ثمانية عشر وجهاً وهو الواو[62]

واو ابتداء والحال واضمر واعطِف   أصِّلْ وزِدْ لِعلَّةٍ واستأنِـفِ
كأوكبل كمعْ وأطلِق وارْفعا   واقسِمْ وصغِّر رُبَّ ثَمِّنْ والدُّعا

ما جاء على تسعة عشر وجهاً وهي الباء الموحدة[63]

بالباء ألصق عَدِّ سَبِّبْ واستَعِنْ   أبِنْ واقسِمْ عَوِّضَنْ وابْدِلْ كَمِنْ
كَمعْ إلَى وعَنْ عَلَى ظَرْفٌ مَعاً   أكِّدْ مَعاً أصِّلْ وزِدْ مُسبِعاً

ما جاء على عشرين وجهاً وهو حرفان (لا) و (ما)[64]

و (لَا) لنهي أو جواب للقسم   أو جحداً أوردَ على عكس نَعَمْ

كلم كليس وأبدِلَنْ أو اتفق   توكيده للجحد مع واو النَّسَقْ
كلن كغيرِ زدْ ومنه الأصلُ   وائْف بِهَا أوِ اعْتَرِضْ والوصلُ
وهَدَّرَتْ أوْ لالتماسٍ أوْ دُعَا   وعَاطف ووصلٍ هل ولوْ مَعَا
(ما) اسم للاستفهام إن جر انحذف   أَلِفُهُ ويلزم الْهَا مَنْ وَقَفْ
معرفـــــة ناقصة أو ثُمَّت   في صورتين خصصت أو عمَّت
نكر بنقصٍ ثم في ثلاثٍ أوْ   في اثنين للشرط وبالحرفِ نَفَوْا
ومصدرٍ ظرفٍ وغيرِ ظرفِ   وفي الحجاز أو تميم تُنْفِي
وزِدْ وللتوكيدِ أيضا يُعتَبَــرْ   وكُفَّ عن رَفْعٍ وعن نُصْبٍ وجَرّ

ما جاء على ثلاثين وجهاً وهو الهمزة[65]

والهمز للقطع ووصل اضمرِ   أخبر وغيِّــر آتُــنْ وذَكِّــرِ
واسْتَنْبِطِ قَرِّر جيء وأعطِ التسوية   وللنِّدا عن لفظِ أيٍّ مغنية
حقِّق بإيجاب تهكَّمْ أصِّلِ   وزِدْ ونَبِّهْ مُرّ وعَوِّضْ حَوِّلِ
عَرِّف للاستفهامِ وابْدَأْ إنْ تقِفْ   أنكِرْ مَعاً واعجب معاً فعلَّ أَلِفْ

ما جاء على تسعة وثلاثين وجهاً وهو (إنَّ) بالكسر والتشديد[66]

وإنَّ بالكسر ابتداء القول لَهْ   أو صفة أو حال ولاسم صلة
أو خبر عن اسم عين أو قسمْ   جوابه باللام أولا لام ثَمّ
وبعد فعل القلب واسم عُلِّقَا   باللام أو تحكى بقول حُقِّقَا
وبعد إذ حيثُ ألا لَا تفتحنْ   فكم فقيهٍ بعدهُنَّ قَدْ لَحنْ
وفتح أنَّ بعد فعلِ القلبِ أو   معطوفةً وبعد لولا ثم لَوْ[67]
وقبل جامدٍ به قد أخبرُوا   وحيثما يسدُّ عنْهَــا المصدرُ
فاعلــه مفعولــه وبعــد ما   للوقت أو جرّت بحرف أو سما
أو مبتدأ مؤخراً عن العمل   أو خبراً عن اسم معنى أو بدل
وخيِّروا بعد إذا أو القسم   إن لم تلِ اللام وبعد الفاء انقسمْ[68]
ونحو قولي : إنَّ لي مقالهْ   تشهــد بالتوحيــد والرِّسالَــهْ
بعد مفردٍ عليهِ قَدْ عُطِفْ   وبعدَ حَتى ولتعليل أُلِــفْ
وبعد مُذ منذُ أمَا ولَاجَرمْ   وبعد أمَّا ظرفٌ أوْ حرفٌ وثَمّ

ما جاء على أربعين وجهاً وهو (الألف)[69]

أصْلٌ وفَصْلٌ زِدْ وعَن تنوينِ   عِوَضٌ أوْ عَنْ سينٍ أوْ عَنْ نُونِ
أو واوٍ أو ياءٍ بسبع جُمِعَا   آنِثْ مَعاً ألْحِقْ واقصرَنْ مَعا
وابهم معاً للنفس صغر خاطب   وعلــة نداء جهــل غائب
أسِّسْ وصِلْ أشْبِعْ وأطْلِقْ تدف   واخرجْ ولِنْ وادفعنْ وانْصِبْ وقِفْ

ما جاء على خمسين وجهاً وهو السلام[70]

لام ابتداء والأصل والإقحام   جواب الاستفهــــام والإقسام
ولو ولولا وانتهت للتقويــه   مهد أضف وانقل ومر للتعدية
والملك والتمليك خصِّصْ فَرِّقْ   شَبِّهْ تعجب ولنفي عَلِّــق
عللْ وصيِّر وادْعُ خَبِّر هَدِّدِ   بلِّغْ وبيِّنْ واستغِثْ وأكِّــدِ
كي تستحق المدح للتعريــف   أشِرْ وصِلْ لِلـذَّمِّ والتحليـف
كالفاء بعد في وعند من إلى   ومَعْ وأنْ وعَنْ وإلَّا وعَلَى

خاتمة الفصول

شرح كلام فيه إعراب الأدب   مع الإله وهو بعض ما وجب
فالربُّ مسئولٌ بأفعالِ الطَّلَبْ   فاغفر لنا والعبدِ بالأمر انتدب
وفي سألتُ اللَّهَ في التعليمِ   تقول : منصوبٌ على التعظيم
باللّه طالب ومطلوب عُلِمْ   قد يعلم الله بمعنى قد عُلِمْ
ونحو : كان الله معناه الدوّامْ   ونحو : ما أكرمه فيه الكلامْ
وامنع من التصغير ثم التثنيةْ   والجمع والترخيم خير التسمية
ولا تقل يا هو والاستعانــه   بالبــا لنــا واخصصه بالإبانــه
وهلْ من الله سؤال العالمِ   أو ما وهمز في خطاب الآدمي
وعبــده هو الــذي يستفهــم   لأنــه من يومــه لا يعلــم
فقس على هنا ووقِّعْ بلَعَلْ   منه وحقق بعَسَى تُعْطِي الأملْ
ولا تقل على للاستعلاء مع   ربَّ وحيَّ إذْ مع اللّه امتنع
لكن من قد رأوا الإسنَادَ أو   إضافــة فبالثــلاث قَدْ رأوا
ولا تُقُلْ لاهِ أبوكَ والغرضْ   لله قبل الدين هنا قَدْ عرضْ
وحينما قيل الكتاب انهضْ إليْهِ   كتاب ربي لا كتاب سيبويهِ
لأنــه بكــلِ شيءٍ شاهِــدُ   ولَا تُقُلْ ذَا الحرفُ منه زائدُ
بل هو توكيدٌ لمعنى أو صِلَهْ   للفظ في آيــاته المُفَصَّلــه
وغالب النحاة عن ذَا البابِ   في غفلة فانْحُ عَلَى الصوابِ

الهوامش

(١) هو محمد بن أحمد بن علي ، أبو علي الزفتاوي المصري المكتب المولود سنة خمسين وسبعمائة ، والمتوفى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، صنّف في أوضاع الخط كتاباً سماه (منهاج الإصابة في أوضاع الكتابة) تتلمذ على يديه كثير من المصريين .

(٢) هو شمس الدين محمد بن محمد بن علي عبد الرازق أبو عبد الله الغماري المصري المالكي النحوي ، أخذ العربية عن أبي حيان، وقرأ الأدب على ابن نباته ، وأخذ أيضاً عن مشايخ مكة كاليافعي ، قال عنه السيوطي : إنه تفرّد على رأس الثمانمائة خمسة علماء وخص الغماري بالنحو ، وقال ابن الجزري في طبقاته للقراء : إنه نحوي أستاذ انتهت إليه علوم العربية في زمانه .

(٣) ابن ظهيرة : محمد بن عبد الله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية بن ظهيرة .... برع في الفقه والحديث وتتلمذ على كثيرين من علماء في شتى العلوم . انتهت إليه رياسة الشافعية ولقب بعالم الحجاز ، وتصدى للإفتاء ، وولي قضاء مكة وتوفي بمكة قاضياً .

(٤) كالبدر الطنبذى المصري أحد مشاهر الشافعي ، وأبو بكر بن الحسين المراغي المصري نزيل المدينة ، لزم الاشتغال بالعلم والتأليف والحديث حتى صار شيخها المشار إليه ثم عزل عن قضائها ، وبدر الدين الأبشيطي وبرهان الدين الأبناسي وعز الدين بن جماعة وبرهان الدين الدجوي ومجد الدين إسماعيل الحنفي قاضي القضاة الحنفية بالمدرسة السيوفية بمصر .

(٥) انظر الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لابن فهد . «القسم الثالث عشر» والضوء اللامع ١٠١/٣ ، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ٣٥٣/٣ وما بعدها ، هدية العارفين ٤١٦/٥ ، إيضاح المكنون ٤١٥/٣ ، الأعلام للزركلي ١٦٤/٣ ، صبح الأعشى للقلقشندي ٤٦٩/١ ، ٤٨٢/٢ ، بديعيات الآثاري (المقدمة) .

(٦) تحقيق وتقديم هلال ناجي ، بغداد ، وزارة الأوقاف ، سلسلة كتب التراث (٣٠) .

(٧) ذكره الآثاري في مقدمة كتابه (الهداية في شرح الكفاية) الجزء الأول لوحة ١٧ ب .

(٨) ذكر الآثاري في مقدمة الهداية كتاباً باسم : «صدقة المالك في تصحيح ألفية ابن مالك » ولعله هو هذا الكتاب .

(٩) حققها الأستاذ هلال ناجي ونشرت بالعدد الثاني من المجلد الثامن من المورد العراقية .

(١٠) فرغت من تحقيقه ودفعت به إلى المطبعة وسيظهر قريباً بمشيئة الله تعالى .

(١١) تذكرها بعض كتب التراجم باسم (مجمع الأرب في علوم الأدب) ، ويؤكد هذه التسمية أيضاً ما اطلعت عليه أخيراً وما ذكره الأستاذ محمد علي إلياس العدواني في مقدمة تحقيقه للمنهج المشهور ... بمجلة المورد العراقية العدد الرابع المجلد التاسع ص ٥٩٩ من أنه عثر على هذه المنظومة ضمن مجموع وعند مطالعته لها تبين أنها ما يذكره المترجمون لها بعنوان (لسان العرب ... الخ) .

(١٢) حققها الأستاذ محمد العدواني ، ونشرها بمجلة المورد العراقية العدد الرابع المجلد التاسع ص ٥٩٩ ــ ٦٠٨ .

(١٣) بمكتبة الأوقاف بالعراق ضمن مجموعة ٢٧٨٤/١٣ .

(١٤) بمكتبة الأوقاف بالعراق ضمن مجموعة ٤٨٥٢/٤ .

(١٥) ذكره الآثاري في مقدمة مخطوطة الهداية .

(١٦) في صبح الأعشى ٤٦٩/١ ذكر اسمها (هداية الضليل إلى علم الخليل) وفي الدر الكمين : الوجه الجليل ، وفي الضوء اللامع : الوجه الجميل .

(١٧) ذكر الأستاذ هلال ناجي محقق (بديعيات الآثاري) أنه نشرها في مجلة المورد العراقية .

(١٨) مقدمة كتاب الهداية شرح الكفاية .

(١٩) أي كلام أبي حيان .

(٢٠) أي كلام بابشاذ الذي نقله «الآثاري عنه» .

(٢١) العمدة لابن مالك ، والجرجانية ويذكر كاظم بحر المرجان محقق المقتصد في مقدمة الكتاب ص ٢٤ أنها (العوامل المائة) ويقول : لقد سماه « صاحب كشف الظنون بالجرجانية ، واللمحة هي اللمحة البدرية لأبي حيان » .

(٢٢) في الفصل الأول يذكر تعريف الاسم وعلاماته وصفته وسبب تسميته ، وتقسيمه وتحديد أنواعه وإعرابه وما يتعلق به . وفي الفصل الثاني يذكر تعريف الفعل وسبب تسميته وعلاماته وصفته وحكمه وتقسيمه . والفصل الثالث للحرف ويشمل : تعريفه وعلاماته وصفته وسبب تسميته بالحرف ومعانيه وتقسيمه وتوجيه معانيه وما يتعلق به ، ثم ذكر فصولاً أربعة للرفع والنصب والجر والجزم . أما فصل الرفع فإنه يشمل علاماته الأربع ، وأصنافه الأحد عشر ، ومرفوعاته الخمسة عشر ، وأما فصل النصب فإنه يشمل علاماته الخمس ، وأصنافه الأحد عشر ، ومنصوباته العشرين ، وأما فصل الجر فإنه يشمل علاماته الثلاث ، وأصنافه العشر ، ومجروراته الأربع ، وأمافصل الجزم فإنه يشمل ذكر علامته وذكر صنفه وذكر مجزومه وذكر أحواله الخمس وذكر أمثلتها .
ثم ذكر في البيت الثالث الفصول الثلاثة التي بقيت وهي التي فيها الأسباب وهي : العامل والتابع والحذف .
أما فصل العامل فيشمل أنواعه سواء كان العامل اسماً أو فعلاً أو حرفاً ظاهراً أو مقدراً ، وهي مائة وخمسون عاملاً ، منها أربعون للأسماء وستون للأفعال وخمسون للحروف ، فالأسماء منها عامل رفع ومنها عامل نصب ومنها عامل جر ومنها عامل جزم .
والأفعال تعمل الرفع إذا كانت مجردة وتعمل النصب إذا انضم إليها فاعلها . والحروف منها ما يعمل النصب ومنها ما يعمل الجر ومنها ما يعمل الجزم . وأما فصل التابع ، فيشمل التوابع الستة ، وهي : النعت والتوكيد المعنوي والتوكيد اللفظي وعطف النسق وعطف البيان . وأما فصل الحذف فيشمل ستين قسماً من أقسام الحذف . منها عشرون للأسماء ومنها عشرون للأفعال ومنها عشرون للحروف ، ويتعلق بهذا الفصل ذكر التقديم والتأخير والفصل في أربعين باباً من أبواب العربية ، ويتعلق به أيضاً ذكر الجمل عند انتهاء العمل ثم الوقف ، ولهذا قال : ومنتهاه الوقف ، أي منتهى الحذف الذي هو عاشر الفصول يكون الوقف ، ولقد جاء في نهاية فصل الحذفِ الوقفُ ، وذلك لأنه لا يحسن مكانه إلا في آخر الفصول العشرة .
ولقد خصّ الآثاري ما يتردد بين الحرفية والفعلية من أدوات الاستثناء بمبحث ، وكذلك خصّ (ما ولا وإن المشبّهات بليس) بمبحث مستقل ، وهي حروف ترفع الاسم وتنصب الخبر .

(٢٣) يشير إلى ما حدث بين أبي الأسود الدؤلي وابنته لمّا دخل عليها في البصرة فقالت له : يا أبت ما أشد الحر ، فظنها تسألها وتستفهم منه أي أزمان الحر أشد ؟ فقال لها : شَهْرُنَا جر ، فقالت له : يا أبت أنا أخبرتك ولم أسألك ، فأتى أمير المؤمنين عليَّ بن أبي طالب ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم وأوشك إن تطاول عليها زمان أن تضمحلّ ، فقال له : وما ذلك ؟ فأخبره بخبر ابنته ، فأمره فاشترى صحفاً بدرهم ، وأملى عليه : الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف لمعنى . (الأغاني ٢٩٨/١٢) .

(٢٤) هناك رواية أخرى عن سبب وضع النحو غير الرواية السابقة وهي على لسان أبي الأسود ، قال : « دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً مفكراً ، فقلت : فيم تفكر يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني سمعت في بلدكم هذا لحناً فأردت أن أضع كتاباً في أصول العربية ، فقلت : إن فعلت هذا جمعتنا وبقيت فينا هذه اللغة ، ثم أتيته بعد أيام ، فألقى إليّ صحيفة فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن مسمى والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل ، ثم قال لي : انح هذا النحو وأضف إليه ما وقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ومضمر ، واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر ، وأراد بذلك الاسم المبهم . ثم قال : وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب (إن وأخواتها) فذكرت منها : إن وأنّ وليت ولعل وكأن ولم أذكر منها (لكنّ) فقال لي : لم تركتها ؟ فقلت : لم أحسبها منها فقال : بل هي منها فزدها فيها ، وكنت كلما وضعت باباً من أبواب النحو عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية فقال : ما أحسن هذا النحو الذي قد نحوت ، فلذلك سمي النحو» . اهـ . انظر نزهة الألباء ص ١٨ ، معجم الأدباء لياقوت ٤٩/١٤ ، أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي ص ١٦٩ .

(٢٥) انظر الهداية جـ ١ ، ١٤ ، ١٥ ، أ ، ب .

(٢٦) كما ذكرت لن أعرض الآن ما ذكره الآثاري للبحث ومجاله عند المقارنة بين الألفيات .

(٢٧) الهداية ١٦ أ .

(٢٨) يقصد ما سبق أن ذكره عن ابن مالك .

(٢٩) موسيقى الشعر لإبراهيم أنيس ص ٣٠٣ ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ م ، مكتبة الأنجلو المصرية .

(٣٠) يذكر الآثاري أنّ للحرف علامة سلبية ، وهي عدم الإسناد ، فهو لا يسند ولا يسند إليه ، يقول ابن مالك في التسهيل ص ٣ : «الحرف كلمة لا تقبل إسناداً وضعياً بنفسها ولا بنظير» ا هـ .

(٣١) في لسان العرب (جوب) : « جاب الشيء جوباً واجتابه : خرقه ، وكل مجوّف قطعت وسطه فقد جبته ، وجاب الصخرة جوباً : نقبها ، وفي التنزيل العزيز : **﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾** قال الفراء : «جابو : خرقوا الصخر فاتخذوه بيوتاً ، ونحو ذلك قال الزجاج واعتبره بقوله : **﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾** وجاب يجوب جوباً : قطع وخرق » .
وقول الآثاري هنا : « أو جاب في سواه » ، أي قطع وأثر في غيره ، يريد : أنه يؤثر في غيره ولا يتأثر بغيره ، وهذا المعنى هو المراد من قول ابن معطٍ في ألفيته ص ٣ :

والحرف لا يفيـد معنـى إلّا في غيره كهـل أتى المُعَلّـى

(٣٢) الكلمة ذات ، وهي الاسم ، وحدث ؛ وهو الفعل ، وواسطة ورابطة بين الحدث والذات ؛ وهي الحرف ، وهذه هي العلامة الثالثة من العلامات الثلاث التي ذكرها ، وهي عدم الإسناد والتأثير في غيره ، وواسطة بين الحدث والذات .

(٣٣) يشير الآثاري إلى التعريف الذي ارتضاه للحرف ، وهو تجريده من علامات الأسماء والأفعال ، فقوله « حدث » أي له ، أي للحرف ، وهناك تعريفات أخرى للحرف يضيق المقام هنا عن ذكرها .

(٣٤) يعني أن صفة الحرف لفظ تبنى به الكلمة يتنزل منها منزلة الركن من البيت في البناء (انظر الهداية ٢/٨١ أ) .

(٣٥) يقول ابن بابشاذ : «وإنما لقب بذلك ، لأنه مأخوذ من حرف الشيء وهو طرفه ، من حيث كان معناه في غيره فصار كأنه طرف له » (الهداية ٢/٨١ أ) .

(٣٦) ذكر الآثاري للحرف عشرة معان ، وبعضهم جعلها أربعاً ، يقول ابن معط في الألفية :

يجيء إمـا رابطـاً أو ناقـلاً أو زائـداً مؤكـداً أو عامـلاً

(٣٧) قسم الآثاري الحروف غير العاملة وعددها ثمانون حرفاً إلى عشرين قسماً ، ذكر في الأبيات الثلاثة السابقة الحروف التي لها الصدارة في الكلام وهي أربعة وعشرون حرفاً منقسمة إلى ثلاثة أقسام :

١ ـ القسم الأول : حروف الابتداء وهي ثمانية عشر حرفاً. واو الابتداء ـــ إن وأخواتها الست .. المكفوفة بما ـــ لكن (الخفية النون) إن (الخفيفة النون) ـــ إذا الفجائية ـــ ألا بمعنى التنبيه ـــ أمّا للتفصيل ـــ أما للاستفتاح ـــ لولا ولوما للامتناع ـــ لام الابتداء ـــ حتى في أحد أقسامها ـــ ربّ المكفوفة بما .

٢ ـــ القسم الثاني : حروف الاستفهام وهي ثلاثة : الهمزة وهل وأم .

٣ ـــ القسم الثالث : حروف التعريف وهي أيضاً ثلاثة : الألف واللام على رأي ـــ اللام وحدها على رأي آخر ـــ أم بإبدال لام ال فيها على لغة حمير .

(٣٨) ذكر في هذا البيت عشرة حروف للعطف ، وذلك على رأي الأكثرين .

(٣٩) ذكر في هذا البيت لأحرف التصديق والإيجاب تسعة .

(٤٠) ذكر في الشطر الأول أحرف المضارعة مجموعة في (أتين) وفي الشطر الثاني أحرف الخطاب وهي ثلاثة : التاء والكاف و (يا) في النداء حالة كونها لجماعة لا لمفرد وعبّر عن ذلك بقوله (جامعة) أي كونها خطاباً عامًّا للجمع .

(٤١) الثامن والتاسع من الأقسام : التوبيخ والتحضيض ولهما أربعة أحرف :
لوما ـــ ألّا ـــ لولا ـــ هَلّا ، إن دخلت على ما من فهي للتوبيخ ، أو على مضارع للتحضيض ، وابن مالك جعلها للتوبيخ وزاد عليها (ألا) بالتخفيف فقال :

لولا ولومـا يلزمـان الابتـدا إذا امتناعـاً بوجـود عُقِـدا
وبهمـا التحضيض مِزْ وهَـلّا ألّا ، وأولِـينها الفِعْـلا

(٤٢) ذكر في البيت القسم العاشر : التفسير وله حرفان : إي وأن ، والحادي عشر : علامات الإعراب الفرعية النائبة عن الأصلية وهي أربعة أحرف مجموعة في قولك (ثويا) ، والثاني عشر : الإشارة وله حرف (ها) ، والحروف العلة ثلاثة مجموعة في قولك (وبا) وهذا هو القسم الثالث عشر .

(٤٣) ذكر في هذ البيت القسم الرابع عشر : التنفيس وله حرفان : السين وسوف ، والخامس عشر : التوكيد وله نونان : خفيفة وثقيلة وعبر عنهما بقوله : أكّد معاً ـــ وهما لتوكيد المضارع ، واقتصر على ذلك ، مع أنّ للتوكيد أحرفاً أخرى كاللام مثلاً ، والقسم السادس عشر : التنوين ـــ و هو نون ساكنة ـــ حرف ملفوظ لا مكتوب ، وعدّه بعضهم في حروف المعاني ، والقسم السابع عشر : الوقاية وله حرف النون وعبر عنه بقوله (واق) ـــ اسم فاعل من (وق) نون .

(٤٤) قسّم الآثاري حروف المعاني إلى خمسة أقسام عدد حروفها ثمانون حرفاً ، أشار إلى الحروف الفرادى بـ (أسهل ما تنوي) وهي حروف الزيادة وعددها عشرة حروف ، و (بفكٌ) إلى ثلاثة حروف : الباء ، والفاء والكاف وهي روابط بين الكلم ، والتنوين المستفاد من تنوين الكاف ، وهو حرف النون حيث يعتبر الآثاري من حروف المعاني ، بقوله (للأحد) فيه إشارة إلى أن الحروف الأربعة عشر مفردات ، وهذا هو القسم الأول ، والقسم الثاني : الثنائيات : وهي ثلاثة وعشرون مجموعة في النصف الثاني من البيت الأول والبيت الثاني كله ، وهي : بل وهل وال ووا ويا وهَا وفي وقد وكي ولو وأيْ وإي ومِنْ وعنْ ومَا ومُذْ وأمْ ولَمْ ولَا وإنْ وأنْ ولَنْ . والقسم الثالث : الثلاثيات وعددها سبعة مجموعة في بيتين ونصف وهي : جَيْرِ ، أجَلْ ، إنَّ ، نَعَمْ ، ثُمَّ ، بَلَى ، عَدَا ، خلَا ، مُنْذُ ، إذا ، لَيْتَ ، عَلَى ، أَيَا ، هيَا ، إذَنْ ، رُبَّ إلَى ، سَوْفَ كأنْ ، إنَّ ، أمَا ، لَاتَ ، ألا ، حاشَ ، حَشا ، لِكَيْ ، جَلَلْ ، بَجلْ ، مَتَى .
القسم الرابع : الرباعيات وهي : خمسة عشر حرفاً مجموعة في بيتين وهي : هلّا وكلّا وكيلا وكيما المشار إليهما بقوله : معاً ، ولكن المخففة والا واما بالكسر والفتح في همزتيهما ولذلك قال : أربع ، حتى، لما ، لعل ، حاشا ، إذن ، إذما القسم الخامس : الخماسي وهو حرف واحد وهو لكنّ بالتشديد وقوله (أتى) في آخر البيت السادسْ تذييل جيء به لتكملة المعنى والوزن ، فهو فعل ماضٍ ولا علاقة له بالحروف .

(٤٥) يشير إلى أن (ما) الكافة هي التي تدخل على حرف ناصب أو جار ، فالناصب هو «إنّ وأخواتها » و «كي» فهذه سبعة حروف ، وأما الجار فهو (رُبَّ) وهذه تختص بدخولها آخر الحرف .
وتدخل (ما) صلة في الاسم والفعل والحرف ولا تختص بآخر الكلمة . وقوله : «وعمم» يشمل الكلمات الثلاثة ، ويشمل المواضع الثلاثة ، الأول والوسط والآخر من الكلمة . وتكون صلة للاسم في أحد عشر اسماً ، سبعة منها عوامل الجزم ، واثنان منها ظرفا زمان ، واثنان منها صفتا قلة وكثرة ، وهي من الجميع في الأواخر، أما العوامل فهي : مهما وأينما وحيثما وأيّاما ومتى ما باتفاق ، وكيفما وإذ ما باختلاف فيهما ، وأما الظرفان فهما : بينما وكلّما ، أما الصفتان فهما : قليل ما وكثير ما . وأمّا كونها صفة للأفعال : فتكون في تسعة أفعال ، أربعة في الأواخر وهي : نعم وبئس وقلّ وطال ، وأربعة أفعال تقع في أوائلها وهي : زال ، برح ، فتيء ، دام ، انفك .وأما كونها صلة للحروف فتكون في خمسة أحرف آخراً ، وبين العامل والمعمول حشواً وبعد إذا نثراً وشعراً ، أما الخمسة التي تحلّ آخراً فهي : أمّا ولمّا ولوما وإذما وحتى ما ، ويقال فيها حينئذ : صلة ، وأما الحشو فبعد ثلاثة جارة : من ، عن ، الباء كافة ، وبعد الكاف وربّ يجوز الكفّ وعدمه ، وبعد إذا نثراً قوله تعالى : **﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾** . وشعراً :
إذا ما أُغنا حرّة بعد حرة .... ١ هـ . الهداية ٢/١١٥ ملخصاً .

(٤٦) الحروف التي تأتي على وَجْهين كما أوردها خمسة عشر حرفاً :

(أما) وتأتي للاستفتاح بمنزلة (ألا) وتأتي بمعنى «حَقّاً» ، أي لتحقيق الكلام الذي بعدها (أمي) ولها وجهان : حرف نداء ، والثاني : حرف تفسير (مذ ومنذ) ولكل منهما وجهان : أن يكونا اسمين والثاني : حرفا جر . (وا) ولها وجهان :

حرف ندبة ، واسم فعل بمعنى «أتعجب» . (إذا) تكون للمفاجأة ، والثاني : أن تكون ظرفاً للمستقبل متضمنة الشرط غالباً . (جَلَل) الوجه الأول : حرف بمعنى «نَعَم» والثاني : ذكره الجوهري : الأمر العظيم أو الأمر الهيِّن القدر .

وذكر بعضهم لها وجهاً ثالثاً بمعنى «أجل» ولكنه ضعيف . (جَيْرِ) حرف جواب بمعنى «نعم» . والثاني بمعنى «حَقّاً» (رُبَّ) للتكثير والثاني : التقليل ، وهو أقل الوجهين استعمالاً . (هَلّا وألّا) ولكل منهما وجهان : الأول : التوبيخ والثاني : التحضيض . (بَلَى) ولها وجهان : فعلاً ماضياً ، والثاني : حرف جواب مختص بإيجاب النفي . (عدا وحاشا وخلا) إن سبقت بـ (ما) فهي فعل ماض ، وإن لم تسبق احتملت أن تكون فعلاً ماضياً أو حرف جرٍّ .

(٤٧) يذكر الآثاري أن ما جاء على ثلاثة أوجه هو خمسة عشر حرفاً :

١ ــ (أمّا) وتأتي للشرط والتوكيد والتفصيل .

٢ ــ (بلْ) : تأتي للإضراب والعطف وبمعنى رُبَّ ، وهذا المعنى الأخير قليل وغريب نقله الفزاري .

٣ ــ (ال) تأتي للتعريف والوصل والزيادة .

٤ ــ (حشا) وتكون : اسماً وفعلاً ــ نقلهما الجوهري ــ وحرفاً .

٥ ــ (لمّا) تأتي للجزم وللاستثناء وحرف وجود لوجود ، وقيل : إن الأخير ظرف بمعنى «حين» ذكره الفارسي .

٦ ــ (نعم) حرف جواب بعد الخبر ، وحرف إعلام بعد الاستفهام ، وحرف وعد بعد الطلب .

٧، ٨ ــ (إي ، أجل) يأتيان بمعنى « نعم » في أوجهها الثلاثة .

٩ ــ (بجل) تأتي للتصديق وبمعنى « حسب » واسم فعل بمعنى : «يكفي» .

١٠ ــ (كي) تأتي بمنزلة « أن » المصدرية معنى وعملاً، وبمعنى « اللام التعليلية» ، وبمعنى « كيف » .

١١ ــ (مع) تأتي اسماً بمعنى « المصاحبة » ، وظرفاً للزمان وتكون محركة العين ، وتأتي حرف جرّ ساكنة العين .

١٢ ــ (ها) تأتي ضميراً للفردة المؤنثة ، واسم فعل بمعنى «خُذْ» ، وحرف تنبيه وإشارة .

١٣ ــ (حاشَ) تأتي اسم تنزيه وفعلاً ماضياً وحرف استثناء يجرّ ما بعده .

(٤٨) يقول الآثاري : ما جاء على أربعة أوجه خمسة أحرف :

١ ، ٢ ــ (لَوْلَا ، ولَوْما) لكل منهما أربعة أوجه : الامتناع والعرض والتحضيض والتوبيخ .

٣ ــ (كأنّ) ولها أربعة أوجه : التشبيه والشك والتحقق والتقريب .

٤ ــ (ثُمّ) للاشتراك والإمهال والزيادة والترتيب .

٥ ــ (كلا) للاستفتاح والتصديق والردع والزجر معاً وبمعنى حقاً .

(٤٩) يقول الآثاري : ما جاء على خمسة أوجه خمسة أحرف :

١ ــ (إنّ) بالكسر والتشديد : تأتي فعلاً ماضياً وحرف توكيد وبمعنى نَعَمْ وفعل أمر وأداة حصر .

٢ ــ (أنّ) بالفتح والتشديد تأتي فعلاً ماضياً وحرف توكيد وبمعنى لَعَلّ واسماً وأداة حصر .

٣ ــ (لو) للشرط وللتقليل وللمصدر وللعرض وللتمني .

٤ ــ (إمّا) للتفصيل ويقال له : التقسيم أيضاً، وللتخيير وللشك وللإباحة وللإبهام .

٥ ــ (متى) تأتي بمعنى « هل » في الاستفهام وبمعنى «إنْ» في الشرط وللتوبيخ وموصولة بما وبمعنى «منْ» على لغة هذيل .

(٥٠) يذكر الآثاري الحروف التي جاءت على ستة أوجه وهي أربعة :

١ ــ (هل) تكون للاستفهام وللنفي وبمعنى « قد » وبمعنى الأمر وبمعنى «إن» وبمعنى التمني .

٢ ــ (حتى) تكون حرف ابتداء وناصبة بمعنى « كي » وجارّة بمعنى « إلى » وعاطفة بمعنى « الواو » وبمعنى « إلا » وبمعنى « إلى أن » .

٣ ــ (لعل) : للترجي وللتعليل وللشك وللجرّ وبمعنى كأنّ وبمعنى «هل» .

٤ ــ (أم) : تكون منقطعة ومتصلة وزائدة وحرف تعريف بمعنى « ال » وبمعنى «همزة الاستفهام» .

(٥١) ما جاء على سبعة أوجه ، أربعة أحرف وهي :

١ ــ (الكاف) تأتي أصلية وزائدة وللتشبيه والاستعلاء والتعليل والتوكيد وتكون اسماً .

٢ ــ (قد) للتحقيق وللتقريب وللتوقع وللتكثير وبمعنى «حسب» وبمعنى «يكفي» .

٣ ــ (إلّا) بمعنى «غير» وزائدة بمعنى «الواو» وحرف إخراج وبمعنى «لكن» وبمعنى «إما» وحرف تحقيق وإيجاب .

٤ ــ (إنْ) تكون بمعنى «إذ» وبمعنى «إمّا» وشرطية ومخففة من الثقيلة وزائدة وبمعنى «لو» ونافية على أربعة أقسام : معلقة بإلا ، وغير معلقة ، وعاملة عمل ليس ، وأن يليها (لَمّا) المشددة (الهداية ١٦٣/٢ بتلخيص) .

(٥٢) ما جاء على ثمانية أوجه حرفان : (ألا) و (أنْ)

ــ (ألا) بالفتح وتخفيف اللام : تأتي للاستفتاح وللتحقيق وللتوبيخ وللتنبيه وللتمني وللعرض وللتحضيض والاستفهام .

ــ (أن) تكون مصدرية ومفسّرة وبمعنى « أي » التفسيرية ومخففة من الثقيلة وزائدة وبمعنى « لا » وبمعنى «لئلا» وبمعنى «إذ» .

(٥٣) ما جاء على تسعة أوجه حرف واحد وهو: (إلى) ويجرّ ما بعده دائماً وتكون : لانتهاء الغاية زمانية أو مكانية ، وبمعنى «مِن» المكسورة ، وبمعنى «مع» وبمعنى «في» وبمعنى «عند» وبمعنى «اللام» وزائدة وبمعنى «الباء» .

(٥٤) ما جاء على عشرة أوجه حرفان وهما : عن وفي :

١ ــ (عن) تأتي للمجاوزة وبمعنى «بعد» وللتعليل وللبدل وللإلصاق بمعنى «الباء» وبمعنى «في» والاستعانة وبمعنى «من» وبمعنى «على» .

٢ ــ (في) تكون بمعنى «مع» وظرف زمان أو مكان وإليهما أشار بقوله : معاً ، وبمعنى «من» وبمعنى «إلى» وللاستعلاء وبمعنى «الباء» وزائدة وللمقايسة وللتعليل .

(٥٥) تأتي النون على أحد عشر وجهاً وهي :

تكون أصلاً ، أي حرفاً أصلياً في بنية الكلمة كما في : نعيم وجنح وبِنٌ ، وللتنوين ، وهي نون منطوقة لا مكتوبة ، وللوقاية وللمثنى ولشبهه وهو ما ألحق به وللجمع ولشبهه وهو ما ألحق به وللإناث وللذكور ، أي حرف من ضمير الجماعة المذكرين في مثل (ونحن عصبة) ، وللتوكيد خفيفة وثقيلة .

ومعلوم أن النونات المذكورة في معظم كتب النحو أربعة فقط هي :

نون التوكيد ، والتنوين ، ونون الإناث ، ونون الوقاية .

(٥٦) تأتي (أو) على اثني عشر وجهاً في الكفاية وهي :

الإضراب ، وكالواو ، وللتقريب وللتقسيم وللتخيير وللإباحة وللشك وللتفريق وللإبهام وبمعنى «إلى أن» وبمعنى «إلّا أن» وبمعنى «إن» الشرطية .

وقد ذكر «ابن مالك» لها سبعة أوجه وهي : التخيير والإباحة والتقسيم والإبهام والشك والإضراب ومعاقبة الواو . وذهب «ابن بابشاذ» إلى أن معانيها أربعة وهي : الشك والتخيير والإباحة ، والإبهام ، وذهب ابن عصفور إلى أن معانيها خمسة : الشك والإبهام والتخيير والإباحة والتفصيل ، والزمخشري ثلاثة : الشك والتخيير والإباحة ، وابن فلاح ستة : التفصيل والإضراب والشك والتخيير والإبهام والإباحة ، وذكر ابن هشام لها في المغني عشرة : الشك والإبهام والتخيير والإباحة والجمع المطلق كالواو والإضراب والتقسيم وبمعنى «إلا» في الاستثناء وبمعنى «إلى» والتقريب .

(٥٧) يذكر الآثاري لعلى ثلاثة عشر وجهاً وهي : المجاوزة والمصاحبة وموافقة للباء وللتعليل وللاستعلاء وزائدة للتعويض ، وزائدة لغير التعويض ، واسم فعل وحرف ، وبمعنى «بل» و«من» و«في» .

ونجد الآثاري قد ذكر الحرف مرتين ، فمن المعلوم أن على حرف جر ومعناه الأصلي الاستعلاء ، وقد يأتي لمعان أخرى كما ذكر فلماذا كرره ثانياً بقوله : حرف ؟

ولقد ذكر ابن عصفور لعلى معنى واحداً وهو الاستعلاء ، والزمخشري الاستعلاء والاسمية ، والجزولي ذكر أنها تكون اسماً وحرفاً كعن ، وابن بابشاذ ذكر الاستعلاء والاسمية والفعلية والحرفية ، وابن هشام ذكر لها تسعة معان : الاستعلاء والمصاحبة والمجاوزة والتعليل والظرفية وموافقة من ، والباء وزائدة للتعويض ولغيره وللإضراب ، وابن مالك ذكر لها ثلاثة في الألفية وهي الاستعلاء والظرفية والمجاوزة .

(٥٨) للياء أربعة عشر وجهاً كما ذكرها الآثاري : أصلية ، زائدة لغير المضارعة ، ضمير المخاطبة ، ضمير المتكلم المذكر ، وللنسب ، وللإضافة وللتصغير وحرف علة ، وحرف إبدال ، وللإنكار في الوقف وللتذكار وتكون زائدة عن إشباع الكسرة ، ياء النصب ، والجر .

وأكثر النحويين ذكر للياء عشرة مواضع : للنسب والتصغير والإضافة وياء الضمير وياء المضارعة ، وياء العلة ، والإبدال والزيادة وعلامة للنصب وللجر .

(٥٩) يذكر الآثاري للهاء خمسة عشر وجهاً هي :

أن تكون زائدة وللتنبيه وللتأنيث وأصلية وللإضمار ونعتاً للمبالغة وللسكت وللتحويل وللنسب وللتصغير وللتعويض وللجمع وللمصدر وللتفريق وهو على أربعة أقسام :

١ ــ للفرق بين الواحد والجمع (كمأ وكمأة) والهاء علامة للجمع .

٢ ــ للفرق بين الواحد والجمع (شجرة وشجر) والهاء علامة للمفرد .

٣ ــ للفرق بين الواحد المذكر ومؤنثه (قائم وقائمة) والهاء علامة للمؤنث .

٤ ــ للفرق بين تذكير العدد وتأنيثه (ثلاثة رجال وثلاث نسوة) والعدد يخالف معدوده تذكيراً وتأنيثاً .

وإلى تلك الفروق الأربعة أشار بقوله : فرّق بتربيع .

وللهاء في غالب كتب النحو خمسة أوجه فقط : ضمير غيبة ، حرف غيبة (إيّاه) ، هاء السكت ، هاء التأنيث ، كما ذكر ذلك المغني أيضاً .

(٦٠) يذكر الآثاري للتاء ستة عشر وجهاً هي :

أن تكون أصلاً ، وزائدة ، وللقسم ، وضمير تكلم أو خطاب مذكراً أو مؤنثاً مفرداً وغيره ، وإلى هذه الضمائر الأربعة أشار بقوله : أو ضمير انقسم ولتأنيث الجمع وللإلحاق بالمؤنث وللتشبيه بالمؤنث كأبيات وأموات وللبدل وللمضارعة وللمطاوعة وصلة للا (لات) ولرُبّ وثم وللتحويل ، ولم يذكر صاحب المغني من هذه التاءات سوى ثلاث : وهي تاء القسم وتاء الضمير في اسم كانت خطاباً للمفرد مذكراً كان أو مؤنثاً أو مع الفعل نحو قمت وتاء علامة المؤنث .

(٦١) يذكر الآثاري لمن سبعة عشر وجهاً هي :

مرادفتها لعن ، وللباء في كونها للتبعيض وللظرفية بمعنى «في» وبمعنى «مُذ» الحرفية وللاستعلاء وللتعليل ولبيان الجنس وللفصل ، وهي الداخلة على ثاني المتضادين ، وللبدل ، ولابتداء الغاية المكانية أو الزمانية والمجرد منهما . ولهذه الثالثة أشار بقوله (ثلاثة) والمزيدة ولها شروط سبعة ذكرها في الهداية بقوله : « وهي في زيادتها على سبعة شروط يجمعها ثلاثة أقسام :

فالقسم الأول : أن تكون مسبوقة بنفي أو نهي أو باستفهام بهل .

والقسم الثاني : أن يكون مجرورها مبتدأ أو فاعلاً أو مفعولاً .

والقسم الثالث : أن تكون نكرة مجردة . ا هـ . الهداية ١٩٧/٢ ب .

ومعلوم أن بعض الكوفيين اشترط لزيادتها تنكير مجرورها فقط ، وأن الأخفش والكسائي وهشاماً أجازوا زيادتها بلا شرط مطلقاً وجعلوا من ذلك قوله تعالى : **﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾** .

ووافقهم على ذلك ابن مالك في التسهيل ، أما ابن هشام فقد قسم زيادتها على قسمين :

تنصيص على العموم ، وتوكيد للعموم ، واشترط لزيادتها فيهما ثلاثة أمور : تقدم نفي أو استفهام بهل أو نهي ، وتنكير مجرورها وكونه فاعلاً أو مفعولاً وفعل أمر من (المين) وهو الكذب في النفع ، ولذلك قيده بقوله : «أن تشتهي» والفعلان (انتهى ، وتشتهي) محذوف ياؤهما ، للبناء والجزم وهنا ذكرا للإشباع وللوزن .

و (الفاء) تأتي للاستئناف وللعطف وللترتيب وللتعقيب وأصلية ومزيدة . وللسبب وللقسم وللتوكيد وللتقدير مع الحذف وأشار إليه بقوله : (فقدر واحذف) وداخلة على جواب الشرط ورابطة لجواب الاستفهام ورابطة لجواب التمني ، ورابطة لجواب الأمر ، وإلى ذلك أشار بقوله : « أو ربط ثمان هن في ...»

ولقد ذكر ابن مالك في الألفية عشرة معان للفاء ، ثلاثة بالمنطوق وسبعة بالمفهوم ، يقول الآثاري :

« أما التي بالمنطوق فهي فاء العطف وفاء جواب الشرط وفاء جواب النفي ، وأما التي بالمفهوم فهي فاء جواب الأمر والنهي والدعاء والعرض والتحضيض والتمني والاستفهام كما قد علمت ، فإنها مفهومة من قوله : «وبعد فا جواب نفي أو طلب» والطلب شامل السبعة المذكورة» ا هـ . (الهداية ٢٠٢/٢ أ) وذكر المغني للفاء ثلاثة أوجه : عاطفة ورابطة للجواب وزائدة .

(٦٢) يذكر الآثاري للواو ثمانية عشر وجهاً هي :

الابتداء وواو الحال وواو الضمير وللعطف وأصلية ومزيدة وحرف علة وللاستئناف وبمعنى «أو» وبمعنى «بل» وبمعنى «مع» وللإطلاق ، وعلامة للرفع ، وتأتي للقسم وللتصغير وواو «ربّ» وللدعاء . وليس في الخلاصة منها سوى تسعة وهي متفرقة في الأبواب وهي :

واو الضمير وواو الحال وواو العطف والواو التي بمعنى «مع» وواو الرفع وواو القسم وواو التصغير وواو رب وواو الجمع . وأما ابن هشام فقد ذكر لها اثني عشر وجهاً وهي : واو العطف وواو كأو في الإباحة والتخيير والواو الزائدة وواو الثانية وواو الضمير وَاوَان يرتفع ما بعدهاما ووَاوَانِ ينتصب ما بعدهما ووَاوَانِ ينجرُّ ما بعدهما وواو تدخل على الجملة الموصوف بها وهي :

واو الضمير وواو الحال وواو رب وواو الجمع ، وأما ابن هشام فقد ذكر لها اثني عشر وجهاً وهي : واو العطف وواو كأو في الإباحة والتخيير والواو الزائدة وواو الثانية ينجرُّ ما بعدهما وواو تدخل على الجملة الموصوف بها وهي واو الحال والواو التي تكون علامة للمذكرين في بعض اللغات تدخل في واو الضمير .

(٦٣) يذكر الآثاري للباء تسعة عشر وجهاً : للإلصاق وللتعدية وللسببية وللاستعانة وللإبانة وللقسم وللتعويض وللبدلية ومرادفة لِمِنْ ومرادفة لمع ومرادفة لإلى ومرادفة لعَنْ ومرادفة لعلى وللظرفية المكانية وللظرفية الزمانية وللتوكيد المعنوي وهي الداخلة على النفس والعين ، والواقعة في القرآن ، وأصلية وزائدة . وأما الزائدة فإنها تأتي على سبعة أحوال : أحدها وثانيها الفاعل في بابي التعجب والتمييز ، وثالثها ورابعها : المفعول بفعل متعد لواحد أو لاثنين ، وسادسها الخبر ، وسابعها الحال المنفي عاملها . فهذه هي مواضع زيادتها ولهذا قال : «وزد مسبعا» .

(٦٤) ذكر الآثاري لكل من (لا) و (ما) عشرين وجهاً :

١ ــ أما (لا) فتأتي للنهي وجواباً للقسم وللجحود والرد وبمعنى لم وبمعنى ليس وللبدل وتوكيد للجحد مع واو النسق وبمعنى لن وبمعنى غير وأصلية وزائدة ونافية ومعترضة وصلة وللتهديد وللالتماس وللدعاء وعاطفة وصلة الحروف المعنوية ، وليس في «الخلاصة» سوى النافية والناهية والعاطفة متفرقة الذكر في الأبواب . وعند « ابن هشام» ثلاثة : نافية ولطلب الترك وزائدة . ثم قسم النافية إلى خمسة أوجه .

٢ ــ أما (ما) فقد ذكر أنها : اسمية استفهامية وموصولة وتامة أي مقدرة بقولك الشيء وهي التي لم يتقدمها اسم تكون هي وعامله صفة له في المعنى ، وخاصة وهي التي يتقدمها ذلك ، نكرة مجردة عن معنى الحرف ، وتكون ناقصة موصوفة مقدرة بشيء وتامة وهي التعجبية وفي باب (نعم) ونكرة متضمنة معنى الحرف وهي الاستفهامية ومعناها أي شيء ، وشرطية زمانية وغير زمانية ، والحرفية فتكون نافية وظرفية مصدرية وغير ظرفية وحجازية وتميمية وزائدة ومؤكدة وكافة عن عمل الرفع والنصب والجر وليس في «الخلاصة» منها سوى الموصولة والنافية والناهية . وفي المغني اسمية وحرفية لكل منهما على ثلاثة أقسام ولكنه جعل في قواعده كلاً منهما على خمسة أقسام .

(٦٥) ذكر الآثاري للهمزة ثلاثين وجهاً :

للقطع وللوصل وهمزة الإضمار ــ وهي التي تقع في أول الضمير المنفصل ــ وهمزة الإخبار ــ وهي التي تكون في أول الماضي مفتوحة أو مضمومة أو مكسورة ــ وهمزة التغيير ــ وهي التي يقال لها همزة الاضطرار ، وهو الذي يكون حقه الوصل فيضطر الشاعر إلى تغييره بالقطع ــ وهمزة التذكير والتأنيث وهمزة الاستبطاء ــ ذكره ابن هشام ــ وهمزة التقرير ، وهمزة الجيئة أو همزة الأتي وتكون مقصودة ، ومنه قوله تعالى ﴿ أتى أمر الله ﴾ وَ (جيء) أمر من (جا) وهمزة الإعطاء وتكون ممدودة ، وللتسوية وللنداء ومغنية عن أي ــ بالفتح والتشديد ، وهي التي يليها أم ــ وهمزة التحقيق والإيجاب وهمزة التهكم وهمزة الأصل ، ويقال همزة السنخ ، وهمزة الزيادة وهمزة التنبيه وهمزة الأمر وهمزة العوض وهمزة التحويل ، والمراد بها ما تحولت ياء في فاعل أو فاعلة ، وهمزة التعريف وهمزة الاستفهام وهمزة الابتداء بعد الوقف وهمزة الإنكار ، وهو على قسمين : إنكار توبيخي ، وإبطالي ، وهمزة التعجب وهو على قسمين : صناعي : وهو ماجاء في صيغة التعجب ، ومعنوي : الاستفهام التعجبي وتأتي فعل أمر من الماضي (وأي) مثل : وفى يفي ف ، ووقى يقي قِ وليس في الخلاصة سوى خمسة أوجه : همزة المضارعة وهمزة التسوية والهمزة المغنية عن أي وهمزة النداء وهمزة الزيادة والخمسة متفوقة في الأبواب . أما ابن هشام فقد ذكر لها وجهين : لنداء القريب وللاستفهام الحقيقي ثم ذكر أن الهمزة قد تخرج عن الاستفهام الحقيقي فترد لثمانية معان : التسوية ، الإنكار الإبطالي ، الإنكار التوبيخي ، التقرير ، التهكم ، الأمر ، التعجب ، الاستبطاء ، ثم قال : وذكر بعضهم معاني أخر لا صحة لها ولكنه قال بعد ذلك : قد تقع الهمزة فعلاً ، وذلك أنهم يقولون (وأي) بمعنى وعد ومضارعة (يَئِي) ... والأمر (إهْ) بحذف اللام للأمر وبالهاء للسكت .

(٦٦) كان الأولى أن يقول : إنّ بالكسر وبالفتح ولا يقيدها بالكسر إلا إن قصد أن ما تفتح فيه وجوباً يمتنع فيها كسر الهمزة ، فكأنه قال : إن بالكسر لها ثلاث حالات : يجب ويمتنع ويجوز فيها الكسر والفتح . بدأ في الأبيات الأربعة الأولى في ذكر مواضع كسرها وجوباً وذلك في ثلاثة عشر وجهاً : في ابتداء الكلام ــ وتقييده بالقول يمنع ما أورده أبو حيّان على قول ابن مالك في الخلاصة : «فاكسر في الابتداء» من ذهاب بعض النحويين إلى جواز الابتداء بأن المفتوحة في أول الكلام فتقول : أن زيداً قائم عندي . وفي ابتداء الصفة ، وفي ابتداء الحال وفي ابتداء صلة الاسم ، وفي خبر عن اسم عين وفي جواب قسم مقرون باللام وفي جواب قسم بغير اللام ، وبعد فعل قلبي وبعد اسم علق باللام ومحكيّة بالقول وبعد إذ وبعد حيث وبعد ألا ، وقوله : «فكم فقيه بعد هنّ قد لحن » إشارة إلى إنكار النحاة على الفقهاء في فتحهم الهمزة بعد هذه الكلمات الثلاث الأخيرة [إذ ، حيث ، ألا) وهي واجبة الكسر ، قال بهذا الإنكار جماعة من النحويين ومنهم ابن هشام في الشذور حيث قال : «وقد أولع الفقهاء وغيرهم بفتح أن بعد «حيث» وهو لحن فاحش ، فإنها لا تضاف إلى الجملة ، و«أن» المفتوحة ومعمولاتها في تأويل المفرد» (الشذور ٢٠٥) وللشيخ محيي الدين ــ رحمه الله ــ في هامش الصفحة تخريج لطيف لفتح (أن) بعد (حيث) .

(٦٧) أما الفتح فقد ذكر له الآثاري ثلاثة عشر وجهاً هي : بعد فعل قلبي أو معطوفة ، وبعد لولا وبعد لو وقبل اسم جامد مخبر عنه وحيثما يسدّ عنها المصدر فاعلة أو مفعولة أو مجرورة بحرف أو مجرورة باسم ، وبعد (ما) التوقيتية ، أو كانت مبتدأ مؤخراً عن العمل أو خبراً عن اسم معنى أو بدلاً .

(٦٨) أما ما يجوز فيه الوجهان : الكسر والفتح فقد ذكر له ثلاثة عشر وجهاً ــ أيضاً ــ وهي : بعد إذ وبعد فعل قسم لالام بعده وبعد الفاء وأن تقع خبراً عن قول ويخبر عنها بقول والعامل واحد، وبعد مفرد صالح للعطف عليه وبعد حتى وفي موضع التعليل وبعد مذ وبعد منذ وبعد أما ــ الفتح والتخفيف ــ وبعد لا جرم وبعد أمّا ــ بالفتح والتشديد ــ إذا جاء بعدها ظرف أو جاء بعدها حرف . وذكر ابن هشام لكل من الأحوال الثلاثة تسعة أوجه وليس في «الخلاصة» سوى أحد عشر وجهاً : ستة للواجبة الكسر ووجه واحد للواجبة الفتح وأربعة لجواز الأمرين . واعترض أبو حيان على ابن مالك في قصره الفتح على موضع واحد ، وذكر له أربعة مواضع : بعد (ما) التوقيتية وبعد ظننت وأخواتها وأن يكون خبرها جامداً وبعد لو ، فهذه المواضع لا يسدّ المصدر مسدها ومع ذلك تفتح همزتها ، ولذلك جاء الاعتراض عليه في قوله :

وهمز إنّ افتـــــح لسدّ مصدر مسدّهـــا وفي سوى ذلك اكسر

ويجوّز الآثاري أن يقال : ظننت قيام زيد وعلمت جلوس عمر .

(٦٩) ما جاء على أربعين وجهاً وهو (الألف) وهي كما ذكرها الآثاري :

ألف الأصل ، ويقال : السنخ ، وهي المعبر عنها عند النحويين باللازمة ، وهي التي تكون في أصل بناء الكلمة ، وقيل : هي الدالة على اعتلال ما هي فيه كألف موسى وعيسى ويحيى وعصا ونحو ذلك ، وألف الفصل ، وهي اللاحقة لواو الجماعة فرقاً بينها وبين فعل الواحد ، وتكون فاصلة بين المضارع المجزوم أو المنصوب إذا أسند لواو الجماعة والمضارع المجرد المسند للواحد ، وألف الزيادة ، وعوض عن التنوين في الوقف وذلك في الاسم المنصوب المنون وعوض عن نون التوكيد الخفيفة في الوقف ــ أيضاً ــ وعوض عن واو ، وعوض عن ياء ، وألف جمع المؤنث علماً ، وألف جمع المؤنث صفة ، وفي جمع التكسير لعاقل ، ولغير عاقل وفي صيغة منتهى الجموع خماسية ، وسداسية وفي اسم الجمع ، فهذه سبعة مواضع أشار إليها بقوله : « بسبع جمعاً » ، وألف التأنيث المقصورة ، وألف التأنيث الممدودة ، وألف الإلحاق المقصورة ، وألف الإلحاق الممدودة ، وألف القصر لمفرد مذكر وألف القصر لجمع ، ولهذا شار بقوله (معاً) ، وألفا الإبهام ، وهما ألف الإشارة وألف الموصول ، وألف النفس وألف المخاطب وألف الغائب وألف التصغير وألف العلة والألف المجهولة الأصل كما في متى وإلى وعلى وحتى وألفات الشعر وهي ستة : ألف التأسيس وألف الوصل وألف الإشباع وألف الإطلاق وألف الردف وألف الخروج ، وألف اللين ، ويقال : ألف المدّ واللين ، وسميت بذلك ، لأن الصوت عند امتداده بها يحصل فيه لين ، وألف الرفع ، وألف النصب ، وألف الوقف .

(٧٠) للام خمسون وجهاً ذكرها الآثاري في الكافية وهي : لام الابتداء ، لام الأصل ويقال لها : لام السنخ ، لام الإقحام ، ومعناه : الزيادة ، لام جواب الاستفهام ، لام جواب القسم ، لام جواب لو ، لام جواب لولا ، لام انتهاء الغاية ، لام التقوية ، لام التمهيد وتسمى اللام المؤذنة ، لأنها داخلة على أداة الشرط للإيذان بأن الجواب مبني على قسم قبلها ، وتسمى أيضاً اللام الموطئة ، لأنها وطأت الجواب للقسم المقدر ، لام الإضافة وتختص هذه اللام بجرّ المضمرات ، لام النقل ــ ذكرها ابن خالويه ــ ، وسميت بذلك لأنها تختص بدخولها على منقول عنه من حالة إلى غيرها ، لام الأمر ، لام التعدية ، لام الملك ، لام التمليك ، لام الاختصاص ، ويقال : التخصيص ، اللام الفارقة ، لام شبه الملك ، لام التعجب ، لام النفي ــ وهي لام الجحود ــ ، لام التعليق ، لام العلة ، لام الصيرورة ، لام الدعاء لام الخبر ، لام التهديد ، لام التبيين ، لام التبليغ ، لام التأكيد ، لام كي ، لام الاستحقاق ، لام المدح ، لام الذم ، لام التعريف لام الإشارة ، لام الموصول ، لام القسم ، ويقال : لام الحلف ــ أيضاً ــ ، وبمعنى الفاء ، وبمعنى بعد ، وظرفية بمعنى «في» ، وبمعنى «عند» وبمعنى «من» ، وبمعنى «إلى» ، وبمعنى «مع» ، أي للمعيّة أو المصاحبة ، وبمعنى «أن» ــ بالفتح والتخفيف ــ وبمعنى «عن» ، وبمعنى «إلّا» وبمعنى على ؛ أي للاستعلاء . وابن الحاجب جعل للّام خمسة معان وابن مالك جعل لها ستة معان والزمخشري جعل لها في المفصل ثمانية معان ، ولقد أوصلها الفيروزابادي إلى ثلاثة وثلاثين معنى ونظمها في ستة أبيات على البحر الوافر . انظر الهداية (١٣٦/٢) .

أهم المراجع والمصادر

١ ــ أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو . فتحي عبد الفتاح الدخني .
٢ ــ الأعلام للزركلي . دار العلم للملايين . الطبعة الثانية (مصورة) .
٣ ــ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني . طبعة دار الكتب المصرية .
٤ ــ ألفية ابن معط « الدرة الألفية » . ليبزج ١٩٠٠ م .
٥ ــ إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر العسقلاني ، تحقيق وتعليق حسن حبشي . لجنة إحياء التراث الإسلامي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ١٩٧٢ م .
٦ ــ إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي ، استانبول ١٣٦٤ هـ ــ ١٩٤٥ م .
٧ ــ بديعيات الآثاري . تحقيق وتقديم هلال ناجي . سلسلة كتب التراث ــ ٣٠ ــ وزارة الأوقاف ــ بغداد ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .
٨ ــ تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك . تحقيق محمد كامل بركات . المكتبة العربية (التراث) وزارة الثقافة بمصر ــ دار الكتاب العربي ١٩٦٨ م .
٩ ــ شذور الذهب لابن هشام تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
١٠ ــ صبح الأعشى للقلقشندي . مصورة عن المطبعة الأميرية بالقاهرة ، وزارة الثقافة ــ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .
١١ ــ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي . مكتبة القدس . القاهرة .
١٢ ــ لسان العرب لابن منظور . دار صادر بيروت .
١٣ ــ معجم الأدباء لياقوت الحموي . دار المأمون . مصر ١٣٥٥ هـ .
١٤ ــ مغني اللبيب لابن هشام . محمد محيي الدين عبد الحميد . المكتبة التجارية الكبرى .
١٥ ــ المقدمة المحسبة مع شرحها لابن بابشاذ تحقيق خالد عبد الكريم . المطبعة العصرية . الكويت . الطبعة الأولى .
١٦ ــ موسيقى الشعر . إبراهيم أنيس . الطبعة الرابعة . مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٢ م .
١٧ ــ المورد « مجلة » تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام بالعراق . المجلد التاسع العدد الرابع .
١٨ ــ نزهة الألبا في طبقات الأدبا لابن الأنباري تحقيق السامرائي ــ مطبعة المنار بالأردن .
١٩ ــ الهداية في شرح الكفاية « مخطوط » بدار الكتب المصرية ٣٥٨٦ .
٢٠ ــ هدية العارفين لإسماعيل باشا البغدادي . استانبول ١٩٥١ م .

● ● ●

الحصان العربي

من بداياته حتى أيامنا هذه

لفيليب دو باربيو

سليمان قطاية

باريس

Le Cheval Arabe (des Origines à nos Jours) de Philippe Barbie de preaudeau Editions Jaguar - Paris 1987 220 pages - Grand formal - Nombreuses illustrations en couleurs. Edition de luxe -

مؤلف الكتاب مهندس زراعي ، درس في المعهد الوطني الزراعي بباريس ، ولد عام ١٩٢١ وكرس حياته كلها (وهو الآن متقاعد) في العمل في إدارة ومراقبة المرابط الوطنية الحكومية الفرنسية . وتخصص في تربية الحصان العربي ، والعربي الإنجليزي ، حتى أصبح حكماً دولياً فيهما ، وبشكل خاص في العربي .

وكتابه عبارة عن خلاصة وعصارة محبته وعشقه وعلمه بالحصان العربي . والكتاب نفيس شكلاً وموضوعاً .

وقد اعتدتُ أن أخاف من الكتب الأنيقة الفاخرة الطبع ، الكثيرة اللوحات والألوان . لأن مضمونها عموماً ضحل . إلا أن كتاب باربيه ، جاء شاملاً ، فجمع الجمال وجودة النصّ .

وباستطاعة المرء أن يقضي بصحبته ساعات طوال ملؤها اللذة والفائدة ، فكأنما جمع ما قاله أبو الطيب :

أعزّ مكان في الدنى سرج سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

والكتاب مقسم إلى أربعة فصول كبار :

الأول : مغامرة البدايات والأصول .

والثاني : الحصان في الإسلام .

والثالث : الحصان الشرقي في القرن التاسع عشر .

والرابع : الحصان العربي اليوم .

ويتوج المؤلف كتابه بكلمة العالم الفرنسي الشهير بوفون Buffon التالية : « كانت الخيول العربية ولا تزال دائماً أولى خيول العالم ، لجمالها ولطيب أصلها ، ومنها تؤخذ مباشرة أو بطريق غير مباشر ، أجمل خيول أوروبا » .

وبعد لوحة مائية رائعة للفنان الفرنسي جوستاف مورو Gustave Moreau تمثل الشاعر العربي راكباً صهوة جواد أدهم أصيل ، وهو ممسك بقيثارته يستمع ، والكل غارق في جوّ رومانسي روحي رائع . وهي لوحة غير معروفة ، ولا عجب ، لأنها ملك هاو خاص .

في الصفحة المقابلة يقص علينا المؤلف قصة عشقه للحصان العربي . فيبدؤها بقوله : « الحصان العربي ... لهاتين الكلمتين رنّة الأساطير . لأنه حصان ، ولأنه عربي : يكفي أن نذكر اسمه حتى تتفتح أمام أعيننا مناظر واسعة شاسعة ، ولكي تسقط أمامنا مناظر الصحراء ، والسهوب ، والملاحم . فالأسطورة هنا تلتحم مع التاريخ لتجعل منه حيوان الحلم . مع أنه حصان حقيقي واقعي ، ساهم في تشكيل معظم أنواع الخيول المعروفة اليوم في العالم ، ولا مثيل لحيويته إلا تلك الحماسة التي يبعثها في النفس ... تغنّى به الشعراء ، صوّره الفنانون ، كذلك المؤرخون ، فقد تابعوه واقتفوا آثاره ؛ ولا يوجد في الدنيا حيوان ساهم مثله ، في إحدى كبريات المغامرات الروحية التي عرفتها الإنسانية ....

وانطلق الدين الإسلامي من رمال الجزيرة العربية إلى جبال ووديان إسبانيا ، بل إنه انطلق أيضاً في سهول فرنسا . لقد انتهت مرحلة الفتح العربي ، ولكن بطلها ، أخو الإنسان ، في أخطار الحروب ، ظل في فنون السلم » .

وإذا راجعنا معظم الكتب والدراسات الفرنسية المكرّسة لأصل الحصان العربي ، وجدناها ، لغايات شتّى ، تارةً تدعي أنه جاء من الصين (كذا) ، وأخرى من فارس ، وأخيرة من فلسطين عندما كان لسليمان وداود دولة .

إلا أن صاحب كتابنا هذا ضرب كل هذه النظريات العلمية

(كذا) عرض الحائط فيقول : « من أين جاء ؟ ثمة بعض السرّ في الأمر . إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن شخصيته المتفردة قد صنعت في تلك البيئة الصحراوية القاسية ، وعبر مِحَن الحياة البدوية ، وتحت مناخ بدون رحمة ، ولكن هذا لا يفتح لنا باب غرفة أسرار مصدره وأصله . نقول ، حسب علمنا وإدراكنا ، إن المفتاح موجود في ناحية العراق الحالي ، أو بلاد ما بين النهرين قديماً ، أرض « ما بين النهرين » الدجلة والفرات ، وعندما لم يكن الحصان بعد عربياً ، هناك انطلقت أسطورته ...» .

وبعد أن يستعرض باختصار موجز سريع غزو الحصان العربي للعالم ، ينهي مقدمته بقوله : « ... كان قديماً رفيق النضال ، وأصبح الآن صديق السلام ، ولكن لا زال يملأ دوماً أحلام البشر ، ويغذيها . ولا طموح لكتابي هذا ، عبر التاريخ والفن ، إلا أن يكون تحيةً وتقديراً له »

والفصل الأول استعراض تاريخي لأوائل الخيول ، قبل التاريخية ، ثم لما كانت عليه في الحضارات الأولى المتوسطية : فرعونية وآشورية وبابلية ويونانية وفينيقية ورومانية .

ثم يعود ، اعتباراً من الصفحة ١٩ ، ليؤكد أن « الهلال الخصيب » هو الموطن الأول للحصان العربي . فحول أنطاكية ، وفي سوريا ، وما بين النهرين ... من هنا « من هذا المستودع والمخزن استقى بدو شبه الجزيرة العربية خيولهم ، إذ كانوا رعاة وركاب جمال فقط قبلاً ... ولكن متى حصل ذلك ؟ لا أحد يعلم ... ظهر البدو ، على ما يبدو ، في البداية في شبه الجزيرة العربية ، ثم في الأردن وفي سوريا ... وهكذا ، وعلى ما يقوله هيرودوت ، وعندما قام كزيريس Xerès بالهجوم على اليونان عام ٤٨٠ قبل الميلاد ، كان في جيشه عرب ، ولكنهم كانوا يركبون الجمال ؛ ومن بين منتجات الجزيرة العربية التي سردها لا نجد ذكراً للخيل . كذلك فعل تيت ليف الذي وصف معركة ماغنيزي Magunèsie حيث أنكر أنطاكيوس ، ملك سوريا ، أمام سيبيون Scipion عام ١٨٩ قبل الميلاد ، فهو لا يذكر ، ضمن الجيوش المقهورة إلا أعراباً جمّالين . وأوضح من ذلك أيضاً ، ما وصفه سترابون Strabon قرناً ونصف القرن بعد ذلك ، حينما ذهب صديقه ائيليوس غالوس Aelius gallus حاكم مصر ، عام ٢٥ قبل الميلاد للفتح جنوب الجزيرة . وهكذا يصف ذلك الجغرافي مركز الجزيرة كبلاد قاحلة ، يعيش فيها رعاة غنم ومربو جمال . وفشلت الحملة أمام مأرب ، على الرغم من أن الجيش كان مؤلفاً من عشرة آلاف مقاتل . ويقول أيضاً : على أن في جنوب الجزيرة عدداً كبيراً من الحيوانات ، ولكن ليس من بينها خيول ولا بغال . ولا وجود لبعض الخيول إلا في الشمال الغربي من شبه الجزيرة ، لدى عرب البطراء من النبطيين » .

وفي الفقرة التالية وعنوانها « في الصحراء العربية » نجده يقول محدداً بدقة ظهور الحصان : « وهكذا إذن ، وفي فجر العصر المسيحي ، لم يكن ثمة أي حصان يجري في صحارى العرب ولا عربي لم يعرف نشوة ركوب الخيل . ولكن بعد قرن تقريباً ، تغيّر كل شيء . فحوالي عام ١٥٠ ، كان يحكم اليمن أمير يُدعى « مذيقة » ، من قبيلة بني أزد ، اغتصب الحكم . وكان سد مأرب الشهير ، في ذلك الوقت ، قد انهار ، وعلى اعتبار أنه كان الدعامة الاقتصادية للبلاد ، فبانهياره انهارت ، مما سبب الهجرة إلى الشمال . عندئذٍ ، وحسب قول أحد الرواة ، نصح مذيقة رجال قبيلته « الذين كانوا يحبون الخيل » بالذهاب إلى بلاد ما بين النهرين حيث توجد فيها خيول ممتازة . إذن : كان الحصان مجهولاً قبل مئة عام ، ولكنه خلال ذلك الوقت ، نزل إلى اليمن . ولكن من أين ؟ لا أحد يعلم . ربما كان من بلاد ما بين النهرين ، أو من بلاد العرب النبطيين . ومهما يكن ، فقد ذهب الأزديون بقيادة مالك ، أحد أمرائهم ، ليستوطنوا منطقة الحيرة الغنية ، جنوب منطقة الفرات الوسطى ، غير بعيد من المكان الذي ستؤسس فيه فيما بعد الكوفة ، وهناك أسسوا دولةً دامت حتى القرن السادس » .

ثم يستعرض المؤلف معظم الروايات ليناقشها ثم يدحضها ، خاصةً تلك التي يستند عليها الصهاينة ليؤكدوا على أن مصدر الحصان العربي هو فلسطين أثناء حكم سليمان . ويعتمدون بذلك عل الرواية القائلة بأن قبيلة بني أزد أرسلت حرساً من شبابها لمرافقة وحماية ملكة سبأ (بلقيس) عندما ذهبت إلى سليمان . وهناك ولكي يُسهّل عودتهم أهداهم الملك سليمان حصاناً لتسهيل الصيد في الصحراء . وهكذا وبفضله استطاع شباب بني أزد العودة ، فأسموا الحصان « زاد الراكب » . وعندما ذاع صيته ذهب بنو تغلب بأفراسهم لينزوها الحصان ذاك ، وهكذا ولد أبو كل خيول العرب !!!! ؟ ولكن سليمان عاش ألف عام قبل هذا التاريخ !؟

وبسبب تحرك العرب الدائم شمالاً (حتى أذربيجان) وجنوباً ، كانوا يمرون بمملكة الحيرة ، ويتعرفون على خيولها ويأخذون منها .

ثم يتعرض إلى الحصان عند البدو والعرب قبل الإسلام ويضع متقطفات من معلقة عنترة ، وامرىء القيس ، وعمرو بن كلثوم .. باختصار نسبي .

ويبدأ الفصل المكرس « للحصان في الإسلام » برسم جميل

لبدوي منطلق على حصانه ، وبعض المنمنمات الإسلامية المأخوذة عن مخطوطة « تاريخ العالم » لرشيد الدين التبريزي . وهنا يستعرض سيرة الرسول ﷺ ، ويعطي المؤلف للرسول الكريم أهمية عظمى في تطوير الحصان وتنميته والاهتمام به على الرغم من أنه ، على حد قوله ، كان ربيب المدينة ، وليس ربيب الصحراء مع البدو . ويمتدح الرسول الذي نسبت إليه قصة الخيول الخمسة المعروفة ، مصدر ومنبع كل الخيول العربية الأصيلة .

والمؤلف يصادق على تصنيف كارل رشوان Carl Raswan ، الذي يميز ثلاث سلالات فقط :

الأولى : الكحيلان التي تتميز بطابعها الفحولي الذكري ، بسبب قوة بنيتها .

والثانية : الصقلاوي وهي أنثوية البنية ، مع مقدرة تحمل شديدة .

والثالثة : المونيقى ذات البنية الزاويّة والقدرة الشديدة على الجري . وحالياً فإن كلمة كحيل « تعني الحصان العربي الأصيل » .

وبسبب اهتمام العرب الشديد بخيولهم ظهرت في لغتهم ، على ما يقول مؤلف الكتاب ، ثروة هائلة من الشعر والمصطلحات المكرسة لها .

ويستمر المؤلف في البحث هنا وهناك عن كل ما له صلة بين العالم العربي والغرب من خلال ما ذكره المؤرخون ، والرسوم والتماثيل .

ولكن لا يلبث أن يؤكد بأن « التاريخ الخَيْليّ يجري ، على الرغم من كل شيء ، في الشرق الأوسط ، إلى جانب التاريخ العام ... والواقع أنه كان بمنطقة الهلال الخصيب منذ فجر الإنسانية ملتقى طرق شعوب العالم قاطبةً ... والخيول أيضاً ، لأن البشر منذ القديم استعملوا الخيل من أجل الفتوحات . وهكذا اجتمعت في هذ المنطقة ثلاثة تيارات حضارية قوية بثلاث عائلات خيلية ، تتلاقح وتختلط على ضفاف المتوسط الشرقية ، وهي : العائلة العربية ، والتركية السلجوقية ، والمسيحية الغربية التي انطلقت في مغامرة الحروب الصليبية » .

وهكذا قام هنري الأول ملك انجلترا بالحصول على حصانين عربيين قدمهما له ملك إيرلندا إسكندر الأول .

وحين عودته أخذ ريشارد قلب الأسد من قبرص بعض الخيول العربية ، كذلك فعل بعض الفرسان الصليبيين . وانتشرت « موضة » امتطاء الخيول العربية . وبما أن بلاد الهلال الخصيب كانت بعيدة ، فقد كان الملوك والأمراء يشترونها من إسبانيا . وهكذا فعل غليوم الفاتح الذي هاجم انجلترا وكسب معركة هاستنج الشهيرة التي نصّبت على عرش انجلترا أول ملك من أصل فرنسي ، كان غليوم أثناء المعركة على صهوة حصان عربي .

وينتقل المؤلف بعد ذلك إلى الحديث عن الحصان العربي في الغرب .

وكان من تأثير الحروب الصليبية أن الغربيين أدركوا أن السرعة والحركة تتمتعان بأهمية قصوى في استراتيجيته العسكرية ، وأن الدروع الحديدية والخيول الثقيلة غير مجدية .

لذلك ، وتقليداً للعرب ، بدؤوا بتخفيف أسلحتهم ودروعهم والاعتماد على الخيول السريعة .

وكان الإنجليز من الذين اهتموا كثيراً بالموضوع . وهكذا فعل جان (بدون أرض) أخو ريشارد قلب الأسد الذي تسلم الحكم خلال غيابه ، فأحضر من إسبانيا خمسين حصاناً ... ولعل هذا هو أحد الأسباب التي دعت إنجلترا إلى كسر الجيش الفرنسي عام ١٣٤٦ في معركة كريسي Crecy ثم عام ١٤١٥ في معركة آزانكور Azincourt وعندما اخترعت المدافع لم يعد الحصان الثقيل مستعملاً قطعاً لأنه ، بسبب ثقله وبطء حركته ، أصبح هدفاً سهل المنال للمدفعية .

أما في الشرق فلقد انتبه المماليك إلى كونهم يشكلون سلاحاً لا يقهر ، وأن الخلفاء بدونهم لا حول لهم ولا قوة ، لذا تسلموا الحكم بدلاً عنهم بانقلابات متكررة وكثيرة . ولهذا ظهرت دولة المماليك البحرية ثم البرجية في مصر . منهم الملك الظاهر بيبرس الذي كسر المغول في معركة عين جالوت الذي أنشأ في القاهرة « ميدان القبق » الذي كانت تجري فيه سباقات خيل ومسابقات بين الفرسان .

ويكرس المؤلف عدة صفحات للملك الناصر قلاوون ، ولما فعله بالنسبة للخيل والفروسية .

والواقع أن هذا الملك شهير جداً في الغرب وخاصةً في فرنسا . وذلك أنه عندما أسس كلوت بك A. Clot Bey مدرسة أبي زعبل الشهيرة لتدريس الطب ، أيام محمد علي الكبير ، استدعى هذا الطبيب بيرون PERON لكي يساهم في التدريس ، فظل هذا في مصر قرابة سبع عشرة سنة ونيفاً . فدرس اللغة العربية الفصحى والعامية ، واهتم بالفروسية ، فترجم كتاب « الصناعتين » واسم الكتاب الحقيقي « كتاب الويل ، في أمراض الخيل » تأليف أبي المنذر البيطار . وكان ناظر آخور الملك الناصر . وأهدى كتابه للملك فسمي الكتاب « بالناصري » Naceri . ووضع بيرون للكتاب مقدمات تقع في جزءين بينما الكتاب يشكل الجزء الثالث .

وطبعه في باريس عام ١٨٥٢ فلاقى إعجاباً هائلاً . وأصبح من الكتب الكلاسيكية في الفروسية . بل إن معلوماته أثرت في تعليم الفروسية في فرنسا بشكل خاص ... ومن المؤسف القول بأن هذا الكتاب لم يطبع حتى الآن بالعربية !!!!

ومن المماليك نصل إلى جنيكز خان وتامير لان ، ثم الأتراك العثمانيين الذين يهاجمون أوروبا ويحتلون قسماً كبيراً منها ، ومعهم ، طبعاً الحصان العربي .

إلا أن كل هذه الأمور كانت فردية وشبه عفوية . ولم يقم الغرب بالاهتمام جدياً بالحصان العربي إلا في القرن السادس عشر ، وتركز الاهتمام به في انجلترا ، وفرنسا ، وإسبانيا .

ففي فرنسا اهتم به هنري الرابع الذي كان لا يركب إلا خيولاً أندلسية . كما اهتم بالحصان البربري فاشترى منه خمسة وثلاثين رأساً من الجزائر .

أما إسبانيا ، فإذا كانت محاكم التفتيش قد قضت على العرب ، إلا أن حصانهم بقي فيها محترماً مبجلاً مرفوع الرأس .

كان الخليفة الحاكم ، في قرطبة ، قد أنشأ اصطبلات ، ومرابط تتسع لألفي حصان عربي وبربري . وعندما جاء الملوك الكاثوليك احتفظوا بالخيول وهجنوها بخيول شمالية ونابولية (تربية مدينة نابولي بإيطاليا ذات الخيول المهجنة بالعربية) فنشأ ما يسمّى بالخيول الأندلسية ، التي كانت ولا تزال من أفضل خيول العالم . ومن إسبانيا إلى أميريكا ومنه جاءت خيول الكرييوس Crillos والباسوس Pasos والبنتو Pinto والأبالوزا Apaloosa والبالومينو Palomino .

وتحت حكم هنري الثامن في إنجلترا أدخلت خيول بربرية ومهجنة كثيرة . وأنشئت أولى سباقات الخيل في أوروبا . ولم تكن منظمة كما كانت عند العرب ، حتى الجاهليين ، بل عبر القرى والحقول وهو ما يفسّر المصطلح الإنجليزي Cross-Country .

إلا أن البداية الحقيقية كانت مع الملك جاك الأول ، الذي تلاه ، فبدأت المسابقات والسباقات الوطنية المنظمة . وهو الذي أرسل فاشترى خيولاً عربية من الآستانة . واستمر الملوك في استيراد الخيول العربية إلى إنجلترا ، وخاصة غليوم أورانج Guillome d' Orange (١٦٨٩ — ١٧٠٢) الذي أنشأ أول سجل أنساب للخيل . وخلال حكمه وحكم الملكة آن Anne استوردت إنجلترا الخيول الثلاثة الشهيرة : دارلي آرابيان ، الذي ولد في نجد وربيّ في تدمر ، واشتراه قنصل انجلترا في حلب ، وبيرلي تورك ، وأخيراً دولوفين آرابيان الذي اشتراه انجليزي من باريس !

ولهذا الأخير قصة جديرة بالرواية :

لاسترضاء ملك فرنسا لويس الخامس عشر ، أهدى باي تونس ، حصاناً مهجناً عربي — بربري . وكان جواداً رائعاً ، لكنه لم يكن جميلاً ، فقد كانت أذناه خذواتين ، وعنقه غليظاً جسيماً . فلم يعجب به الملك ، خاصة وأنه لم يكن عارفاً بالخيل ، فأمر به فبيع . وبينما كان الإنجليزي كوك Cook يتجول في شوارع باريس رأى الحصان هذا مشدوداً على عربة لنقل الماء . فاشتراه وأخذه إلى انجلترا وباعه إلى تاجر ، باعه هو أيضاً إلى اللورد دولوفين Dolophin الذي أعجب به ، فوضعه في مرابطه في جوج ماجوج Gog Magog قرب كامبريدج . وراح يستعمله كمحرِّض للأفراس إي كمهيج جنسي لها قبل أن ينزوها فحل معروف . وذات يوم اغتاظ الحصان خاصة وأنه كان عليه أن يحرِّض فرساً جميلة تدعى روكسانا ، فانقض على الفحل المهيأ لها فقتله ونزى على روكسانا ، فجاء منهما أنثى تدعى لات Lath . وإذا بها تصبح من أفضل الخيول التي عرفتها انجلترا ! وجاء منها أيضاً كاد Kad وريجولوس Rigolus . واشتهر باسم دلوفين — آرابيان . Dolophin Arabian واحتُفِظ بسلالته حتى اليوم .

ومن تلاقح سلالته وسلالة دارلي آرابيان جاء الحصان خسوف Eclipse الذي لم تَرَ انجلترا وأوروبا مثيلاً له حتى اليوم . فلم يخسر سباقاً قط ، لدرجة أن كل أصحاب الخيول رفضوا المساهمة بسباق يدخل فيه خسوف . فاضطر صاحبه الضابط أوكلي O'kelly أن يحتفظ به للنزو فقط .

ومنذ ذلك الحين احتفظ الإنجليز بهذه السلالات وأطلقوا على نتاجها اسم الإنجليزي الصافي الدم .

ولم تنتبه فرنسا إلى أهمية الأمر إلا عام ١٧٧٨ عندما أرسل الملك بعثةً إلى حلب في سوريا بقيادة جيرش Sir Guirch ، ناظر آخور الملك في فرسايل ، فاشترى ٢٤ فحلاً عربياً . وخُصِّص قصر بومبادور Pompadour في جنوب فرنسا لتربية الخيول العربية ، ولا يزال حتى يومنا هذا . وكان من أشهر هذه الفحول : « درويش » .

ومنذ ذلك الحين توزعت مراكز تربية الخيول العربية في أوروبا . منها مثلاً :

قرية صغيرة في يوغوسلافيا ، قرب مدينة تريست ، تدعى ليبيزا Lippiza استوردت خيول من إسبانيا لتحسين الخيول المحلية ، فنتج عن ذلك الحصان المسمى ليبيزان Lippizan ثم هجنت بدم عربي ، وكان بلاط فيينا يأخذ منها للركوب ، ولتغذية مدرسة الفروسية

فيها ، التي تسمى حتى يومنا هذا ، وبسبب ذلك ، « المدرسة الإسبانية في فيينا » ولا تزال قائمة .

في ألمانيا : اهتمت بالأمر مدينة فورتمبرغ Wurtemburg اعتباراً من عام ١٥٥٢ .

وفي يومنا هذا اختص بالموضوع مركز مارباخ Marbach .

في هنغاريا : ومنذ عام ١٧٨٥ أنشىء مركز ميزوهيجي Merzohegyes ، ومركز آخر في بابولنا Bablona ، وهي مراكز رفيعة من ناحية جودة الإنتاج .

في بولونيا : بسبب حروبها مع الأتراك ، اهتم المسؤولون فيها بالحصان العربي فانشأوا مركزاً لتربيتها في كريزينا Kryzyna .

في روسيا : بسبب هجوم التتر ، فأسس الكونت أورلوف شيمينسكي Orlof Shiminsky مربطاً قرب موسكو عام ١٧٧٨ .

وينهي المؤلف هذا الفصل بقوله : « وهكذا ، وحتى في آخر بقاع الأرض ، وبعد أن كان الحصان العربي وسيلة نشر الإيمان بالحرب ، واصل مهمته بأن يكون رسول حضارة » .

وبعد عشرات اللوحات الجميلة الملونة المأخوذة من الأعمال الفنية الرائعة للشرق والغرب ، نصل إلى فصل « الحصان العربي في القرن التاسع عشر » حيث تحتل فرنسا المكانة الأولى في الاهتمام بالحصان العربي ، بالنسبة لأوروبا . وذلك بسبب حروبها الاستعمارية في شمال إفريقيا التي جعلت الفرنسيين يهتمون بالخيول العربية والبربرية .

وفي بداية القرن هذا أُرسل الجنرال أوجين دوما Eugène Daumas إلى الجزائر فوصلها Saumr عام ١٨٣٥ (وهو من مواليد ١٨٠٣) بعد أن درس في مدرسة الفروسية في سومور فدرس الخيول العربية دراسة مستفيضة وضعها في كتاب اسمه « خيول الصحراء » Les Cheveaux du Desert .

صدر في باريس ، فلاق نجاحاً هائلاً ، فطبعه طبعةً ثانيةً مهمة جداً ، وذلك لأنه أثناء ذلك ، وقع الأمير عبد القادر الجزائري أسيراً ، فقيد إلى قصر امبواز Amboise فأرسل دوما كتابه إليه فكان يُقرأ له مترجماً فيعطي ملاحظاته التي تترجم وتسجل بعد كل فصل ، فصدر الكتاب في هذه الطبعة عام ١٨٥٢ ، ثم أعيد طبعه بالأوفست منذ أعوام قليلة (١٩٨٦) فلاق النجاح نفسه . وربما تعرضتُ له بالنقد في مقال قادم إن شاء الله . والشيء الذي ساعد ونشر الفروسية العربية في فرنسا اهتمام نابليون ، والفنان دولاركوبه الذي ذهب إلى المغرب عام ١٨٣٢ فدهش لشجاعة العربي ومهارة الحصان ، فرسم لوحات كثيرة ، كذلك فعل العديد من الفنانين الأوروبيين الذين يطلق عليهم عادة اسم : « المستشرقين Orientalistes » .

أما نابليون بونابرت ، فعندما ذهب إلى مصر ، اكتشف الحصان العربي فعشقه ولم يعد يركب سواه . وكان آخر حصان عربي « وزير Vezir » الذي ذهب به إلى موسكو ثم عاد إلى باريس ، وهو الذي كان يمتطيه في آخر معاركه « واترلو Waterloo » وجثة الحصان محنطة ومحفوظة ضمن قفص زجاجي في المتحف الحربي في الأنفاليد في باريس .

ويعود الفضل إليه في دفع الفرنسيين للاهتمام بالحصان العربي وهو القائل : « إن الحصان العربي أفضل بألف مرة من الإنجليزي » والذي قال بأنه لولا الأسلحة النارية (البارودة ، والمدافع) لخسرنا معركة الأهرامات أمام « أفضل فرسان العالم قاطبة » . وكان نابليون يصطحب معه الفنان كارل فيرنيه Carl Vernet ، الذي صوّر كل معاركه تقريباً . فأحب هذا الحصان العربي فرسمه . وهكذا فكل الخيول التي تُرى ونابليون أو جنرالاته ممتطيها في اللوحات ، كلها عربية ، كذلك فعل من بعده كل الفنانين الفرنسيين أمثال : دافيد ، وجيروديه ، وغيرهما .

وفي عام ١٨٠٦ ، أمر بالاهتمام بمرابط بومبادور المكرسة للعربي ، وزاره شخصياً وقال للحاضرين : « ... إن الحصان العربي أفضل حصان في العالم ، لأن ما يمنح الأهمية الكبرى للحصان أثناء المعارك ليست السرعة فحسب بل المرونة ، والمهارة ، والذكاء ، والطاعة ، وهي كلها الصفات البارزة للعربي ..» .

كل هذه المواضيع محلّاة برسوم مأخوذة عن أجمل ما صنعه الفنانون من لوحات أغلبها مجهول من قبل الجمهور الواسع .

ولا بد من الإشارة إلى ما يذكره المؤلف بالنسبة لمصر . فقد كان اهتمام محمد علي الكبير وولده إبراهيم بالحصان كبيراً جداً ، وتلاه في ذلك الخديوي عباس الذي كان يعشق الخيل ، فكان يرسل رسلاً إلى شيوخ البدو ويجزل لهم العطاء ، وهكذا فقد دفع مبلغ سبعة آلاف جنيه ذهبي ثمناً للفرس « جلابية » ، وأحد عشر ألفاً لفرس صقلاوية . وأنشأ مربطاً في الدار البيضاء بين القاهرة والسويس ، وضع فيه خيرة الخيول العربية ، ولكن وبكل أسف عندما مات عام ١٨٥٤ وتولى الحكم بعده سعيد باشا ، بيعت خيوله بالمزاد العلني ، وأهملت المرابط ، إلا أن أجمل تلك الخيول بقيت في حوزة علي شريف باشا الذي اشتراها وعكف ، بمساعدة الليدي بلونت lady Blunt على تربيتها في مربط الشيخ عبيد . وبعد وفاة الباشا عام ١٨٩٧ تولت الليدي الأمر بنفسها .

أما في الولايات المتحدة الأمريكية فلم يدخلها العربي النقي الدم إلا عام ١٨٦٩ عندما أهدى السلطان عبد الحميد العثماني حصانين إلى الجنرال جرانت Grant الشهير . ثم استورد عدداً من الفحول من بريطانيا ومن الشرق . ولكن اعتباراً من تاريخ إقامة المعرض العالمي في شيكاغو عام ١٨٩٣ تعرف الجمهور على الحصان العربي ، بعد عرض وبهلوانيات قام بها فرسان أتراك ، عندئذٍ قرر الأمريكيون تربية العربي ونجحوا فيها أي نجاح .

ويلي الفصل هذا لوحات رائعة من خيرة ما ابتكرته قرائح فناني أوروبا ، بطبع أنيق أخّاذ .

وينتهي الكتاب بفصل عنوانه « الحصان العربي اليوم » .

وفيه نلحظ رنّة أسى : فلم يعد العرب يعيشون في الصحراء ، بل أصبحوا أغنياء ، إذ اقتنوا الحصان « للزينة » ... وفي أوروبا أيضاً ... لذا بدأ هذا الحصان يفقد صفاته الرائعة التي جعلت منه ذلك الكائن العجيب ... تلك « التحفة الكنز » .

ويقول ، عن حق وصدق : « حاول البعض أن يجعل من الحصان العربي حلية ، ولكن الواجب يدعونا أن نرى فيه بطلاً » .

ويقول : لم يبق في الشرق سوى في الإمارات بعض القبائل التي لا تزال تعيش تلك الحياة الصعبة . وليس في البلاد العربية سوى مصر والمغرب ، وربما الأردن ، حيث نجد خيولاً رائعة ممتازة .

أما في أوروبا ، فلا تزال بولونيا وروسيا وهنغاريا محافظة على التقاليد .

إلا أن البلد المهتم فعلاً هو الولايات المتحدة الأمريكية . وبدأت الانطلاقة في عام ١٩٠٨ عندما أسست الجمعية الأمريكية للحصان العربي World Arabian Horse Organization ووضعت سجلاً لأنساب الخيل العربية ، وفي عام ١٩٠٦ أرسل الرئيس روزفلت هومير دافينبورت Homer Davinport فجاء إلى مدينة بوسطن بسبعة وعشرين فحلاً من السعودية ، اعتباراً من عام ١٩٢٧ انطلقت في البلاد سلالتان : بابسون Babson وكيلوج Kellog . الأولى : من مصر (خيول محمد علي) ، ومنها الحصان « جدعان » الذي مثّل في فيلم « ابن الشيخ » الشهير لرودولف فالنتينو . واشتهر الحصان فزاره وتصوّر إلى جانبه أربعون ألف شخص خلال عام ١٩٢٨ فقط !؟

وبسبب قيمة هذا الحصان (أي العربي) أسّست جمعية دولية خاصة به ، لا يتمتع بها حصان آخر . وهي « المنظمة الدولية للحصان العربي » W.A.H.O. التي أقامت ندوات ومهرجانات عالمية : أولها كان في لندن عام ١٩٦٧ م ، والثانية عام ١٩٧٠ فانتخبت لجنة من تسعة أعضاء من كل البلاد المهتمة (ما عدا العربية طبعاً !!) وفي عام ١٩٧٢ ، وفي إشبيلية حددت المنظمة أهدافها وهي :

« تجميع ، ونشر ، والإشراف ، وتسهيل كل المعلومات والأخبار في كل بلاد العالم ، المهتمة مباشرةً أو بطريق غير مباشر ، دون استثناء ، بالحصان العربي ، ومشتقاته » ولم يكن الاتفاق عاماً على الكلمة الأخيرة (مشتقاته) خاصة في فرنسا .

وكان آخر اجتماع عام ١٩٨٦ في المغرب حيث شاهد المجتمعون أعاجيب الفروسية العربية وأجمل الخيول .

وينهي المؤلف كتابه ، بعد سلسلة من الصور والرسوم الخلّابة ، بقوله : « أنهي الكتاب ببضعة أشعار شرقية ، لأنه من كل الأشعار الكثيرة التي كتبها شعراء العالم ، الشرقيون هم وحدهم الأكفاء في صدق التعبير عن الحصان » .

وعلى الرغم من ارتفاع ثمن الكتاب ، إلا أنه جدير بأن يكون في مكتبة كل عربي ، وكل مثقف .... بل من الجدير ترجمته أيضاً .

● ● ●



دائرة معارف السلاطين العثمانيين

لبهادر ياووز

ترجمة وعرض

سهيل صابان

ياووز ، بهادر أوغلو/دائرة معارف السلاطين العثمانيين .ـ استانبول : دار يني آسيا ، ١٩٨٧ م ، ٣ مج : ٨١٥ ص (باللغة التركية) .

يبدأ الكتاب بمقدمة قصيرة يشرح فيها المؤلف مصطلح التاريخ متقبساً آراء بعض المؤرخين فيه ، ثم أهمية علم التاريخ في حياة الشعوب واهتمامها به من حيث التقدم الحضاري والثقافي والاجتماعي والعسكري .

وقد اشتمل الجزء الأول من الكتاب على حياة (عشرة) سلاطين ، وذلك من سنة ١٢٩٩ م ـ إلى سنة ١٥٦٦ م . وهم التالية أسماؤهم :

١ ـ عثمان غازي (١٢٩٩ ـ ١٣٢٦ م) .

٢ ـ أورخان غازي (١٣٢٦ ـ ١٣٥٩ م) .

٣ ـ مراد الأول (١٣٥٩ ـ ١٣٨٩ م) .

٤ ـ يلدرم بايزيد (١٣٨٩ ـ ١٤٠٢ م) .

ويسمى عهد ما بين عام ١٤٠٢ وعام ١٤١٣ م في تاريخ الدولة العثمانية عهد « الفترة » أي الفوضى ، حيث تنازع الأمراء على السلطة ، ثم استقل كل منهم بإمارة صغيرة ليجمعهم في النهاية السلطان :

٥ ـ محمد (شلبي) الأول (١٤١٣ ـ ١٤٢١م) .

ثم يأتي :

٦ ـ مراد الثاني (١٤٢١ ـ ١٤٥١ م) .

٧ ـ السلطان محمد الفاتح (١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) .

٨ ـ بايزيد الثاني (١٤٨١ ـ ١٥١٢ م) .

٩ ـ ياووز سلطان سليم (الأول) (١٥١٢ ـ ١٥٢٠ م) .

١٠ ـ سليمان (القانوني) (١٥٢٠ ـ ١٥٦٦ م) .

أما الجزء الثاني ، فقد اشتمل على حياة سبعة عشر سلطاناً من سلاطين آل عثمان ، وذلك من سنة ١٥٦٦ م إلى سنة ١٧٨٩ م . وهم :

١١ ـ سليم الثاني (١٥٦٦ ـ ١٥٧٤ م) .

١٢ ـ مراد الثالث (١٥٧٤ ـ ١٥٩٥ م) .

١٣ ـ محمد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣ م) .

١٤ ـ أحمد الأول (١٦٠٣ ـ ١٦١٧ م) .

١٥ ـ مصطفى الأول (١٦١٧ ـ ١٦١٨ م) (١٦٢٢ ـ ١٦٢٣ م) .

١٦ ـ عثمان الثاني (١٦١٨ ـ ١٦٢٢ م) .

١٧ ـ مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠ م) .

١٨ ـ السلطان إبراهيم (١٦٤٠ ـ ١٦٤٨ م) .

١٩ ـ محمد الرابع (١٦٤٨ ـ ١٦٨٧ م) .

٢٠ ـ سليمان الثاني (١٦٨٧ ـ ١٦٩١ م) .

٢١ ـ أحمد الثاني (١٦٩١ ـ ١٦٩٥ م) .

٢٢ ـ مصطفى الثاني (١٦٩٥ ـ ١٧٠٣ م) .

٢٣ ـ أحمد الثالث (١٧٠٣ ـ ١٧٣٠ م) .

٢٤ ـ محمود الأول (١٧٣٠ ـ ١٧٥٤ م) .

٢٥ ـ عثمان الثالث (١٧٥٤ ـ ١٧٥٧ م) .

٢٦ ـ مصطفى الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٧٤ م) .

٢٧ ـ عبد الحميد الأول (١٧٧٤ ـ ١٧٨٩ م) .

ويشتمل الجزء الثالث على حياة تسعة سلاطين ، رتبت أسماؤهم على النحو التالي :

٢٨ ـ سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧ م) .

٢٩ ـ مصطفى الرابع (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨ م) .

٣٠ ـ محمود الثاني (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩ م) .

٣١ ـ عبد المجيد (١٨٣٩ ـ ١٨٦١ م) .

٣٢ ـ عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦ م) .

٣٣ ـ مراد الخامس (١٨٧٦ م) .

٣٤ ـ عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩ م) .

٣٥ ـ محمد رشاد (الخامس) (١٩٠٩ ـ ١٩١٨ م) .

٣٦ ـ محمد وحيد الدين (١٩١٨ ـ ١٩٢٢ م) .

وينهج المؤلف طريق التسلسل الزمني في عرضه لحياة السلاطين العثمانيين من ميلادهم إلى توليهم السلطة ، فالانتصارات التي حققوها ، والمكائد التي كيدت لهم ، فنزولهم عن العرش .. إلى وفاتهم ، معتمداً في ذلك على المصادر التاريخية الموثوقة ، التركية والعربية والأجنبية التي بلغت أكثر من مائة وثلاثين مرجعاً ، والتي ألفت أكثرها في تاريخ الدولة العثمانية بشكل خاص . مثل :

ــ دستان وتواريخ ملوك عثمان ، المعروف « بإسكندرنامه » لأحمدي (استانبول د . ت) .
ــ جواهر الملوك / علي أميري أفندي (استانبول ١٩١٣ م) .
ــ الرئيس طرغت / علي رضا سيفي (استانبول ١٨٣٩ م) .
ــ الوقائع / بابور (أنقرة ١٩٤٣ م) .
ــ المدارس العثمانية في العصر الخامس والسادس عشر الميلاديين / جاهد بالطاجي (استانبول ، مطبعة عرفان ١٩٧٦ م) .
ــ مذكرات سفير في عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٢ ــ ١٥٩٢ م) ترجمة عثمان يكسل ، أنقرة ١٩٥٣ م .
ــ الخبر الصحيح / محمد مظهر فوزي (استانبول ١٨٧٣ م) .
ــ جامع الدول / أحمد دده أفندي (استانبول ١٨٦٩ م) .
ــ تقويم التواريخ / كاتب جلبي (استانبول ١٧٢٣ م) .

ولا شك أن اطلاع المؤلف على هذا العدد الهائل من الكتب قد أكسبه وفرة معلومات . ويبدو موضوعياً في عرضه لحياة السلاطين ، وهي ميزة لا تتوفر في كثير من الباحثين لما فيهم من نزعات وأفكار يصعب عليهم التخلي عنها ، وبخاصة مثل هذه الموضوعات التاريخية الحساسة .

ويتسم الكتاب بأسلوب شيق سلس يفهم منه العامي فضلاً عن العالم ، ويبدأ بحياة أرطغرل غازي والد السلطان عثمان الذي تنسب إليه الدولة العثمانية والتي امتدت ستة قرون ، يتوارث فيها الحكم ذريته من بعده .. وينتهي بآخر السلاطين العثمانيين وهو السلطان محمد وحيد الدين خان ، السلطان السادس والثلاثين من ذرية آل عثمان .

ويشرح المؤلف كيفية مجيئهم من آسيا الوسطى وإسلامهم واستقرارهم في الأناضول ، مبيناً ذلك برسوم توضيحية وصور للمدن التي كانوا يعيشون فيها ، مع ذكر الإنجازات العمرانية التي أنشؤوها ، ومهتماً بالحروب التي انتصروا فيها وتاريخها ، وعدد فتوحاتهم ، وبيّن نفوذ الدولة وأوضاعها الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية في عهودهم ، والتقدم العسكري الذي أحرزوه ، موضحاً كل ذلك بخرائط كثيرة توضح المناطق الخاضعة للمسلمين .

وفي كل فصل يعقده المؤلف لسلطان من السلاطين يتحدث عن تاريخ ولادته ونشأته وأساتذته وتاريخ توليه السلطة والأحداث التاريخية التي وقعت في عهده ، والصدور العظام الذين كان يعينهم السلطان لتلك المناصب ، ثم وفاته أو إقالته ، مع الإتيان بحوادث وقعت بين السلطان والمواطنين تظهر فيها الحكمة والعظة .

ومن محاسن هذه الموسوعة ، أن المؤلف يحاول إطلاع القراء على جوانب خفية من حياة السلاطين ، ومن ذلك : تحدثه عن كل سلطان وشخصيته والمؤثرين فيه ودوافع الناس الذين حوله ، كما نجد ذلك واضحاً عندما يتحدث عن السلطان محمود الثاني الذي نصب من قبل مصطفى باشا الملقب بالعلمدار . فقد كان الأخير يتصرف في السلطنة كأنه الحاكم المطلق ، نظراً لصِغَر سن السلطان محمود الثاني وقوة نفوذ مصطفى باشا . فكان يُعيِّن الولاة ويقيلهم دون أخذ رأي السلطان . (انظر : ٣/٦٠١ وما بعدها) .

كذلك تحدثه عن السلطان عبد المجيد وموقفه من حركة التنظيمات العثمانية الخيرية المعروفة بـ « كلخانة خطي هما يوني » المصدرة عام ١٨٣٩ م بتحريك من مصطفى رشيد باشا السفير فوق العادة في لندن ، والذي نصب فيما بعد صدراً أعظم ، فقد كان مصطفى رشيد باشا المعروف بأبي الإصلاحات في الدولة العثمانية ، وما زال ، وراء تلك الإصلاحات ، وكان من المعجبين بالغرب وبنظمه ، وممن يذهب إلى أن الدولة العثمانية لو سارت وفق النظم الغربية لتخلصت من محنتها السياسية والاقتصادية ، دون مراعاة لعقيدة الشعب وقيمه وعاداته وتقاليده ، وقد أصبحت تلك الإصلاحات ــ فيما بعد ــ سلاسل وأغلالاً ، طوقت عنق الدولة العثمانية ، وأصبحت الدولة الأجنبية تتدخل في شؤونها أكثر من ذي قبل عن طريق الدفاع عن حقوق الرعايا .. الخ (انظر : ٣/٦٢٥ ومابعدها) .

ومن محاسن هذه الموسوعة أيضاً أن المؤلف يخصص لكل سلطان فصلاً ، ثم يذيله بملحق فيه سرد للحوادث البارزة في عهده ، مؤرخاً لها بالترتيب .

كما يذكر المؤلف محاسن أولئك السلاطين والأعمال الجليلة التي قاموا بها كإنشاء المدارس الإسلامية وتعمير المساجد وغيرها ، إلا أنه لم يغفل عن ذكر المساوىء التي ارتكبها بعضهم ، وحياة الترف والبذخ التي كان يتمتع بها البعض الآخر .

والكتاب مزوّد بخرائط ورسومات وصور ولوحات وخطوط وإيضاحات .. ليزداد به الخبر توضيحاً وتوثيقاً .

أما الفهارس ، فقد عمل المؤلف فهرساً للموضوعات في بداية كل جزء ، وفهرساً للأعلام ، وفهرساً للمراجع التي استفاد منها في الجزء الأخير .

ولا شك أن الكتاب قيم في بابه ويتعرض لجوانب كثيرة ومتعددة من حياة سلاطين الدولة العثمانية ، وهو جدير بأن يقتنى ويترجم إلى لغات أخرى ... عربية وعالمية .

في طريقي إلى الإسلام

لأحمد سوسة

عماد الدين خليل

المتحف الحضاري - الموصل

[١]

باحث مهندس من العراق ، وعضو في المجمع العلمي العراقي ، وواحد من أبرز المختصين بتاريخ الريّ في العراق . كان يهودياً فاعتنق الإسلام متأثراً بالقرآن الكريم ، وتوفي قبل سنوات قلائل ــ رحمه الله ــ مخلّفاً الكثير من الدراسات في مختلف المجالات وخاصة في تاريخ الريّ . وقد فنّد في عدد منها ادّعاءات الصهيونية العالمية من الناحية التاريخية . ومن مؤلفاته الشهيرة (مفصل العرب واليهود في التاريخ) الذي يتضمن بعض المآخذ بسبب عدم تمحيصه الروايات الغربية عن التاريخ اليهودي . وكذلك كتاب (في طريقي إلى الإسلام) الذي تحدّث فيه عن جانب من حياته * .

يطرح سوسة في كتابه هذا مواقفه وتحليلاته واستنتاجاته حول القران الكريم ، عن رسول الله ﷺ ، عن الإسلام وانتشاره وحضارته ، وعن واقع المسلمين ومستقبلهم . إلّا أننا سنقف في هذه الصفحات عند مسألة محددة فحسب ، تلك هي معطياته عن الإسلام وبخاصةٍ رؤيته المقارنة بين هذا الدين والأديان التي سبقته .

[٢]

يقارن سوسه بين الإسلام والأديان الأخرى مقارنة خبير عارف ، وهو الرجل الذي يعرف عن اليهودية والنصرانية الشيء الكثير . وتكاد المساحة الأوسع في حديثه عن الإسلام تنصب على هذا الجانب . وهو يجد ــ ابتداء ــ أن واحدة من أهم ميزات الإسلام أنه جاء تحريراً للإنسان ، واستعادة للوفاق المفقود بين التكوين البشري وبين الدين الذي يسعى إلى قيادته وتوجيهه : « على المرء الذي وقف على حقيقة الإسلام أن يعترف بأن الإسلام هو في الحق دين الحرية والفطرة بعيداً عن قيود الكنيسة واستبدادها في المسيحية ، وغريباً عن العصبية وتقاليدها الثقيلة في اليهودية »[١] تلك التي ساقتها « إلى الطريق الضيق المؤدي إلى ساحة الأنانية والعصبية العنصرية الدينية ... التي كانت ولا تزال السبب الأساسي لانحطاطها ومقتها بين الشعوب »[٢] .

فهو إذن التحرير الشامل للإنسان من قيود النصرانية واستبدادها ومن عصبية اليهودية وتقاليدها ، وهو تحرير يمتدّ ــ كما هو واضح ــ عمقياً باتجاه الذات وأفقياً باتجاه الإنسانية . لقد « أبطل الإسلام كافة الخيالات والأوهام في طريقة التقرّب إلى الله بطريق تعذيب النفس أو الوساطة بين العبد وخالقه ، أو احترام المخلوق وتقديسه أياً كان نوعه ومنزلته الاجتماعية .. إن الإسلام دين حرّ لا يقيّد المرء بتقاليد ثقيلة أو أسرار كهنوتية أو طقوس دينية محشوة بالمظاهر والزخرف ، فهو والحالة هذه يجيب مطالب النفس البشرية حائداً كل الحياد عن كل ما يناوىء روح الطبيعة وبديهة الفطرة »[٣] .

فهو كما نرى التحرير الذي يطلق الفطرة من القيود التي كبّلتها بها الأديان التحريفية ، ويضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها ، كما أنه يطلق الناس من كل لغز أو سرّ في فهم العقيدة التي ينتمي إليها ، ومن كل حاجز أو مانع في الذهاب إلى الله والتقرب إليه « ما أقرب عقيدة التوحيد الخالص إلى الفطرة الإنسانية ، إذ تتجسم فيها عظمة الخالق الذي لا تحيط بوجوده الحدود ولا حدّ لسلطانه ، فهو

قريب من عباده في أي وقت وفي أي مكان ، يسمع النداء ويجيب الدعاء ، وبهذا أفضى الإسلام بالمخلوق إلى ربّه ومهد طريق الوصول(إليه) بلا واسطة ، مما يقوّي صدق الإيمان والثقة بالنفس ، والشعور العميق الذي يفيض في قلب المؤمن بجلال هذا الخالق العظيم »[٤] .

ومن أجل ذلك كله كان من البديهي كما يقول أحمد سوسه « أن تلاقي الدعوة الإسلامية معارضة شديدة من زعماء الأديان الأخرى لأن الإسلام يسلك مسلك الصراحة ، وينتحي طريق الفهم والحجة والبرهان والعقل في بثّ دعوته ، فضرب بذلك ضربة قاضية على رئاسة العقائد ونفوذها ، وسلب الحكم في الثواب والعقاب من يد الذين كانوا يعتبرون الجنة من السلع التي تباع وتوهب »[٥] .

[٣]

وثمة ميزات حاسمة عديدة أخرى تفرّق بين الإسلام والديانات السابقة يهودية ونصرانية ، وها هو ذا أحمد سوسه يؤشر على عدد منها ..

* الإسلام لم يتعرض للتحريف خلافاً لتلك الأديان « فالواقع أنه ليس من دين من أديان العالم البشري حافظ على جوهره وقاعدة تعاليمه كالدين الإسلامي ، وهذا ما يمتاز به الإسلام عن الديانتين اليهودية والمسيحية »[٦] .

* الإسلام دين التوازن والوسطية والاعتدال والإيجابية ، بينما في اليهودية أو النصرانية يكون الانحراف والتطرف والسلبية وإذا « كان يصحّ ما يقال بأن خير الأمور أوسطها فإن الديانة الإسلامية هي التي تستحق أن تحتلّ المكانة السامية بين الديانات العالمية لأنها جاءت مشبعة بروح الطبيعة والفطرة ، معتدلة في طقوسها .. متوسطة في مسلكها .. فهي الشريعة الوسط التي تدعو إلى العمل للدنيا والآخرة في آن واحد ... »[٧] .

* الإسلام هو الدين السماوي الأخير ، المرن ، الشامل ، الصالح لكل زمان ومكان ، والديانتان السابقتان مرحليتان ، محرّفتان ، لم تعد أي منهما تصلح لأداء مهمة كهذه « إن الإسلام هو الدين الصافي الذي أراده الله للإنسانية ، صُفّي بمصفاة وحيه الإلهي .. ليكون ديناً صالحاً لكل إنسان ولكل زمان ومكان .. »[٨] وهو « دين مرن يصلح لكل ثقافة ولكل عصر ومصر ، عدا الأصول الدينية الأساسية التي لا تتبدل ولا تتغيّر . إذ تضمن معظم شرائعه ما يكفل مرونتها وجعلها قابلة للأزمنة المتتابعة وفق نظام التطور . ولا يخفى أن الإسلام يرتكز على مبدأ حرية التفكير والعقيدة وعلى أساس استعمال العقل والمنطق ، وكل هذا لا يقبل الركود والجمود ، بل يتمشى جنباً إلى جنب مع نزعة التغيّر والتقدم . وإن الاختلاف في غير أصول الدين رحمة كما جاء في الحديث . وعليه فإن الإسلام يمتاز عن أديان العالم الأخرى بكونه الدين الوحيد الذي جاءت معظم شرائعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بعبارات عميقة الغور وشاسعة النظر في معانيها بحيث تكفل ملاءمتها للنفس البشرية في جميع بيئاتها وأطوارها ... »[٩] .

* الإسلام يقدّم تصوراً واضحاً ومتكاملاً عن المصير بعد الموت ، بينما عجزت الديانات الأخرى عن صياغة هذه المسألة الخطيرة في إطار متماسك مقنع سليم بكل ما يعنيه ذلك من مردود سلبي على سلوك الإنسان المؤمن وقناعاته « ... إنه ليس من ديانة في العالم أوضحت أسرار المصير بعد الوفاة البشرية كالإسلام . ولا يخفى أن هذه الناحية المهمة في العالم الروحاني غامضة قبل ظهور الإسلام وأن اليهودية لم تتطرق لهذا البحث . وعليه فإن ما أوضحه الإسلام من هذه الناحية جاء سدّاً للنقص البارز في بقية الأديان الأساسية . وما ذلك إلّا دليل واضح على صدق الديانة الإسلامية والكمال الذي تنطوي عليه .. وما من شك في أن الاعتقاد بالمعاد في تفسيره الصحيح يرفع بالمستوى الأدبي الروحي إلى مقام سام ليس له نظير في العالم الإنساني منذ أن نشأ المجتمع البشري »[١٠] .

* في الإسلام يتساوى الجميع أمام الله ، بينما في النصرانية يفرض التمييز نفسه حتى في ساحة العبادة « ففي أمريكا ـــ مثلاً ـــ كنائس خاصة بالجنس الأبيض وأخرى خاصة بالجنس الأسود .. وفي (الصلاة الإسلامية) لا يبعد أن يكون إلى جانب أفقر شخص في الجماعة أسمى رجل مقاماً وثروة . إذ لا يشعر أحد في هذا المجتمع بأن هناك فقيراً وغنياً أو ثمة أبيض وأسود .. »[١١] .

* الإسلام دين التسامح والمحبة والانفتاح على الإنسان ، بينما في الأديان الأخرى يطلّ التعصّب برأسه ، وتمدّ الكراهية عنقها ليس بين دين وآخر فحسب ، بل بين طائفة وأخرى في دائرة الدين نفسه ، وتقفل الأبواب ، وتقام المتاريس بين الإنسان والإنسان « فأي دين ـــ غير الإسلام ـــ يجعل العالم موطنه والإنسانية دينه ؟ وأي دين في العالم يسمح لأتباعه أن يتزوجوا من غير بنات دينه ؟ لقد أسبغ الإسلام نعمة المساواة الحقة ومنحه الإخاء على الإنسانية بصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ المجتمع العالمي »[١٢] .

والرجل يحكي تجربته ذات البعد الإنساني لحظة دخوله الإسلام « كنت أشعر بأني أدخل في حياة جديدة وهي حياة الجامعة الإسلامية التي تحمل عَلم الإخاء الإنساني ، فيعيش كل مسلم فيها مسلماً أخاً رائعاً في حضرة التحابب البشري السامي ، الذي لا

يعرف حدّاً من حدود البسيطة ولا يلتفت لجنس من الأجناس أو نوع من أنواعها وقيود تفرقتها .. شعور إنساني سام يغمر كلية المرء ارتياحاً وانشراحاً واطمئناناً »[١٣] .

* الإسلام دين الحجّة والإقناع والبرهان ، بينما تحاول الأديان الأخرى أن تقسر الآخرين على الانتماء أو تقبلهم دون أن تمنحهم المبررات العقلية والوجدانية الكافية للانتماء « إن النصرانية تشجع بأية وسيلة كانت تنصير الآخرين بدون ما التفات إلى اليقين الحقيقي والإيمان الصادق ، بينما الإسلام يجعل الأساس لاعتناقه الإيمان واليقين الصادقين » وهو « يطلق لتابعيه عنان التفكير في الكون بجميع نواحيه ، ويترك لهم حرية السماع لكل الدعاة مهما اختلفت مقاصدهم ، لأن المفروض على المؤمنين أن يستمعوا القول فيتّبعوا أحسنه »[١٤] . إن الإسلام كما مرّ بنا قبل قليل « يرتكز على مبدأ حرية التفكير والعقيدة ، وعلى أساس استعمال العقل والمنطق » .

وأحمد سوسة يقف طويلاً عند هذه المسألة لأننا نعيش عصر العلم الذي يتطلب في كل خطوة حجة وبرهاناً « إن الوقوف على حقيقة الإسلام ومقارنة تعاليمه مع مبادىء الأديان الأخرى بصورة علمية ، يظهر سموّه وقدسيته ، لا سيّما وأن الإسلام نفسه يشجّع التفكير الحرّ والتحرّر من قيود التقاليد ولا يحبّذ أن يقبله المرء ما لم يؤمن به الإيمان الصحيح .. وهذا ما يلائم مقتضى العلم الحديث . وعندي أن العلم الحديث هو بجانب الإسلام وتعاليمه ، وإذا كان للإسلام أن يستعيد مجده وهيمنته فسيكون ذلك بواسطة العلم نفسه الذي يعدّه الكثير عدوّ الديانات »[١٥] .

وهو يرى « أن العلم الصحيح يسعى وراء الحقيقة ويأخذ بصاحبه إلى تعظيم الطبيعة والفطرة وتقديس الخالق الأعظم والاعتصام بالعدل والألفة الإنسانية ، وكل هذا موجود في الإسلام »[١٦] .

بل إن انتماء الرجل للإسلام إنما كان ثمرة لهذا الوفاق الأصيل بين فطرة الإنسان الدينية وبين الفكر الحرّ ، بين الإسلام وبين المعطيات العلمية .. ونستمع إليه وهو يقول : « ما أعظم سروري الآن حين جاء الاستدلال العلمي مؤيداً للميل الفطري ، فانتميت إلى الدين الإسلامي بدافع طبيعي غريزي وبتأييد علمي تمحيصيّ فأصبحت بذلك مسلماً ، شعوراً وموطناً وديناً »[١٧] .

[٤]

الإسلام دين الفعل والتحقّق ، بينما يظل الكثير من معطيات الأديان الأخرى معلقة في سماء الأحلام والأماني ، في حين يتشكل الواقع باتجاه مغاير تماماً « إن مبادىء الحب والأخوة التي تنادي بها المسيحية في بعض تعاليمها والتي لم تتعدّ حدود النظريات ، ينفّذها الإسلام بالفعل وبكل دقة .. »[١٨] فالإسلام « دين عمليّ ، عدا كونه معنوياً ، لأنه يفرض بتعاليمه القيام بواجبات عملية في الحياة الدنيا غير الواجبات الروحية المعنوية . وليس أوضح في ذلك مما جاء في التعاليم الإسلامية بأن المسلم لا يكون مسلماً حقاً ما لم يقم بالواجبات العملية التي يفرضها الدين الإسلامي ، ومن جملة ذلك الصلاة والزكاة . وعندي أن هذين المبدأين يشملان النطاق العملي في الحياة الإنسانية الروحية ويمليان على البشرية أدقّ نظام عمل يكفل تأدية الواجبات الإنسانية والإلهية معاً .. »[١٩] .

الإسلام لا يتهاون ولا يتساهل إزاء كل ما من شأنه أن يلحق الدمار بالإنسان ، أو يفتح ثغرة في ترسانة الإيمان وخطوطها الدفاعية الصلبة ، بينما في الأديان الأخرى يكون التساهل والتهاون إزاء الكثير من ممارسات كهذه .. ولنأخذ الموقف من الخمر مثلاً من بين عديد من الأمثلة في هذا السياق . إن أحمد سوسة يقف عند هذه المسألة التي سبق وأن جذبت دهشة مؤرخ وفيلسوف شهير كأرنولد توينبي فاعتبرها وإلغاء التفرقة اللونية اثنتين من أكثر ميزات الإسلام خطورة ودلالة على فاعليته « وما تحريم الخمر في الإسلام — يقول سوسة — إلّا ظاهرة أخرى توضّح ما للدين الإسلامي من فضل على الإنسانية جمعاء ، وتنبه المرء إلى حقيقة هذا الدين الذي سبق العالم الغربي المتمدين في وضع سنّة التحريم من قبل ثلاثة عشر قرناً لإنقاذ البشرية من سموم هذا الشراب الفتّاك .. وقد قال قس شهير من الإنكليز اسمه إسحق طيلر (إنه يختار إسلاماً لا سكر فيه على مسيحية فيها سكر !) .. »[٢٠] .

بل إن سوسة ليلحظ الاختلاف بين الإسلام والأديان الأخرى حتى في مصدر التسمية . ففي الإسلام تجيء التسمية من الله سبحانه لتدل على طبيعة هذا الدين ، بينما في الأديان الأخرى تكون التسمية وضعاً واختلافاً « الإسلام كلمة الله تتجلى فيها آية الاستسلام لأوامره وإرادته ، ويتجسّم في معناها المرمى الداعي للسلم والسلام .. وهي كلمة الله المنزلة لتسمية الديانة الإسلامية وليست اختلاق جماعة كما هي الحال في تسمية الديانة المسيحية والموسوية وغيرها من الأديان .. والإسلام مظهر من مظاهر السلم في العالم البشري ، وإنه يضع دعائم التفاهم للمجتمع الإنساني ، فهو الدين الذي اختاره الله عز وجل ليكون مثالاً للصفاء والوئام بين عباده ... »[٢١] .

[٥]

لكن هذا التمايز الواضح بين الإسلام والأديان السماوية السابقة ، بخطوطه الفاصلة الحاسمة هذه ، لا يعني ، من جهة أخرى ، انقطاعاً

أو تضاداً كاملاً بين الطرفين ، تلغى معه أية صلة عقيدية أو تاريخية بين الإسلام والأديان التي سبقته ، فإن هذه الأديان كافة ، في جوهرها الأصيل إنما هي دفق متوحّد عن مصدر واحد ، ولهدف واحد ، ولكن التحريف واستضافة الأجسام الغريبة هو الذي قادها إلى الانفصال ، فضلاً عن كون الأديان السابقة أريد لها — في الأساس — أن تؤدي مهمة مرحلية ، ثم تسلم زمامها للدين الشامل ، المصدّق ، الأخير : الإسلام .

وأحمد سوسة في مقارناته الآنفة الذكر ، في بحثه عن نقاط التغاير والاختلاف بين الإسلام والأديان السابقة لا يغفل هذه الحقيقة « فلقد جاء الإسلام — يقول الرجل — بعد الديانتين التوحيديتين منقحاً موضحاً للحقيقة ، معترفاً بجوهر الديانتين السابقتين ، مشيراً إلى التحوير والأخطاء التي طرأت عليها .. مضيفاً كثيراً من الإرشادات والتعاليم الروحية التي أرادها الله لعباده المؤمنين .. (واضعاً) شريعة تحتوي على كل ما يتعلق بالمجتمع من أمور اجتماعية دينية اقتصادية سياسية ، ومن ذلك يتضح أن الإسلام لم يظهر لهداية القبائل الوثنية فحسب ، وإنما جاء أيضاً لتوحيد الأديان ورفع الشكوك والارتباكات التي انطوت عليها الديانتان اليهودية والمسيحية ، وإرشاد أتباعها إلى الدين الجديد . ولكن تأصّل جذور الديانتين ، ونفوذ الأحبار والساسة ، والعصبية اليهودية بصورة خاصة ، كل هذه كانت من العوامل التي حالت دون تحقيق التوحيد المنشود . ولو أن هؤلاء كانوا من المهتدين إلى (الإسلام) دين الحقيقة ، لكان انقشع ضباب الضلال والكراهية والارتباك وانبثق نور السعادة على البشرية جمعاء في جوّ مشبع بالصفاء والولاء »[٢٢] .

الهوامش

* الجزء الأول ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، ١٩٣٦ م ، الجزء الثاني ، النجف ، مطبعة الغرّى — ١٩٣٨ م .

(١) في طريقي إلى الإسلام ١ / ٥٢
(٢) نفسه ١ / ٩٠ .
(٣) نفسه ١ / ١٨٠ — ١٨١ .
(٤) نفسه ٢ / ٦ — ٧ .
(٥) نفسه ١ / ١٨٨ .
(٦) نفسه ١ / ٧٤ — ٧٥ .
(٧) نفسه ١ / ٧٧ .
(٨) نفسه ١ / ٨٠ .
(٩) نفسه ١ / ١٨٤ — ١٨٥ .
(١٠) نفسه ١ / ١٧١ — ١٧٢ .
(١١) نفسه ١ / ١٧٨ — ١٧٩ .
(١٢) نفسه ١ / ١٧٥ — ١٧٦ .
(١٣) نفسه ١ / ٥٦ .
(١٤) نفسه ١ / ١٨٩ ، ١٩٣ .
(١٥) نفسه ١ / ٦٠ — ٦١ .
(١٦) نفسه ١ / ٦١ .
(١٧) نفسه ١ / ٥٥ .
(١٨) نفسه ٢ / ١٦٥ — ١٦٦ .
(١٩) نفسه ١ / ١٧٢ — ١٧٣ .
(٢٠) نفسه ٢ / ٣٢ — ٣٣ .
(٢١) نفسه ١ / ١٦٧ .
(٢٢) نفسه ١ / ٧١ — ٧٢ .

مع الطب في القرآن الكريم

لعبد الحميد دياب د/ أحمد قرقوز

كارم السيد غنيم

دياب ، عبد الحميد وأحمد قرقوز / مع الطب في القرآن .ــ ؟ ١٩٨٤ م ، ٢١٠ ص .

القرآن الكريم هو المعجزة المتفجرة في كل آن ، الخالدة على مرّ الزمان ، وهو الآية الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً ﷺ ، فوجد فيها المؤمنون الأول أبلغ البيان على صدق دعواه ، ويجد فيها الناس اليوم سلسلة لا نهاية لها من الإعجازات تتجلى في أسلوبه البلاغي ، أو في نظامه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، وفي منهجه التربوي والخلقي ، وفي نظرته الثابتة إلى الوجود والإنسان ، وفي إشاراته العلمية للكون والخلق ، وحتى في ترتيب آياته وكلماته ، وفي تعداد حروفه وكلماته ﴿ **ما فرّطنا في الكتاب من شيء** ﴾ (الأنعام / ٣٨) .

وصحيح أن القرآن الكريم لم ينزل كتاباً في الطب أو في أي فرع من العلوم ، فهو قبل كل شيء منهج للإنسان وعقيدة للحياة ، ولكنه منهج كامل فيه تبيان لكل شيء ، ضرب الله فيه للإنسان من كل الأمثال ﴿ **ولقد صرّفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ (الكهف / ٥٤) ، ولذلك فلا عجب أن نجد المولى عز وجل قد بيّن فيه للإنسان ما يهمه لحفظ صحته ، وأرسى لذلك أسسه العريضة ، كما لفت نظره إلى آيات الخلق ، وحثّه على البحث والتأمل ، حتى غدت آيات القرآن الكريم في طريق العلم ، تمدّه وتضعه دوماً في مساره الصحيح ، ليؤدي وظيفته في حياة البشر ولا نكون مغالين إذا قلنا إن شقاء البشرية اليوم ، على الرغم من تقدّمها التقني الكبير ، يعود لعدة أسباب ، من أهمها اندفاعها في ركب العلم على غير هدى ، وبدون أية ضوابط أخلاقية أو إنسانية ، ولذلك لم يفد أوروبا وأمريكا علومهما عن مضارّ الخمر والمخدّرات والزنا في الحدّ من ويلاتها المدمّرة .

يقول محمود ناظم نسيمي : بما أن أكثر فروع الطب تعلقاً بمهام الدولة والثقافة العامة هو الطب الوقائي ، فقد كثرت الآيات المتعلقة به ، حيث نلحظ المقاصد الصحية في شروط العبادات وأركانها ، وفي الواجبات والمحرمات التي تضمنتها آيات القرآن . وكذلك كثرت الآيات المتعلقة بتخلق الإنسان الداعية إلى التدبر والإذعان بوجود خالق كريم حكيم خبير . أما الآيات المتعلقة بالطب العلاجي فهي قليلة العدد ، وردت في معرض امتنان الخالق على عباده بِنِعَمِهِ التي تستوجب الحمد والشكر .

حصل كُلٌّ من عبد الحميد دياب وأحمد قرقوز على درجة الدكتوراه في الطب من جامعة دمشق ، وكانت أطروحتهما هي (مع الطب في القرآن) ، ثم طبعت هذه الرسالة كتاباً لأول مرة سنة ١٩٨٠ م ، وتكررت طبعاته عدة مرات من ذلك العام حتى سنة ١٩٨٤ م ، مما يدل على أهميته الكبيرة في أوساط المثقفين ، بل وانتشاره في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي .

يقع الكتاب في (٢١٠) صفحة من القطع الكبير ، وقد استهله ناظم نسيمي بتقديم سبق مقدمة الباحثين ، وبعد ذلك توالت خمسة أبواب كان أطولها الرابع (٦٦ صفحة) وأقصرها الثالث (٢٠) صفحة ، وقبل أن ينتهي الكتاب بفهرس الموضوعات عرض صاحباه في قائمة المراجع والمصادر ثمانية وخمسين مرجعاً ومصدراً ، منها أربعون كتاباً ، ستة منها في التفسير ، وست رسائل جامعية ، وسبعة أنواع من المجلات المختلفة ، وخمسة مراجع أجنبية . وقد دعم المؤلفان كتابهما بتسع لوحات ملونة للصور التوضيحية والرسوم والأشكال التخطيطية ، وأوردا جدولاً إحصائياً واحداً ، واستعملا (١٣٤) مصطلحاً أجنبياً أو يزيد قليلاً ، سواء بلغاتها الأجنبية أو معرّبة . كما استعرضا في كتابهما (١٨٤) نصّاً قرآنياً كريماً و (١٦) حديثاً نبوياً شريفاً .

وقد أشار الباحثان إلى أساس منهج بحثهما ، وهو عدم تحميل الآيات القرآنية أكثر مما تتحمل ، وتجنّب تطويعها للمعطيات العلمية ، وقد قررا أن البحث ليس محاولة لتفسير الآيات القرآنية بنتائج العلوم الحديثة إلّا إذا كانت الآية قطعية الدلالة ، وكانت المعطيات العلمية حقائق ثابتة أيضاً . وحتى يحقق الباحثان هذا المنهج في بحثهما بذلا مجهوداً دام ست سنوات ، فجزاهما الله خيراً على ما قدّما في مجال الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، وألهمهما المزيد على مرّ

الأيام .

احتوى الباب الأول في الكتاب (قطوف من الإعجازات الطبيةفي القرآن) على ثلاثة فصول ، كان أولها بعنوان (آيات بينات) وقد ضم عشر جزئيات ، بدأها الباحثان بمعالجة للآية القرآنية الكريمة ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعّد في السماء** ﴾ (الأنعام / ١٢٥) . فهذه الآية تقدم تشبيهاً معجزاً من وجوه عدّة ، وهي تعرض حقيقة علمية ثابتة في أسلوب بلاغي دقيق ، ومن وجوه هذا الإعجاز :

(١) حادثة صعود الإنسان في الفضاء (٢) صحة التشبيه . فالارتفاع في الجو لمسافات عالية يسبب ضيقاً في النفس ، وشعوراً بالاختناق يزداد كلما زاد الارتفاع « يصّعّد » ، حتى يصل الضيق إلى درجة حرجة وصعبة جداً ، فكيف يستفيد الناس من فَهْم هذه الآية ؟

بعد أن أجاب المؤلفان على هذا السؤال انتقلا إلى بيان معجزة البصمة ، وقد أشار إليها القرآن في الآية (٤٠) من سورة القيامة ﴿ **بلى قادرين على أن نسوّي بنانه** ﴾ ، والبنان هو نهاية الإصبع ، فلماذا خصص الله البنان دون سائر أجزاء البدن الكثيرة ؟ لقد توصل العلم إلى سرّ البصمة في القرن التاسع عشر ، وبيّن أن البصمة تتكون من خطوط بارزة في بشرة الجلد تجاورها منخفضات ، وتعلو الخطوط البارزة فتحات المسام العرقية ، وتتمادى هذه الخطوط وتتلوى ، وتتفرع عنها تغضنات وفروع ، لتأخذ في النهاية ، في كل شخص ، شكلاً مميزاً ، وقد ثبت أنه لا يمكن للبصمة أن تتطابق وتتماثل في شخصين في العالم حتى في التوائم المتماثلة التي أصلها من بويضة واحدة (خلية تناسلية أنثوية) .

قرر القرآن الكريم في الآيات : ١٥ / الأحقاف ، ٢٣٣ / البقرة ، ١٤/لقمان ، أن أقلّ مدة للحمل هي ستة أشهر ، وقد اعتمد الصحابة — رضي الله عنهم — على هذا الفهم حين همَّ عثمان بن عفان بتطبيق حدّ الزنا على امرأة ، ظنّاً منه أنها حملت قبل الزواج ، فما هو رأي الطب الحديث في تحديد أقل مدة حمل ممكنة ؟ ثم إذا استطاع الطب الحديث تحديد جنس الجنين حتى من بعد الإخصاب مباشرة (دخول واندماج الحيوان المنوي في بويضة الأنثى) ، فكيف لا يزال حتى الآن — وإلى قيام الساعة — علم الله العام الشامل بالجنين ﴿ **ويعلم ما في الأرحام** ﴾ ؟ كذلك كيف يقوم البلح الرطب بأداء مهام جليلة في عملية المخاض ، وقد أشار القرآن إلى ذلك في مخاض العذراء البتول مريم ابنة عمران (الآيات ٢٣ — ٢٦ / مريم) ؟

لماذا خصَّ الله سبحانه الجلد بالتبديل أثناء إنزال العذاب بالكافرين في الحياة الآخرة ؟ وهل الجلد هو أكثر أعضاء الجسم غنىً بمستقبلات الألم ؟ ما هو الصُلْب ؟ وما هي الترائب ؟ وكيف كان المَنُّ والسّلوى أعظم غذاء أنعم الله به على بني إسرائيل في سيناء إبّان هجرتهم من مصر ؟ وما هو مرض سيدنا أيوب وكيف بَرِءَ منه ؟ وما هو وجه الإعجاز القرآني في ﴿ **مغتسل بارد وشراب** ﴾ في علاج هذا المرض ؟ وكيف أن « دليل الأنفس » من أعظم أدلة توحيد الخالق وعظمته وعظمة قدرته في الخلق ؟ كل هذه الأمور المهمة والنقاط الجذابة عالجها المؤلّفان في إيجاز غير مخلّ وتفصيل غير مملّ ، بل في أسلوب رصين وعبارات رقيقة .

وفي الباب ذاته تنقّل الباحثان من فصل إلى فصل ، وقد أطلقا عليه عنوان (تساؤلات) إلّا أننا رأينا من الأفضل إعطاءه عنوان (خواطر علمية) ، تكلم فيها الباحثان عن أمور هي :

﴿ **ويسألونك عن المحيض ، قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . ولماذا يقدّم الله دائماً ذكر الفاكهة على ذكر اللحم في الآيات القرآنية ؟ هل لهذا دلالة طبية وحكمة غذائية ؟ كذلك ، لماذا قدّم الله السَّمْعَ على البصر في آيات كثيرة من القرآن ؟ وما معنى إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي في الآية الكريمة ﴿ **تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق مَنْ تشاء بغير حساب** ﴾ ... وعلى عَجَلٍ من أمرهما دخل المؤلّفان في الفصل الأخير فَهَمَسَا (همسات طبية) للقارىء الكريم ، وإن كانت على الوتيرة نفسها والنمط العلمي نفسه في معالجة الآيات القرآنية ، حتى ليكاد يكون الفصل الثالث امتداداً طبيعياً للفصل الثاني ، إلّا أن الإيجاز الشديد كان هو الطابع الملحوظ لعرض هذه (الهمسات) . عالج المؤلفان في هذا الفصل الأخير من الباب الأول ثلاث عشرة مسألة وردت في القرآن الكريم هي على التوالي : حكمة تقليب الله لفتية الكهف أثناء نومهم — كيف يؤدي الحزن إلى مرض الجلوكوما « ابيضاض العين » الذي أصيب به سيدنا يعقوب بحزنه على ابنه يوسف — ما وجه الإعجاز العلمي للقرآن في توليد اللبن ﴿ **من بين فرث ودم** ﴾ — اليقطين كانت الشجرة التي استظل بها سيدنا يونس بعد أن طرحه اليمّ ﴿ **بالعراء وهو سقيم** ﴾ — أهمية اللون الأخضر للنفس البشرية كما ورد في القرآن الكريم وكما أثبته علم النفس الحديث — كيف يؤدي الخشوع في الصلاة إلى « تركيز الخواطر » أو تربية « ملكة حصر الذهن » عند المسلم ، وهي الملكة التي تعتبر أكبر معين في سائر

الأعمال وإتقانها دون ملل أو كلل — من هو فرعون موسى ؟ كيف ترتبط الأمراض العضوية بالعواطف والانفعالات النفسية للإنسان ؟ ما وجه الإعجاز العلمي للآية ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ على الرغم من أن المدلول الأصلي الذي تشير إليه الآية هو المعنى المجازي .

بتفصيل أوسع من ذي قَبْل كتب الباحثان الباب الثاني في الكتاب (القرآن وتخلّق الإنسان) ، وقد استهلّاه بتقدمةٍ ، ثم توالت فصول ثمانية استغرق الكلام فيها اثنتين وثلاثين صفحة هي حجم هذا الباب . الناظر في مشاهد تخلق الإنسان المتتابعة ، التي تبتدىء بتلك النقطة الضعيفة ، لتنتهي بخروج مخلوق سَوِيّ ، حسن الخلْقة ، يحمل بين جنبيْه قلباً نابضاً بالحب والأشواق والعواطف ، ويملك عقلاً مفكراً ومبدعاً ، ونفْساً توّاقة للبحث والكشف وسبر أغوار المجهول ... هذا المخلوق الذي يكبر وينمو ليكون عضواً فعالاً على سطح الأرض ، وقد يترك في تاريخ البشرية ما لا تنساه الأجيال .. أجلْ إن الناظر في هذه الرحلة الشيقة لا يملك إلّا أنْ يسجد لله خاشعاً في محراب هذه الحياة ، وهو مشدوه ومشدود إلى هذا الخالق المبدع العظيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه .. ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خرُّوا سُجَّداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون** ﴾ (السجدة / ١٥) . ويضع الله تبارك وتعالى هذه الآيات البيّنات بين يدي المتشككين بالبعث ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنَّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلَّقة لنبيِّن لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم مَنْ يتوفى ومنكم مَنْ يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً** ﴾ (الحج / ٥) . وبمقارنة الحقائق التي تظهرها هذه الآية وحدها مع النظريات التي تكلمت عن تخلق الإنسان ونشأته التي كان أولها « نظرية التخلق السبقي » ، التي تقول بأن الإنسان يكون بكامل أعضائه في النطفة التي يضعها الرجل في المرأة ، ومهمة المرأة هي فقط حضن هذه النطفة لتكبر وتنمو بالحجم فقط ، بهذه المقارنة نلمس الإعجاز الطبي الكبير الذي تقدَّم به القرآن للبشر .

وكان منهج المؤلفين في هذا الباب هو : استعراض المشاهد التي أشار إليها القرآن حول رحلة الإنسان الطويلة، من التراب إلى التراب ، بكل ما تحويه هذه الرحلة من الروعة والجمال ، وبما تنطوي عليه من الأسرار والحكم ، وبما تحويه أيضاً من الترتيب والتعقيد ، وبما تشير إليه من سنن الكون التي لا تتبدل ﴿ **ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنّة الله تحويلاً** ﴾ . إنه حقاً في غاية الروعة والإتقان ، يستشعر المرء وهو يطالعه وكأنه يعيش هذه المراحل مرحلة مرحلة ، حتى إنك لو أردت تلخيصه بقصد عرضه لفسد رونق الحديث فيه وجمال العرض لأجزائه ، لذا فقد آثرنا تركه للقارىء حتى يغنم هذه النشوة بمطالعته له في أصل الكتاب .

في أقصر أبواب الكتاب (٢٠ ص) وهو الباب الثالث ، يبحث المؤلفان في بعض سنن الحياة التي تربطها صلة بموضوع الكتاب ، وقد أشار القرآن الكريم إليها في العديد من آياته ، تلك السنن التي أودعها الله كونه لتكون قوانين ونظماً ثابتة لا تتغير، وتهيمن على كل قطاعاته .

بُدىء الباب بفصل عن الإعجاز العلمي للقرآن في الرضاعة ، حيث يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرَّضاعة** ﴾ (البقرة / ٢٣٣) ، ﴿ **ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ (الأحقاف/١٥) . وقال موجهاً للاسترضاع : ﴿ **وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾ (الطلاق / ٦) . وجاء في حديث رسول الله ﷺ أنه قال : « أرضعيه ولو بماء عينيك » وذلك عندما طلب من أسماء بنت أبي بكر الصديق أن ترضع وليدها عبد الله بن الزبير .

نلمس مما تقدم تأكيداً على الإرضاع من ثدي المرأة ، قبل اللجوء لأية وسيلة إرضاع أخرى كالإرضاع الصناعي ، فلماذا ؟

للإجابة عن هذا السؤال عقد الباحثان مقارنة بين الإرضاع الطبيعي والإرضاع الصناعي من حيث تركيب الحليب والهضم والطهارة والتعقيم ودرجة الحرارة والتكلفة والاحتواء على المضادات الحيوية ومساعدة الزمرة الجرثومية الطبيعية في الأمعاء ، والعلاقة بأمراض هضمية ، والاستعداد لأمراض مختلفة (نفسية — سمعية — لثة وأسنان) . ثم خلص الكاتبان إلى ما يلي : .. هذه وغيرها من الفروق ، تفسّر لنا ارتفاع نسبة الوفيات عند الأطفال الذين يعتمدون على الإرضاع الصناعي عن نسبة وفيات إخوتهم الذين يرضعون من الثدي بمقدار أربعة أضعاف ، على الرغم من كل التحسينات التي أُدخلت على طريقة إعداد الحليب في الطرق الصناعية ، وعلى طريقة إعطائه للرضيع ، كما أن الإرضاع الطبيعي يعود بالفوائد الجمة على الأم في فترة النفاس ثم فيما بعد . ثم انبرى الباحثان يوضحان أثر الإرضاع الطبيعي على تقوية الروابط الروحية بين الأم والطفل فقالا : الإرضاع الأمي يقوّي الروابط الروحية والعاطفية بين الأم ووليدها ، ويجعل الأم أكثر عطفاً وارتباطاً بطفلها ، وهذه الروابط هي الضمان الوحيد الذي يحدو بالأم للاعتناء بوليدها بنفسها . فهو ليس مجرد عملية مادية ، بل هو رابطة مقدسة بين كائنين ، تشعر فيه الأم بسعادة عظمى لأنها

أصبحت أماً ، تقوم على تربية طفل صغير ، ليكون غرساً طيباً في بستان الحياة .

والنصيحة التي يقدمها المؤلفان لكل أمٍّ هي التأكيد على الحرص كل الحرص على أن تقدم الأم لطفلها الغذاء الطبيعي الذي أعدّه له البارىء المصوِّر أحسن إعداد ، وأن لا تتخلى عنه إلّا في حال وجود مانع لذلك . كما يجب أن تعلم الأم أن انخفاض إدرار الحليب بعد الولادة مباشرة ، أو فيما بعد ، يجب أن لا يدفعها للتوجه مباشرة للحليب الصناعي ، فقد يكون ذلك النقص غريزياً ولمدة بسيطة ولمصلحة الجميع . كما يجب عدم دعم الإرضاع الطبيعي الصناعي الذي يسمى « الإرضاع المختلط » إلّا عند الضرورة ، فقد يؤدي إلى امتناع الطفل عن الثدي بسبب قلة إدرار اللبن من الثدي .

وعندما نصل إلى الفصل الثاني من الباب ذاته نجد من الإعجاز العلمي للقرآن (النوم وتعاقب الليل والنهار) ، وبعد عرض النصوص القرآنية التي تشير إلى المسألة ، أوضح المؤلفان أوجه الشبه بين السُّبات وبين النوم ، وقد استدلا بالآية «١١» من سورة الكهف على كيفية حدوث النوم ﴿ **فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً** ﴾ ، وفي النوم أيضاً فرّق المؤلفان بين نوم النهار ونوم الليل ، وبيّنا أهمية الظلام ليلاً لحدوث النوم .

أما (يقظة الفجر مع ريح الصَّبا) فأمرٌ عجب حقاً ، تنبّه له الباحثان وعرضاه في وضوح ، مستخلصين من دراستهم الفوائد الصحية للاستيقاظ المبكِّر كل يوم وأهمية الاستيقاظ في أعماق الليل ﴿ **إن ناشئة الليل هي أشدّ وطأً وأقوم قيلاً** ﴾ (المزمل / ٦) . ثم ختم الباب بالشيخوخة وحتمية الموت لكل كائن .

ونأتي إلى أكثر أبواب الكتاب طولاً (٦٦ ص) وهو الباب الرابع الذي خصصه الباحثان لمناقشة الطب الوقائي كما عرضه وأشار إلى جوانبه القرآن الكريم ، ونرى أن مادة هذا الباب قد توزّعت على ثلاثة فصول ، أولها في (القرآن والصحة العامة) ، وثانيها يعرض (رعاية كبيرة) ، أما الأخير فيبحث في أسرار (تحريم الفواحش) .

إن الفرق كبير بين أن نترك الإنسان ليصاب بالمرض ثم نسعى لمعالجته ، وبين أن نقيه من المرض أصلاً ، ولقد أدرك الحكماء القدامى هذا الفرق فقالوا : (درهم وقاية خير من قنطار علاج) ، كما أدركت الفرق أيضاً الأمم الحديثة ، فأولت الجوانب الوقائية الاهتمام الأول في كل تدابيرها الصحية وسارت في تطبيق أسس الطب الوقائي ، حتى يمكن تقدير تقدّم أي مجتمع صحياً بمقدار ما قطعه في هذا المضمار . هذا وإن كانت الدول الغربية قد نجحت في تقليص حجم الأمراض الإنتانية وسوء التغذية ، إلا أنها ابتليت وللأسف بما يمكن أن نسميه أمراض (الحضارة العوراء) ، كالأمراض الزهرية ، والأمراض الخبيثة ، وأمراض القلب والأوعية والأمراض النفسية الخطرة ، والإدمان على الخمر والمخدِّرات ، كل ذلك لأنها أبت الهداية فراحت تتخبط خبط عشواء في نهضتها .

حينما يقول الله سبحانه : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ (البقرة / ١٩٥) فإنه يبيّن للناس الطرق التي تؤدي بهم إلى الهلاك ، ويحذرهم أشد التحذير منها ، ويتوعد مَنْ يسلكها أشد الوعيد ، رحمة به وبمجتمعه ، كما يبيّن لهم السُّبل التي تسمو بهم جسدياً ونفسياً نحو الصحة والسلامة ، كل ذلك في إطار عملي لم ولن يشهد له التاريخ مثيلاً .

في بحث (القرآن والصحة العامة) تناول المؤلفان ثلاث جزئيات هي النظافة والرياضة والغذاء . أما النظافة فمنها ما هو شخصي (النظافة الشخصية) ، وأساسها الوضوء والطهارة (طهارة الجسم وطهارة الملبس) . ومنها ما هو عام (نظافة البيئة) . وبالنسبة للرياضة ففي حركات الصلاة رياضة خصوصاً وأن الصلاة تستمر في حياة المسلم وتتوزع على أنحاء اليوم .

وكان مما أبدع فيه المؤلفان بيان أثر السجود فقد قالا : إن للسجود أثراً حسناً على الأوعية الدماغية وعلى وظائف الدماغ من تفكير وإبداع ، فكلما كانت حالة الأوعية الدماغية جيدة كان وارد « Supply » الدماغ من الغذاء والدماء جيداً ، حتى إن كثيراً من الأمراض العصبية الخطيرة تنتج عن اضطرابات تحصل لهذه الأوعية من تمزّق وانسداد .. إن انخفاض الرأس لأسفل أثناء السجود يؤدي إلى احتقان دموي في الأوعية ، وعند ارتفاع الرأس إلى أعلى فجأة يحصل انخفاض في الضغط داخل الأوعية ، وتتكرر هذه الحركة في كل ركعة (٦) مرات ما بين ركوع وسجود ، وتتكرر (١٠٢) مرة في كل يوم إذا صلى الإنسان الفروض فقط ، وتتكرر (٢١٦) مرة في اليوم إذ صلى الفروض ومعها السنن دون زيادة ، أما في الشهر فتتكرر (٦٤٨٠) مرة ، وفي كل حركة تكون الأوعية الدموية بين تقبّض وارتخاء فتزداد مرونتها وتقوى جدرها وعضلاتها . وفي الحج أيضاً رياضة ، وفي ركوب الخيل رياضة ، وقد أمر الرسول بهذه الرياضات .

والغذاء المناسب والتغذية المتكاملة كان موضوع الجزئية الأخيرة ، وقد وزّع المؤلفان بحثهما لها في جانبين ، الأول : تحريم الخبائث ، والثاني : إباحة الطيبات ، وقد وجدا من الأهمية بمكان أن يسبق هذين الجانبين قاعدة أساسية في البحث هي قول الله تعالى :

﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ (الأعراف / ٣١) ، حيث بيَّنا أنواع الإسراف ومنها الشَّره ، فتكلما عن أشكاله وما ينجم عنه من أضرار صحية وخيمة ، سواء الشره في كميات الطعام أو الشَّره بنوع من الأطعمة ، أما الخبائث التي بيَّنَ الباحثان بعض الأسرار العلمية والطبية في تحريمها فهي تلك التي تضمنتها الآية الكريمة : **﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النُّصب ﴾** (المائدة / ٣) . وقد أفرد الباحثان عدداً غير قليل من صفحات هذه الجزئية لمعالجة موضوع الخمر (فهي أم الخبائث) ، فتكلما في كل شيء حول الخمور فيما عدا تركيب الخمر أو طرق استحضاره وأنواعه . وكان مما أفاضا فيه تفصيلاً وأبدعا فيه شرحاً بيان مضار الغَوْل (الكحول) ومفاسده الطبية الوبيلة .

كذلك عرض المؤلفان علاج القرآن لمشكلة الإدمان على الخمر ، وبيان فشل الدول المتقدمة حالياً في تطبيق أي علاج ناجح . وبعده عَرَجَا على الطيبات ، فقدَّما للموضوع بمقارنة سريعة لبعض ما جاء في القرآن من إباحة للطيبات وما احتوته بعض الشرائع من تحريم لها . وقد تناول الحديث في الطيبات : لحوم الأنعام ــ صيد البحر ــ الألبان ــ الزيتون ــ التمر ــ الطلح (الموز) ــ العنب .

ثم دلفا إلى الفصل الأخير من الباب الحالي ، وقبله مباشرة مرَّا مروراً سريعاً على فصلٍ في بيان الرُّخص التي تكرم بها المُنعِم سبحانه على عباده أصحاب الأعذار ، وكذلك الدواعي الوقائية المختلفة لتنظيم النسل ، مع تحفظهما الشديد في عدم استخدامها إلَّا في الضرورات .

ويعتبر الزنا وكذلك اللواط من أبشع الفواحش التي حرمها الله بين البشر ، لما تناله من كرامة الإنسان والإنسانية ، ولما تنزل بالبشرية إلى مستوى البهيمية . ومن هنا فقد أورد الله للوقاية منهما آيات كثيرة في القرآن الكريم ، وحذَّر من الاقتراب منهما ، وأنزل بمرتكبيهما الحكم العدل والجزاء المناسب . وقد استهلَّ المؤلفان الفصل الأخير من الباب قبل الأخير عن الزنا بقول الله تعالى : **﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾** (الإسراء / ٣٢) ، لأن الزنا من الناحية الطبية هو المسئول الأول عن انتشار الأمراض الزهرية « في المجتمع » فما هي الأمراض الزهرية ؟ إنها : السفلس ــ السيلان ــ القرح اللين ــ الورم الحبيبي الأربي ــ النمو المغبني الالتهابي الجنسي ــ التهاب المهبل بالشعرية المهبلية . وبعد أنْ تمَّ التفصيل في هذه الأمراض الفتاكة تحدّثا عن اللواط ولم يفصّلا فيه بقدْر ما فعلاه في مسألة الزنا ، ولم يشيرا من قريب أو بعيد إلى المرض العالمي المرعب (الأيدز AIDS) وهو مرض نقص المناعة المكتسبة ، التي تسببه العلاقات الجنسية الشاذة (اللواط والسحاق وما شابههما) بالدرجة الأولى ، وربما يكون السبب في ذلك هو انتهاء الباحثين من إعداد هذا البحث قبل انتشار الأيدز في أوروبا الغربية وأمريكا ومن يسلك حياتها الخلقية الفاسدة .

وفي زهاء الثمانية والعشرين صفحة الباقية سطَّر الباحثان بعبارة رائعة وأسلوب رصين سطوراً في كل من العسل والصيام لتكون محتوى الباب الأخير في الكتاب . أما العسل فقد كان المرجع بل المصدر الأوحد لهما في مادته العلمية هو كتاب (العسل : فيه شفاء للناس) لمحمد نزار الدقر ، وعليه فلا داعي لعرض ما اقتبساه هنا ، ونحيل القارىء إلى ذلك الكتاب نفسه . أما الصيام فقد قال الله فيه **﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** (البقرة / ١٨٣) ، وقال رسول الله ﷺ « صوموا تصحُّوا » . وقد قدَّم المؤلفان تحفُّظاً مهماً قبل الانشغال ببيان فوائد الصيام الطبية والصحية ، ألَا وهي الإيمان بأن الصيام ورد الأمر به في القرآن كعبادة يجب الامتثال بها لأمر الخالق العظيم ، ولا يجوز تعليقها بما يكشفه لنا العلم ، فمجال العلم ــ مهما ارتقى ــ محدود ، ولا يمكن له أن يستوعب كامل حكمة الله في كل ما يروّض عليه الكائن البشري ، أو كل ما يروض به هذا الكون بشكل عام . وأما الفوائد الطبية والصحية للصيام فمنها :

(١) تخليص البدن من شحومه المتراكمة التي تشكل عبئاً ثقيلاً عليه . (٢) طرح الفضلات والسموم المتراكمة . (٣) إتاحة الفرصة لخلايا الجسم وغدده لأنْ تقوم بوظائفها على الوجه الأكمل . (٤) إراحة الكليتين والجهاز البولي بعض الوقت من طرح الفضلات المستمر . (٥) وقاية الشرايين من التصلب . (٦) توليد الرغبة في الطعام والشعور بالنشاط والحيوية . ثم تناولا جوانب مهمة في الموضوع كآلية تأثير الصوم والانعكاسات النفسية على الصائم وعلاقة الصوم بالوظيفة الجنسية ، وتأثير الصوم في علاج كثير من الأمراض .

معرفة أربينوس وخوليوس
بالعالم المسلم أحمد بن قاسم الأندلسي
والدراسات العربية في هولندا

لخيرارد فيخرس

قاسم السامرائي

لايدن - هولندا

A learned Muslim Acquaintance of Erpenius and Golius : Ahmed b. Kasim al-Andalusi and Arabic Studies in The Netherlands, by G.A. Wiegers, Dokumentatiebureau Islam - Christendom, U.L. 1988, pp. 98.

لعل هذا الكتاب الصغير يمثل أول دراسة علمية موضوعية تاريخية جادة يكتبها مستشرق هولندي شاب من الجيل المعاصر حول العلاقة العلمية التي كانت قائمة بين المبعوث المغربي أحمد بن قاسم الأندلسي وبين مستشرقين هولنديين هما أربينوس وخوليوس في القرن السابع عشر (الحادي عشر للهجرة) واللذين يعدّان من أعمدة الاستشراق الهولندي حتى اليوم . فألغى في بحثه هذا ما قاله الباحث الاسترالي : « إن عيب الاستشراق الهولندي في أنهم يقرأون قليلاً جداً ويكتبون كثيراً »[1] لأن خيرارد فيخرس قد قرأ حول بحثه هذا كثيراً ، بيد أنه كتب قليلاً جداً . وهذا يظهر واضحاً جلياً في عدد المصادر الكثيرة التي أشار إليها بلغاتها المختلفة ، سواء في الكتاب نفسه أو في جريدة المصادر التي احتوت على ٨١ كتاباً ومخطوطاً (بالعربية والإسبانية) ومقالة ووثيقة ، فأوفى في بحثه هذا على كل باحث قبله واستوفى كل ما قاله دون تمحّل المفترض أو تعمّل المغرض .

الحق أن هذا الباحث لم يكن أول من ذكر هذه العلاقة ، فقد أشار إليها بعض المستشرقين الهولنديين أيضاً اعتماداً على رسالة بعث بها أربينوس من باريس مؤرخة في ٢٨ سبتمبر ١٦١١ (١٠٢٠ هـ) إلى المستشرق إسحاق كازابون باللغة اللاتينية قال فيها :

« وراء كل ما كنت أتوقع فقد وصل إلى زيارتي تاجر مغربي مسلم اسمه أحمد وهو رجل متحضر وذكي وكان قد درس الأدب في شبابه ، ويتكلم العربية الفصحى بصورة جيدة ولكن متواضعة .. لقد كنا نتكلم بالعربية لأن الإسبانية التي يعرفها يتعذر علي فهمها ... وقد تناقشنا دائماً في الدين ، وصدقني فإن بعض « ضلالاتهم » لا يمكن دحضها بسهولة كما يتصور كثير من الناس . فهم يمقتون مسألة ألوهية المسيح ... » . وقد أورد المؤلف قسماً كبيراً منها باللاتينية وترجمها إلى الإنجليزية ليخلص منها إلى تصحيح الخطأ الذي وقع فيه بعض المستشرقين حين وصفوا أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري بالتاجر ، ولهذا فإنه لم يستطع مساعدة أربينوس في دراسته فأورد آراء السيدة يانبول وفوك في قولهما : إن مناقشة أحمد بن قاسم الأندلسي مع أربينوس قد غيرت آراء أربينوس عن الإسلام . ونعى المؤلف على كل من ذكر علاقة أحمد بن قاسم الأندلسي مع أربينوس نقص دراستهم وذلك « لأنهم لم يستطيعوا أن يدركوا أن هذه العلاقة دامت أطول من الشهور الثلاثة التي قضاها في باريس » (صفحة ٥٤) . فقد سافر أحمد بن قاسم الأندلسي من باريس إلى هولندا وزار صديقه أربينوس في لايدن وحل ضيفاً عليه في بيته (صفحة ٥٧) .

والآن : من هو أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري ؟ لقد ظهر حديثاً (سنة ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧) بالدار البيضاء — المغرب كتاب : ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد بن قاسم الحجري الأندلسي المعروف بـ « أفوقاي »[2] من تحقيق الأستاذ محمد رزوق (منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية) وهو كتاب رحلة أحمد بن قاسم إلى فرنسا وهولندا ، وصف فيه أولاً شيئاً من حياته في الأندلس وحياة الأندلسيين بعد أكثر من مئة سنة من سقوط غرناطة (في سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢) فرأى الأندلسيين يعبدون دينين : دين النصارى جهراً ودين الإسلام في السر ، « وإذا ظهر على أحد شيء من عمل المسلمين يحكمون فيهم الكفار الحكم القوي ، يحرقون بعضهم ، كما شاهدت حالهم أكثر من عشرين سنة

قبل خروجي منها » (ناصر الدين : ١٨) . وأن النصاري « تقتل وتحرق كل من يجدون عنده كتاباً عربياً أو يعرفون أنه يقرأ بالعربية » (ناصر الدين : ٢٥) . و « كان الأندلسيون يخاف بعضهم من بعض ولا يتكلمون في أمور الدين إلا مع من كان ذمة ، معناه : ذو أمنة » (ناصر الدين : ٢٩) .

وهو هنا يشير إلى ما كانت محاكم التفتيش المرعبة قد زرعته من الخوف الرهيب من التعذيب والإحراق وسلب الأرواح والأموال في قلوب المورسكيين والمدجنين الذين آثروا البقاء في إسبانيا بعد زوال الحكم الإسلامي منها . ثم يخبرنا أحمد بن قاسم عن طريقة هربه من إسبانيا بطريق حصن البريجة (الجديدة الآن) الذي كان بيد البرتغاليين ، والذي يقع على الساحل الغربي من المغرب ، ووصوله إلى معسكر السلطان السعدي المنصور الذهبي في حدود سنة ١٠٠٧ هـ . ولعل السلطان أحمد قد ألحقه بديوان الترجمة ، فقد ذكر أحمد بن قاسم نفسه فيما ألحقه بترجمته لكتاب « العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع » لإبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي المعروف بالمُعَلِّم الربَّاس[٣] من الإسبانية إلى العربية . فقال : « إن بمدينة مراكش كنت ترجمان السلطان مولاى زيدان ابن السلطان أحمد ابن مولاي محمد الشريف الحسني — رحمهم الله — سنين عديدة وكاتب سره باللسان العجمي (الإسباني) ، وكذلك ترجمت للسلطانين أولاده — رحمه الله وعفا عنهم — » . والإشارة هنا إلى السلطان أبي مروان عبد الملك بن زيدان الذي خلف أباه في سنة ١٠٣٩ هـ ، والسلطان الوليد الذي خلف أخاه في سنة ١٠٤٤ هـ[٤] . والظاهر أن أحمد بن قاسم لم ينبغ في ديوان الترجمة (المخزن) إلا بعد وفاة السلطان أحمد المنصور الذهبي وخلافة ابنه زيدان في سنة ١٠١٢ هـ فبعد ست سنين أمر الملك الإسباني في سنة ١٠١٨ هـ (١٦٠٩) بإخراج المورسكو جميعاً من إسبانيا . وهنا يروي لنا أحمد بن قاسم نفسه أن « السلطان الإسباني المسمى بفلب الثالث أمر بإخراج جميع المسلمين من بلاده ، وابتداء ذلك كان لسنة ثماني عشرة وألف ، وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف . وكان الأندلسيون يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء ، ودخل كثير منهم في سفن الإفرنج (الفرنسيين) ونهبوهم في البحر . وجاء إلى مراكش أندلسيون منهوبون من الفرنج من أربع سفن . وبعث رجل أندلسي من بلاد فرنجة يطلب منهم وكالة ليطلب الشرع عنهم ببلاد الفرنج . واتفق نظرهم أنهم يبعثون خمسة رجال من المنهوبين ويمشي بهم واحد من الأندلس الذين سبقوهم بالخروج ، واتفقوا أن أمشي بهم ، وأعطاني السلطان (زيدان) كتابه وركبنا البحر المحيط بمدينة أسفي » (ناصر الدين : ٤٤) . وهنا تبدأ رحلة أحمد بن قاسم إلى فرنسا نائباً عن الأندلسيين الذين سلبهم القراصنة الفرنسيون أموالهم ومتاعهم وتركوهم في جزيرة مهجورة دون ماء أو زاد حتى أنقذتهم سفينة إنجليزية . وفي فرنسا يلتقي بجالية أندلسية كبيرة إلى حدِّ أن السلطة الفرنسية عينت لهم قاضياً خاصاً فرنسياً يقضي في أمورهم سماه أحمد بن قاسم بـ « قاضي الأندلس » (ناصر الدين : ٤٩) . وفي باريس أيضاً يلتقي أحمد بن قاسم بمستشرق فرنسي هو هوبرت فيقول له هوبرت : « أنا أخدمك فيما تحتاجني لأكلم لك من كبراء الناس وغير ذلك ، وما نحب منك إلا أن نقرأ عليك في الكتب التي عندي بالعربية وتبيّن لي شيئاً مما فيها » .

ويكتشف أحمد بن قاسم أن هوبرت سبق أن زار مراكش ، وأن جلوسه هناك كان بأمر الملك الفرنسي « لنعلمه بحروف الرمز كل ما نعلم أنه يقع لسلطان مراكش في ديوانه وحركاته » . أي أنه كان جاسوساً فرنسياً في مراكش . (ناصر الدين : ٥٠) ومن خلال هوبرت هذا يتعرف أحمد بن قاسم على أربينوس الذي كان مشغولاً بجمع مادة كتابه المدرسي « مقدمة في القواعد العربية » الذي نشره في لايدن أثناء إقامة أحمد بن قاسم الأندلسي في بيت أربينوس بلايدن سنة ١٦١٣ (١٠٢٢ هـ) . فإن أحمد بن قاسم لم يحصل في فرنسا إلا على جزء ضئيل من أموال الأندلسيين المنهوبة ، فآثر السفر عبر هولندا إلى المغرب لأن العلاقات السياسية بين هولندا والمغرب إذ ذاك كانت جيدة للعداوة المستحكمة بين الهولنديين وبين الإسبان الذين كانوا يحتلون هولندا زمناً طويلاً ، وانحياز أكثر الهولنديين إلى البروتستانتية . فتذكر صاحبه الهولندي في باريس فكتب إليه حال وصوله إلى امستردام رسالة جاء فيها : « الكتاب من عند صاحبك الذي عرفت في بريش من أجل صاحبنا الطبيب المعظم منسيو هبرت ، هو — حفظكم الله — المسلم الذي جاء من مراكش المحروسة في شأن الخصومات .. »[٥] . وقد نشرها خيرارد فيخرس بالتصوير مع وثائق أخر في كتابه مع ترجمتها إلى الإنجليزية فيسَّر للمهتمين بها الاطلاع عليها بأصولها ومن ثم مقارنة نتائجه التاريخية بالمعلومات الورادة في هذه الوثائق . وقد أحسن الباحث أيضاً في نشره الرسالة الطويلة التي أرسلها أحمد بن قاسم إلى جماعة المورسكو في استانبول بأصلها الأسباني وترجمتها الإنجليزية[٦] . فقد ألقت هذه الرسالة الطويلة الضوء على نشاط الموريسكو في استعداء السلطان العثماني وإغرائه على استرداد الأندلس بعد أن عمت الفتن والمنازعات والحروب في المغرب أثناء حكم الأسرة المرينية ومن بعدها السعدية ، فاستولى الإسبان والبرتغاليون على العرائش والبريجة وبعض الحصون الساحلية الأخرى[٧] فمنعوا المورسكيين من الهجرة

إلى المغرب . واستعان المتنازعون إما بالإسبان أو بالبرتغاليين للوصول إلى الحكم ــ كل ذلك حمل المورسكيين على اليأس من انتظار أية مساعدة من المغرب المضطرب سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، فوجه المورسكو أنظارهم وعلقوا آمالهم بالسلطنة العثمانية التي كانت في أوج قوتها في القرن العاشر والحادي عشر ، فاستغاثوا بالسلطان العثماني مراراً سواء بإرسال القصائد الطويلة المثيرة أو الرسائل المؤلمة ، أو بإرسال الوفود إلى استانبول ، وإلى حدّ أنهم عدّوه سلطانهم وحاميهم والسيد الكبير[8] . وهذه فترة تاريخية لم يكشف الغطاء عنها بعد ، وهي فترة غريبة يشوبها الغموض عند المؤرخين المشارقة والمغاربة على حد سواء ، ويكتنفها التناقض والاضطراب ، إذ بالرغم من ظهور الدراسات العديدة[9] حول الموريسكو باللغات المتعددة وبخاصة الإسبانية والفرنسية والهولندية والإنجليزية فإن الفترة التاريخية الممتدة من سقوط غرناطة وما تبعها من تهجير غالبية سكانها إلى قشتالة بعد ثورة البغراس ومن ثم طرد المورسكو وتشتيتهم ونفيهم إلى أوروبا وشمال إفريقية والمستعمرات الإسبانية في أمريكا الجنوبية والمكسيك وغيرها حتى نهاية القرن الحادي عشر ما تزال بحاجة إلى البحث والتنقير لوضع جماعة المورسكو في إطار تاريخي واضح ، وهذا ما حاوله خيرارد فيخرس بالنسبة إلى أحمد بن قاسم الأندلسي المورسكي فأصابه التوفيق في توضيح بعض معالم أنشطة بعض المورسكيين إلى حد كبير في استانبول وفي فرنسا وهولندا ، إلا أنه لم يحاول أن يربط بين النشاط الدبلوماسي الذي كان قوياً بين فرنسا والسلطنة العثمانية وبينها وبين هولندا ــ وهذا ما أشار إليه أحمد بن قاسم عرضاً . ففي السنة التي كتب فيها رسالته إلى جماعة المورسكو من باريس (١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م) منحت السلطة العثمانية حقوق التجارة في أراضيها للتجار الهولنديين الذين كانوا أول من أدخل التبغ للبلاد العثمانية من الهند الشرقية ، فعارض المفتي في استعماله وأصدر فتوى بمنعه ، فهاج الجند واشترك معهم بعض مستخدمي السراي السلطانية حتى اضطروه إلى إباحته [10] . فقد كانت هولندا تودّ التعاون مع السلطان العثماني وسلطان مراكش عسكرياً ضد إسبانيا التي كانت تبذل الجهد إذ ذاك للحصول من العثمانيين على اعتراف دبلوماسي بها . ففي إحدى مقابلات أحمد بن قاسم مع الأمير مورتس (أمير الولايات المتحدة) في مدينة دنهاج (لاهاى) قال الأمير لأحمد : « لو اتفقنا مع كبراء الأندلس ونبعث لهم عمارة (أسطولا) من سفن كبيرة ليركبوا فيها مع جنودنا نأخذ إسبانية (...) لو كنا نتفق مع سلطان مراكش ونبعث للسيد الكبير ــ أعني السلطان الأعظم ، سلطان الإسلام والدين ــ (السلطان العثماني) ونتفق جميعاً على سلطان إسبانية نظفر به ونأخذ بلاده »[11] فاستعظم أحمد بن قاسم هذا الأمر إلا أنه رأى إمكانية استعادة الأندلس على الأقل في هذا الاتفاق . والظاهر أن الأمير حمّله رسالة شفوية بهذا المعنى إلى سلطان مراكش وزوّده بـ « الشفرة » السرية لتكون المكاتبة بينهما بها . ولعل البحث سيكشف النقاب عن دور أحمد بن قاسم في هذه العملية التي لم تنجح . وسبب فشلها يكمن في الاضطراب السياسي الذي كان سائداً في المغرب وانشغال السلاطين العثمانيين بالحروب في الجبهة الشرقية والغربية والداخلية أيضاً .

إن دراسة جيرارد فيخرز هذه صححت بعض المعلومات التي كان يرددها بعض المستشرقين الهولنديين دون تمحيص ، ومن ثم فإنها ألقت الضوء على وجود التعاون منذ بداية الاستشراق في هولندا بين دارسي العربية والإسلام وبين المسلمين ، حيث استفاد الأولون من الآخرين فائدة كبيرة مما يظهر في رسالة أربينوس إلى كازابون . وهنا يقول الباحث : « وبدون شك فإن أربينوس قد تعلم كثيراً من أحمد ابن قاسم ، وهذا التعلم والمعرفة لا تختص باللغة العربية ولكن أيضاً فيما يتعلق بالإسلام ، فإن أحمد بن قاسم قد استطاع أن يخفف (يزيل) بعض التحامل ضد الإسلام عند أربينوس (صفحة ٦٢) . ومع هذا فإن أربينوس لم يذكر أحمد بن قاسم في أي عمل منشور له[11] .

أما علاقة خوليوس بأحمد بن قاسم فقد بدأت ــ على ما يبدو ــ في سنة ١٦٢٢ م عندما سافر مع بعثة هندسية هولندية إلى المغرب لبناء ميناء على الشاطىء المغربي ضمن التعاون المغربي الهولندي ، فقد كان الصلة بين البعثة والبلاط السعدي على ما يظهر من مراسلات أحد أعضاء هذه البعثة (صفحة ٦٤) . فلا بد من الافتراض هنا أن أربينوس قد عرّف صديقه أحمد بن قاسم بخوليوس في رسالة منه إليه ، لأن هذه الصلة لم تقف عند حدّ العلاقات الدبلوماسية فحسب ، بل إننا نعرف أن أحمد بن قاسم قد نسخ لخوليوس كتاب المستعيني في الطب ليونس بن إسحاق بن بقلارش ، وهو الآن محفوظ في مكتبة جامعة لايدن بخط أحمد بن قاسم ، إضافة إلى رسالة بالعربية أرسلها أحمد بن قاسم من مراكش إلى خوليوس بتاريخ ١٠ جمادى الأولى من سنة ١٠٣٣ هـ (صفحة ٦٦ ــ ٦٧) . ولعل أحمد بن قاسم أعان خوليوس إذ ذاك على اقتناء مجموعته النفيسة من المخطوطات العربية التي آلت بعد وفاته ــ في قصة طويلة ــ إلى مكتبة جامعة أكسفورد (بودليان) وآلت مجموعة أربينوس إلى مكتبة جامعة كمبرج بإنجلترا[12] .

إن أهم ما يلاحظ القارىء في هذا البحث الجاد هو ظاهرة إيراد النصوص اللاتينية والإسبانية دون ترجمة إلى الإنجليزية ، وهذا على ما يبدو نابع من افتراض الباحث أن جميع القراء يفهمون هاتين اللغتين ، وهذا افتراض قد يصح على قلة قليلة من قراء كتابه ، مع أنه في حالات أخر ألحق ترجمة إنجليزية ببعض النصوص الأخرى وترك نصوصاً غيرها في لغاتها الأصلية . وكنا نود لو أنه سار على نسق واحد في جميع بحثه . وهناك نقطة أخرى تتعلق بمارواه أحمد بن قاسم في كتاب : ناصر الدين حول « رسول من بلاد فلمنكه » (رسول من بلاد هولندا) فقال : « وقد جاء رسول من بلاد فلمنكه إلى مولاي زيدان ابن مولاي أحمد — رحمهما الله — إلى مدينة مراكش ، وكتاب رسالتهم عجمي (بالإسبانية) وأمرني السلطان أن أعربه (....) ورأيت عنده كتباً بالعربية ، وهو يقرأ ويكتب بها فسألته أين تعلم ذلك ؟ قال : اعلم أنني كنت في جزيرة كذا من جزر الهنود المشرقية التي يأتون منها بالقرفة والقرنفل والجوز وغير ذلك من الأبازير وهي للمسلمين ، وهناك تعلمت نقرأ (...) وليس بفلنضس (فلاندرز) إلا الذي سنذكره يقرأ بالعربية وهما رجلان فقط »[١٤] .

فقد حاول الباحث أن يستنتج من إشارة أحمد بن قاسم هذه أن الرسول الفلامنكي هذا إنما هو خوليوس ، لأن كل الدلائل تشير إليه مع أنه لا يُعرف عنه أنه زار جزر الهند الشرقية . والأمر ليس كذلك في إشارة أحمد بن قاسم ، لأن المفهوم منها أن أحمد بن قاسم كان يعرف رجلين فقط في هولندا أو من هولندا ممن يقرأ بالعربية قبل وصول هذا الرسول إلى مراكش ، فلا بد والأمر هنا ، أن هذا الرسول كان غير أربينوس وغير خوليوس . وهذه نقطة مهمة لم تحظ باهتمام الكتاب وهو لذلك أوردها في الحاشية (صفحة ٦٧) .

وختم الباحث دراسته حول علاقة العالم المسلم أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري بكل من أربينوس وخوليوس وأثر هذه العلاقة على الدراسات العربية في هولندا بقوله : « إن البحث في المجموعات المخطوطة المحفوظة في لايدن وكمبردج وأكسفورد قد يكشف دور أحمد بن قاسم في بعض المخطوطات التي لا يعرف مصدرها حتى الآن والتي تعد من جملة هذه المجموعات ، وهل أنها جاءت عن طريقه ، فإن هذا الرجل الذي كان يعرف حتى العصر القريب بالتاجر المغربي كان في الحقيقة عالماً مسلماً أندلسياً » .

الهوامش

1) Oates, J.C.T., The Manuscripts of Thomas Erpenius, in : The Bibliograp Society of Ausralia and New Zealand, Malbourne, 1974, p. 7.

(٢) أفوقاي : تحريف إسباني لـ « أبو القاسم » . فإن كل من اسمه أحمد يلقب بأبي القاسم في الأندلس عموماً .

(٣) احتار هارفي في معرفة « المعلم الربّاس » واحتار معه فلوجل والاركون فهو معجّم الرياش مرة وهو المعجم ريفاس مرة أخرى . وهو بكل بساطة « أستاذ المدفعية » . Master gunner

Cf. L.P. Harvey; The Morisco who was Muley Zaidan's spanish interpreter, in: Miscelanea de Estudios Arabes y Hebraicos, VIII, fasc. 1, 1959, p. 68.

٤) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، للناصري (الدار البيضاء ١٩٥٥) ٣/٦ — ٨٢ ؛ وانظر أيضاً : الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين لمحمد حجي (الرباط ١٩٧٦) ٤٠٣ . فقد قال عن أحمد بن قاسم : « وانخرط في سلك الكتاب بديوانه (أحمد المنصور) كمترجم » .

5) Leiden Univ. Library, Or. 1228, nr. 32 (136).

٦) الأصل المخطوط محفوظ في مكتبة جامعة بولونا بإيطاليا برقم : ٥٦٥ .

7) The Cambridge History of Islam, part. VII, p. 232.

٨) انظر : ناصر الدين ، ٥٠ . وهو السلطان أحمد الأول الذي لم تنقطع الحروب في عهده .

9) Such as : Boronat y Barrachina, P., Los morisco espanoles y su expulsion, Valencia 1901.

-- Garrido Aranda, A. , La edcación de moriscos y mexicas como factor de asimilación cultural, in : Estudios sobre politica india-espanola en América Universidad de Valladolid 1976.

-- Hess, A.C., The Moriscos: An Ottoman Fofith column in Sixteenth Century Spain in: The American Historical Review, Vol. LXXIV, nr. 1, Oct. 1968, pp. 1-25.

-- Lapeyre, H., Géographie de L'Espagne Morisque, Paris 1959.

-- Lea, H. Ch., The Moriscos pf Spain: their conversion and expulsion, Philadelphia 1901.

١٠) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ، القاهرة ١٣١١ هـ / ١٨٩٣ (ط ١) ، ١١٧ ، وانظر أيضاً :

The Cambridge History of Islam, 1 : 330.

١١) ناصر الدين : ١٠٩ .

١٢) انظر دراسة فيخرس : ٦٠ حيث قال : « ولم يذكر أربينوس في منشوراته أنه كان مديناً لأحمد بن قاسم إطلاقاً » .

13) Oates, p.2; J.J. Witkam, Jacobus Golius en zijn handschriften, pp 68-71.

١٤) كتاب ناصر الدين : ٩٨ .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسله
أما بعد حمد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن
له كفوا أحد فبلغني كتابك ووجدت بما رأيت من ضبط
خطك جودة معناه ومرماه أما ما ذكرت من كتاب مروج
الذهب أنه لم يبلغ اليك وأنه نحبه العرب من بلدي وحامله فذلك
عادتهم في هذه البلاد وفي هذا الزمان الصعب ووجدت إذ جاء
على [illegible] الكتاب المستعينين في ضاعة الكتب ما زلت نكتب لك
في شأنه شيئا الا في غالب ظني أن النسخة التي بيد صاحبنا
الطبيب [illegible] أن لعلها مكتوبة نحو لاربع مائة سنة وهو
هذا الكتاب المذكور عجيب مقبول عند المسلمين وكنت
ذكرت لي أن عندك حروفا محجوبة لمثل الشمس لو أمكن
أن ترسلها عربية أو في لسان الاشبانيول وتبعثها لي نعم بذلك
والسلام وكتب في مراكش المحروسة في العاشر من شهر جمادى
الأول من عام ثلاث وثلاثين وألف سنة
خديم المقام العلي
أحمد بن قاسم
لطف الله به

رسالة أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري إلى خوليوس

Detail van het hoofdaltaarstuk in de Koninklijke Kapel van de Kathedraal van Granada, voorstellende de massale doop van Morisco-vrouwen, na de val van de stad in 1492.

Ontleend aan: L. Seco de Lucena Paredes, Granada, 1977.

صورة محفورة في مذبح كاتدرائية غرناطة تمثل التعميد الجماعي لنساء غرناطة بعد سقوطها في سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م .

مكّة عام ١٣٢٧هـ

من خلال كتاب « عالم الإسلام »

لعبد الرشيد إبراهيم

محمد حرب

أستاذ مساعد في المعهد العالي للدعوة الإسلامية

المدينة المنورة

عبد الرشيد إبراهيم داعية مسلم وكاتب وقاض ورحالة، ولد في سيبريا ومات في اليابان، وبين مولده ومماته حياة طويلة قضى شطراً طويلاً منها في الرحلة في بلاد آسيا والدعوة إلى الإسلام فيها. أسلم على يديه الكثير من اليابانيين، واعترفت — بجهوده — حكومة اليابان بالإسلام. دوّن رحلته في كتاب أسماه « عالم الإسلام » وهي رحلة في الصين وكوريا وسنغافورة وأندونيسيا والهند واليابان والجزيرة العربية. وقد طبعت هذه الرحلة — وهي باللغة التركية — في استانبول عام ١٣٢٨.

في عام ١٣٢٧ وصل عبد الرشيد إبراهيم إلى الأراضي الحجازية بعد أن طوّف بكثير من بلدان العالم الإسلامي وصفها في كتابه « عالم الإسلام ». وصل إلى جدة في ٢٥ ذي القعدة من العام المذكور. والجدير بالذكر أن ذلك كان في عهد السلطان محمد رشاد، أي عهد سيطرة جمعية الاتحاد والترقي على شؤون الدولة العثمانية وعلى سلطانها وولاياتها بعد نجاحها في خلع السلطان عبد الحميد.

وفي وصف مكة عام ١٣٢٧ موضوع المقال يجد القارىء محاولة استخلاص الوصف من رحلة المؤلف بعد استبعاد كل ما هو بعيد عن الوصف المجرد، مثل عواطف الشيخ في وصفه وسرده مناسك الحج وعن نقده سواء بالمدح أو الذم للأحداث والأشخاص وتعليقاته التي لا تمس موضوع وصف مكة عام ١٣٢٧.

في جدة: كان الحجاج ينصحون بزيارة « قبر حواء » وكان بعضهم يعمل بهذه النصيحة والبعض الآخر يفضل الذهاب إلى مكة مباشرة، وهؤلاء يجدون وسيلة المواصلات أمامهم على نوعين من القوافل يتحركان من جدة إلى مكةصباحاً، قوافل الجمال وقوافل الحمير. قوافل الجمال تصل إلى مكة في يومين، وقوافل الحمير تصل في ١٢ ساعة فقط. يفضل الحجاج الذين يحملون أمتعة كثيرة، الجمال. أما من تكون أحمالهم قليلة فيفضلون الحمير. وكان الكثير يفضل الحمير لسرعتها امتثالاً للأمر الإلهي: ﴿ وسارعوا ﴾.

طريق جدة — مكة طريق رملي كان يخلو تماماً من الأبنية، تغطي الرمال كل المساحات الشاسعة التي يراها الحجاج حولهم. ولم يكن هناك شيء على جانبي الطريق إلا المقاهي التي تصنع من الخوص وتسمى العشش ومفردها عشّة. وبعد ساعتين من الرحلة في هذه الصحراء الرملية تبدأ التلال الحجرية وليس عليها غير جبال حجرية شديدة السواد ونبات السَّنا (= السنامكى)، ونبات العاقول (= شوك الجمل = الحاج). وبين جدة ومكة مكان يدعى الحدّة، وهو عبارة عن قرية كل أهلها من البدو. كما أن هناك مسجداً بالقرب من مكة.

في مكة — وقتها — شارع كبير يسمى شارع الشيخ محمود. وفي مكة — في ذلك الوقت — عالم يسمى الشيخ محمود مراد وهو عالم من العلماء الكبار معروف بكتبه المنتشرة، وهو الذي عرّب كتاب مكتوبات تأليف الإمام الرباني. وله كتاب تلفيق الأخبار باللغة العربية وهو في التاريخ. وقد كتب الشيخ محمود مراد في ثلاث من اللغات الإسلامية المشهورة هي العربية والفارسية والتركية، وقد كان جيد التحدث والكتابة بها. وهذا الشيخ تاتاري الأصل من قازان مجاور في مكة المكرمة منذ نصف قرن (قبل ١٣٢٧). وله معرفة واسعة في الأصول والفروض والتفسير والحديث. ولم يعرف أحد له قدره على الرغم من علمه الغزير، فهو يعمل عملاً بسيطاً كأنه خادم في دار ضيافة الحجاج التتار.

في مكة المكرمة مجموعة من دور ضيافة الحجاج يحمل كل منها اسم تكية القازانية، نسبة إلى قازان، وهي عاصمة بلاد التتار على نهر الفولجا، ينزل بها الحجاج القادمون من روسيا. يسكنون في

هذه التكايا مدّة بقائهم في الحج ، ولكل تكية رجل يشرف على أمورها أو بمعنى أصح يقوم على خدمة الحجاج ، ينفحه الحجاج التتار بعض صدقاتهم في نهاية مدة بقائهم إذا رضوا عن خدماته .

كان عدد الحجاج عام ١٣٢٧ يقرب من أربعمائة ألف حاج . وتتسم المعاملات في مكة المكرمة بين كل هذا العدد الكبير بأدب الإسلام ، ولا يمكن رؤية معاملة خارجة عن حدود الأدب في أي وقت من الأوقات . لا يؤذي أحدٌ أحداً ، ولا يتأذى أحد من أحد . النظام والانتظام أمر طبعي للغاية أخلاقي للغاية ، لا يتحكم فيه إلّا التربية الإسلامية نفسها .

وبعد الحج يأخذ بعض الحجاج في إعداد أمورهم للعودة إلى أوطانهم ، وبعضهم يقيم في مكة مدة تبلغ حوالي الأسبوع . وبعضهم يتوجه إلى المدينة المنورة وزيارة الروضة المطهرة ، وهؤلاء الذين نووا العودة إلى بلادهم ينشغلون بشراء احتياجاتهم وأكفانهم وماء زمزم ليحملوا ذلك معهم . وعلى هذا فإن مكة تكون مزدحمة طوال يومين أو ثلاثة بعد إتمام مناسك الحج .

الشوارع الجانبية في مكة قليلة ، وكذلك شوارعها الرئيسية والازدحام فيها ظاهر ، والجمال فيها كثيرة . ووسائط النقل غير متناسقة : الجمال والشُّغْتف والتخت روان وغيرها . والشغتف وسيلة اخترعها الأعراب لإركاب الحجاج بأن يكون كل حاجَّيْن على جمل .

وكان من الصعب وجود مكان في مكة يستريح فيه الإنسان . وأنواع الأكل المختلفة تُطبخ في الشوارع الضيقة وفي الأسواق والشوارع الأكثر اتساعاً .

وأفران الخبز في مكة معدودة فهي ثلاثة ، وكلها يعمل بالأساليب القديمة لإنتاج الخبز . وعلى الرغم من الضيق الذي تتسم به مكة ، وعلى الرغم من ازدحامها إلّا أن من الممكن إقامة الاحتفالات والمراسم الرسمية ومحامل الشخصيات المهمة كالشرفاء والولاة . ولا توجد في مكة شرطة ولا مسؤول عن الشؤون البلدية ومع ذلك فالأمن والأمان في كل مكان في مكة المكرمة . وأقل شخص في الحج يحمل معه ما لا يقل عن عشرين ليرة عثمانية ، ومع ذلك فلا تقع حوادث .

والغريب أنه على الرغم من هذه الكثرة من الناس وشدة الزحام وضيق الشوارع فإن كل فرد يجد وسيلته لقضاء حاجته ، يذهب إلى مكان ويعود بعد قضاء ما احتاج إليه .

في ١٤ من شهر ذي الحجة عام ١٣٢٧ أمطرت السماء في مكة فتحول الحرم المكي إلى بحيرة . ولم تعد هناك من الأرض الجافة غير منطقة ما فوق السد الذي في باب الزيادة . في ذلك اليوم لم تُقم صلاتا المغرب والعشاء في الحرم المكي ، ولم تُقم صلاة صبح اليوم التالي إلّا في باب الزيادة . ذهب بعض الحجاج إلى جدة ومع ذلك بقي في مكة أكثر من مائة ألف حاج . ولا مكان لأداء الصلاة . وليس هناك من وسيلة لإخراج المياه ونزحها من الحرم . وأخذ الناس يتفرجون على المياه وهم في دهشة . وكان الأمير والشريف والوالي من بين المتفرجين .

أغرقت المياه المقامات المقدسة تماماً بما في ذلك مقام إبراهيم . جاءت المياه بكل قاذورات الحجاج من الشوارع وملأت بها المقامات المقدسة . لا أحد يستطيع الطواف ولا أحد يستطيع الصلاة . واضطر قسم من الحجاج إلى ترك طواف الوداع .

في اليوم التالي انحسر جزء من هذه النجاسات إلى القنوات وأخذ الناس ينزحون المياه بقدر استطاعتهم من الحرم الشريف وإن كانت رائحة القاذورات قد غطت كل جوانب المكان . وعلى الرغم من كل ذلك فلم تجد الكوليرا لها طريقاً إلى مكة المكرمة .

اشترك كل الحجاج في أعمال تنظيف الحرم المكي . عملوا طوال يومين كاملين . ومع كل هذه الجهود فإنهم لم يستطيعوا غير تنظيف أجزاء صغيرة يمكن إقامة الصلاة عليها . لم تُقم صلاة الجماعة مدة ثلاثة أيام غطت فيها النجاسة كل جوانب زمزم والكعبة . حتى الحطيم أغرقته المياه . وبالرغم من كل ذلك فقد أمكن حماية داخل بئر زمزم . ومات في ذلك ناس كثير .

لم يكن بعض الأطباء في مكة المكرمة يقدرون مسؤولياتهم . وقد أهمل هذا البعض واجبه . لم يكونوا في خوف من أمير ولا والٍ ولا مسؤول . والسبب : أن هذا البعض كان معيّناً من قِبَل جمعية الاتحاد والترقي في استانبول فكان يستند على هذا في إهماله .

وعدد المدارس — في ذلك العام — في مكة كان كثيراً ، لكن لم يكن في مكة مفتٍ ولا مدرس ولا عالم يمكن أن يشار إليه بالبنان .

والأوقاف في مكة عام ١٣٢٧ كثيرة إلّا أن كثيراً من هذه الأوقاف كان في أيدي رجال غير أهل للحفاظ عليها ، فتحولت إلى أملاك شخصية . ومكة المكرمة محرومة من العلم ومن الفضائل الإنسانية الإسلامية ، لذلك : « ينبغي على ثلاثمائة مليون مسلم » وهم مجموع عدد مسلمي العالم في ذلك العام : « أن يبكوا على حال مكة المكرمة » .

في ٨ ذي الحجة وفي الساعة العاشرة بالضبط وصل أمير الحج الذي أرسله السلطان محمد رشاد من استانبول ، وصل على جواد أبيض وصعد إلى جبل الرحمة وخطب خطبة . ومن هذه اللحظة

ماج عرفات بكتل البشر من المسلمين الملبّين .

وقبل وصول أمير الحج هذا إلى جبل الرحمة كان إطلاق الصواريخ النارية وإقامة الضيافات والاستعراضات العسكرية والرسمية ، وانشغل الناس بقراءة القرآن الكريم وبالتلبية .

وفي الساعة الحادية عشرة أي بعد وصول أمير الحج بساعة وبين الدعاء والنداء : تُهدم الخيام وتحمل على الجمال في الطريق إلى مزدلفة .

ويندر أن تجد مساومة على ثمن الهَدْي خاصة وقت الحر . والبدو لا يطلبون أكثر من الثمن المعتاد نظير ما يبيعون من الهدي .

يتحدث الحجاج ــ وقتها ــ عن الإسراف الناتج عن الذبح وإلقاء الذبائح في الحفرات . يقولون لا بد أن يأتي وقت يستفاد فيه من لحم الهدي ، ويقول بعضهم ماذا لو أقيم في مكة مصنع للحوم المحفوظة ينتفع منه الناس والجنود ويُصدر إلى أوروبا ؟ ويقول البعض منهم إن الوقت سيأتي لا محالة لتحقيق الانتفاع من لحوم الهدي .

من الأحداث المهمة في عام ١٣٢٧ في مكة ، وصول « عزيز مصر » الخديوي عباس حلمي باشا ، وقد استُقبل استقبالاً رسمياً حافلاً ، وأُطلقت المدافع تحية له ، ونزل في بيت أمير مكة الشريف حسين باشا . وكان في رفقة الخديوي والدته ، كما كان معه معيته وأركانه ، وقد أثار وجوده في مكة فرحة الحجاج لندرة من يحج من رجالات الإسلام .

وفي اليوم التالي لوصوله زار عزيز مصر ، والي مكة المكرمة أمين بك ردّاً على زيارة الأخير له ، ثم توجه الخديوي إلى دائرة الحكومة حيث استقبل العديد من كبار رجال الدولة والعديد من رجال العلم الذين أتوا للسلام عليه .

ومن الأحداث المهمة أيضاً في هذا العام قيام رجال جمعية الاتحاد والترقي التركية بعقد اجتماع في نادي الاتحاد والترقي بمكة ليحضره ممثلون عن كل شعب من الشعوب الإسلامية ، وبالفعل عقد هذا الاجتماع برئاسة الشريف ناصر وهو أحد شرفاء مكة المكرمة . في البداية قام فريد أفندي مرخص (ممثل) حزب الاتحاد والترقي بمكة بإلقاء كلمة قال فيها إن سلانيك ينبغي أن تكون مرجع كل المسلمين في أنحاء الأرض ، ولا بد أن تكون كل شعبة تقام لحزب الاتحاد والترقي في أي بلد آخر بالضرورة تابعة لسلانيك .

والجدير بالقول هنا أن مدينة سلانيك هذه يغلب عليها الطابع اليهودي وهي من أعمال اليونان حالياً ، وكانت أثناء رحلة الشيخ عبد الرشيد إبراهيم تابعة للدولة العثمانية . وفي هذه المدينة ترعرع وقوي حزب تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي تحت حماية يهود سلانيك .

قام الشيخ عبد الله آباناي وهو أحد علماء قازان وألقى كلمة في هذا الاجتماع نادى فيها بضرورة اتحاد المسلمين ، وقال بضرورة أن يقام في مكة المكرمة مجمع حقيقي لعلماء المسلمين يكون مرجعاً لعلماء العالم الإسلامي كله .

تحدث علماء آخرون وشخصيات مختلفة في هذا الاجتماع إلى أن قام أحد طلاب الأزهر وخطب منادياً بضرورة أن تكون لغة الحوار بين المسلمين هي اللغة العربية لغة القرآن الكريم بدلاً من أن يتحدث كل مسلم بلغته المحلّية . أفزع هذا أعضاء نادي الاتحاد والترقي بمكة فقام أحدهم بمقاطعة خطبة هذا الطالب الأزهري وأخذ يشتمه ويهدده ويتوعده .

من الأحداث الغريبة التي حدثت في مكة المكرمة عام ١٣٢٧ : كثرة الحجاج القادمين من اليمن ، فقد حضروا أكثر من أي عام من قبل . ولفتوا الأنظار بالنقود الإنجليزية التي كانوا يحملونها وينفقون منها . ولم تكن العملات الإنجليزية تُرى في مكة قبل هذا . لفت هذا الأمر أنظار تجار مكة أيضاً .

ومن الأحداث الغريبة أيضاً توزيع بعض أوراق مطبوعة باسم « الخلافة العربية » .

كذلك أشيع بين الحجاج أن عزيز مصر الخديوي عباس حلمي باشا قد اصطحب معه في رحلة الحج إلى مكة شخصاً يعمل طبوغرافياً وكان نصرانياً ، ونزل مع الخديوي في ضيافة الشريف حسين في منزله ، مع أن مكة المكرمة محرمة على غير المسلمين . كما أشيع أيضاً أن الخديوي قد اصطحب معه مراسل جريدة التايمز اللندنية ، ولم يُعرف هل هذا الصحافي هو نفسه الطبوغرافي أم أن الخديوي قد اصطحب معه شخصين نصرانيين .

ومن غرائب هذا العام ١٣٢٧ ظهور علاقات ودية بين المصريين واليمنيين ، حتى إنه كان مع كل حاجّين يمنيين حاج مصري .

ومن « الغريب أيضاً » في أحداث هذا العام القبض على طالبين أزهريين اقتيد أحدهما إلى استانبول للتحقيق معه بعد أن أشاع وكيل الوالي ــ وهو أحد رجال الاتحاد والترقي ــ أن هذا الطالب قد ضُبط وفي جيبه رسالة خطية مُوجهة إلى الإدريسي في اليمن ، ولعله هو الطالب الأزهري الذي نادى باتخاذ المسلمين اللغة العربية لغة أساساً لهم على عكس خطة الاتحاد والترقي من التتريك .

وينبغي ملاحظة أنه كان في مكة في ذلك العهد نوعان من السلطة : الإمارة : وهي في أيدي أشراف مكة ، و : الحكومة : وهي في أيدي الولاة من الضباط العثمانيين الذين لم يكن لهم علم باللغة العربية .

كلمة هادئة أخيرة

حول مغالطات الدكتور السويدان

شعبان خليفة

أستاذ المكتبات والمعلومات - جامعة القاهرة

نحن نرحب بالنقد الموضوعي البناء ونسعى إليه ونطلبه من كل قادر عليه بل ونسعى إلى نشره بدليل أننا نطلب ذلك النقد من كل مكتبة تستخدم الأدوات التي نعدها ، ونطلب ذلك ممن يقرءون لنا فكل عمل مهما بذل فيه من جهد ومهما دق فهو ناقص ولكننا من جهة ثانية نرفض تجاوز الحد فلا وقت للمهاترات ولا جهد لصغائر ولا التفات إلى الوراء .

عمد السويدان في تعقيبه على ردنا إلى التشويش والتهويش والمراوغة وكان قد ادعى أن قائمة الخازندار وقائمة جامعة الرياض قد سبقتا كل الجهود في هذا الصدد وأن كل القوائم التالية قد نقلت عنهما فلفتنا نظره إلى أن هذا الكلام لا يصدر إلا عن عدم فهم وأثبتنا له بالوقائع الرسمية والمطبوعات مشروعنا الذي قمنا به بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في نهاية سنة ١٩٧٣ و ١٩٧٤ لإنتاج قائمة رؤوس الموضوعات العربية الكبرى ونصحناه بأن يرتاد مكتبة جامعة الإمام التي يعمل بها ليرى صدق ما نقول في قسم الفهارس بالمكتبة بيد أنه تجاهل كل ذلك وبدلاً من الاعتراف بخطئه وتجاوزاته غضب لأننا وصفناه بأنه «غير صادق» وشوش وهوش بعبارات عامة لا تصدر إلا نتيجة للغشاوة التي تجعل المرء لا يرى الحق ولو كان واضحاً ومثبتاً بوقائع رسمية ومطبوعات متداولة في المكتبات وصادرة عن منظمة إقليمية لكل العرب . كان الخازندار أكثر أمانة حين أثبت ذلك في مصادر قائمته وبما أن قائمة الخازندار قد صدرت قبل قائمة جامعة الرياض بعام كامل على الأقل فكان أجدر بالدكتور السويدان أن يكون صادقاً مع نفسه ومع القراء ويتراجع عن خطئه ويشير في تعقيبه على ردنا بأنه قد غم عليه وينسب الفضل إلى أهله والسبق إلى أصحابه كما فعل الخازندار ... صمت السويدان تماماً عن تلك الوقائع الرسمية التي فصلناها تفصيلاً في ردنا عليه ، فتجاوزها تماماً كأنها وقعت في أوائل سبعينات القرن الماضي وليست منذ خمس عشرة سنة فقط . وبدلاً من أن يعترف طفق يردد عبارات مشوشة مهوشة من بينها :

« إذا كان هذا ما يدعي (أي أنا شعبان خليفة) فأين كان هو عندما كان العرب يشتكون من عدم توفر قوائم رؤوس الموضوعات من خلال كتاباتهم ومن خلال المؤتمرات والندوات العربية .. لماذا لم يقل هاأنذا كل ما تطلبون موجود وبادر بتقديم القائمة في الوقت المناسب هذا الادعاء بالأسبقية ما هو إلا إستعلاء واستكبار يريد أن يدعي لنفسه صفة تختلف عمن ساهم في تلك الفترة ... » (ص ٢٨٥ عالم الكتب مج ٩ ع ٢ شوال ١٤٠٨ هـ) .

مرة أخرى لقد كنا هناك في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في نهاية ١٩٧٣ و ١٩٧٤ نضع قائمة رؤوس الموضوعات العربية الكبرى لكل العرب فأين كنت أنت في تلك الفترة يا سعادة الدكتور !! ومن منا يغالط ويتخرص ويتعامى !! .

يتساءل سعادة الدكتور كيف تكون قائمة رؤوس موضوعات «السعودية» قد أعدت قبل قائمة الرياض ونشرت بعدها والإجابة على ذلك واضحة تماماً لمن يبصر ولا تحتاج إلى مجهود ضخم لفهمها فنحن نعد أدواتنا بتؤده وتدقيق وبمجهوداتنا الفردية ولذلك تستغرق وقتاً طويلاً في الإعداد والنشر فليس لدينا عبقرية إعداد قائمة رؤوس موضوعات عامة كاملة في بضعة أشهر كما حدث في قائمة الرياض فمن منا يغالط إذن ، لقد كان أخلق بالدكتور السويدان بدلاً من التشويش والتهويش أن يقول لنا كيف تتمخض بضعة رؤوس موضوعات عن السعودية في قائمة الجامعة عن آلاف الرؤوس في قائمة «السعودية» وكان أجدر به وأزكى له أن يمسك ورقة وقلماً ويستخرج من قائمة السعودية وأيضاً من القائمة الكبرى الرؤوس التي عسانا نكون قد اقتبسناها من قائمة الرياض فهذا هو الأسلوب العلمي الذي نقبله ويقبله مجتمع العلماء في كل مكان . أما الجدل والكلمات الواسعة التي لا يمكن الإمساك بها فليست من العلم في شيء .

لقد عرض أحد الباحثين الثقاة بالنقد والتحليل المسهب لقائمة رؤوس موضوعات السعودية بعد صدورها مباشرة في نفس هذه المجلة وهو نسيم الصمادي وهو باحث محايد ولم يرد في تلك القائمة ما رأى سعادة الدكتور السويدان الآن وبعد مرور سبع سنوات على نشرها فهل يا ترى يرى السويدان ما لا يراه الآخرون !! فمن يغالط ويتخرص إذن !! .

من مظاهر التخبط وانعدام الموضوعية في تعقيب السويدان نقله لنصوص لم يفهم معناها والزج بها في غير سياقها والمراوغة والترخص في بسط المعلومات . ففي معرض تعقيبه على الفرق بين الفهرسة الموضوعية والتكشيف نقل نصوصاً من كل من واينر وبيرنهاردت واسبورن كلها تتحدث عن رؤوس الموضوعات في الكتب العادية ، بينما كانت النقطة التي يدور حولها نقاشنا هي **الفهرسة التحليلية في الكتب المركبة** ، كما أن هؤلاء المؤلفين قد وضعوا آراءهم على أنها وجهات نظر قابلة للنقاش ولم يضعوها على أنها الصواب المطلق الذي لا يخرج عنه إلا مغالط أو مكابر كما ذهب السويدان . كما أن النصوص التي نقلها السويدان منهم واحتج بها كلها تتعلق بالكتب العادية التي تدور حول عدة موضوعات تنتمي إلى مجال واحد وليرجع أي قارىء إلى تلك النصوص ليرى صدق ما نقول .

ويبدو أن السويدان لم يفهم تلك النصوص فنقلها ودسها في غير سياقها ، فقد كان رأينا عن إعطاء عدد أكبر من رؤوس الموضوعات ونقول حتى ولو بلغت عشرين رأساً ينصرف إلى الكتب المركبة Composite books ، تلك الكتب التي تتألف من عدة أعمال لكل منها موضوع أو أكثر وعادة لا تنتمي جميعاً إلى مجال واحد أكبر يضمها ويحتضنها ، ومن ثم لا يمكن إعطاؤها رأس موضوع عام يجمعها كلها كما هو الحال في التصنيف عندما نختار رقم التصنيف الأعم الذي يندرج تحته عدد من الموضوعات تناولها الكتاب ويمثل المجال الأشمل لها جميعاً .

ولكن الأخ الدكتور زج بالنصوص التي نقلها زجاً في غير السياق الذي وضعت من أجله ، فتلك النقول جميعاً تتعلق بالكتب العادية كما ذكرنا والتي تتناول عدة موضوعات ترجع إلى مجال واحد وليس من بينها نص واحد يتعلق بالكتب .

ويبلغ عدم الفهم وغياب الدقة ذروته عندما ينقل الدكتور السويدان اقتباساً من الفصل الثالث عشر من قواعد الفهرسة الانجلو أمريكية عن الفهرسة التحليلية في محاولة لتبرير فهمه الخاطىء للفهرسة التحليلية على أنها تتعلق بالفهرسة الوصفية فقط ولا دخل للتحليل الموضوعي فيها فماذا كان ينتظر السويدان من قواعد دولية تعالج الفهرسة الوصفية ، هل كان ينتظر منها أن تعرج على الفهرسة الموضوعية في الطريق فتضع لها بعض القواعد بالمرة .

ورغم أننا لسنا من هواة نقل النصوص والتعلق بقشاتها علنا نصيب مغنماً فإنني نزولاً على رغبة الأخ السويدان أقدم له النصوص التالية والمباشرة التي تؤكد لسعادته أن الفهرسة التحليلية تنسحب على الفهرسة الموضوعية انسحابها على الفهرسة الوصفية ، وأنها تؤكد لسيادته ضرورة إعطاء رؤوس موضوعات تربو كثيراً على العدد الذي حدده للكتب العادية وتصل إلى أكثر من عشرين رأساً للكتب المركبة .

ففي قاموس هارود Harrod's Librarians' Glossary and Reference Book وهو قاموس مصطلحات متخصصة يورد ما استقر عليه الأمر بين المكتبيين وليس مجرد وجهات نظر شخصية قابلة للأخذ والرد نجد عن «**الفهرسة التحليلية**» ما نصه :

« هي ذلك النوع من فروع الفهرسة المنوط بإعداد المداخل التحليلية . **انظر** « **المدخل التحليلي** » . وتحت **المدخل التحليلي** يقول القاموس :

«مدخل في **الفهرس** لجزء من الكتاب أو أي مطبوع آخر ، دراسة أو بحث مستقل التأليف بين مجموعة (مجلد مقالات ، أبحاث ، مسلسل أو مجلد تجميعات موسيقية ...الخ) ويتضمن هذا المدخل إشارة للعمل الذي يضمها . وهذا المدخل هو ملحق للمدخل الكامل أو المدخل الرئيسي الذي أعد للعمل الشامل . ومثل هذه المداخل التحليلية تسمى «تحليلات» وتعد بأسماء **المؤلفين والموضوعات والعناوين** ، وفي **المكتبات المتخصصة** غالباً ما تعد المداخل التحليلية للفقرات الهامة والأقسام والجداول بل ومن حين إلى آخر قد تعد لحقائق معينة أو أشكال بالذات بالإضافة إلى أجزاء أو فصول من الكتب ووحدات السلاسل أو المجموعة » .

هذا هو ما ورد في قاموس هارود في كل طبعاته حتى الطبعة السادسة **١٩٨٧** وحتى لا يجهد السويدان نفسه هاك هو النص بالانجليزية كما ورد هناك :

"Analytical Cataloguing". The branch of Cataloguing which is Concerned with making analytical etries. **See Analytical Entry.**

ونص ما ورد تحت «المدخل التحليلي» هو :

Analytical Entr. An entry in a Catalogue for part of a book, periodical or other publication, article or Contribution of separate authorship in a Collection (Volume of essays, festschrift, serial, volume of musical etc.). The entry includes a refrence to the work Containing it. The entry is supplementary to the Comprehensive or **The Main Entry** (q.v.) for the whole work. Such entries called **"Analytics"** may be made under **authors, subjects** or titles. In special libraries they are **often** made for significant paragraphs, sections,

tables etc. and **accasionally** for particular facts, figures in addition to parts or chapters of books, units of a series and of a coolection''.

يؤكد ذلك أيضاً ما ورد في دائرة معارف المكتبات والمعلومات في المجلد الأول تحت موضوع الفهرسة التحليلية ، وهو المقال الذي كتبه ديلي حيث يسير النص على النحو التالي :

« التحليل في عرف المكتبيين هو أن نعد مدخلاً ببليوجرافياً لجزئيات من العمل الفكري بالإضافة إلى العمل ككل وتبنى **المداخل الوصفية** على الملامح الببليوجرافية للعمل وخاصة **المؤلف والعنوان** ، بينا تبنى **المداخل التحليلية الموضوعية** على محتويات العمل . **وكلاهما** يمدنا بوسيلة استرجاع لجزئيات العمل إضافة إلى كامل العمل **والتحليل الموضوعي** الذي يستخدم رؤوس الموضوعات (أو الواصفات اختلاف الاسم لا يغير خصائص المداخل التحليلية) قد يشتمل **على كل الملامح الهامة في العمل** أو يمكن أن يعمم في المادة المعالجة باسهاب . والمداخل التحليلية الوصفية مع ذلك تذهب إلى الحد الأدنى من الوحدات التي يمكن أن تحلل كوحدة ببليوجرافية مستقلة . والمداخل التحليلية في معناها العام تفترض وجود مدخل [رئيسي] في **فهرس** مخصص للعمل الكامل ...» .

وحتى لا يرهق السويدان نفسه هاك النص بالانجليزية :

Encyclopedia of Library and Information Science, Vol. 1

Anlytics

Jay Daily

''To analyze, in the librarians sense of the world, is to provide bibliographic access to portions of a work as well as to the work as a whole. Descriptive analytics are based on the bibliographic features of the work, especially authors and title, and **Subjects analytics** are based on the Content of the work. **Both** provides a means of access to protions of a work as well as to the complete work. Subject analysis utilizing subject heading (or descriptors, the change of the name deos not change the eharacteristics no matter how desirable that would be) may include **all significant features** of a work ar my simply generlize on the matters treated at qreatest length. Descriptive analytics, however, necessarily go to the minimum unit which can be analyzed as a separate bibliographical entity. Analytics as generally used, inmply entry **in a Catalog** devoted to citing works as a whole''.

هذان مصدران ينتميان إلى أدوات العمل الأساسية التي تعبر عن رأي عام ، رأي جماعي ، ومن الكتب العادية التي ليست أدوات والتي تؤكد مفهوم الفهرسة التحليلية بأوجهها الثلاثة الموضوع والمؤلف والعنوان ومن ثم إعطاء عدد كبير من رؤوس الموضوعات حتى ولو بلغت عشرين رأساً كتاب ظهر منذ الأربعينات وما زال ينقح وينشر لأهميته حتى بعد وفاة مؤلفته حتى الآن وهو كتاب Library Cataloging لمؤلفته Susan Gray Akers ففي الطبعة السادسة الصادرة سنة ١٩٧٧ والتي حررها وأعاد كتابتها كل من Jana Varlejs و Arthur Curley . جاء في ص ص ١٥٥ — ١٥٨ عن المداخل التحليلية — لاحظ أن الكتاب عن الفهرسة وليس عن التكشيف — ما نصه :

''An analytical entry is an entry for a part a work. It may be for a Complete work in itself which is published in a Collection or it may be for only **a few pages** inadequalety described (either from **the author** or **subject approach)** by the **Catalog entry** for the work as a whole''. p. 155.

ويستطرد نفس الكتاب في ص ١٥٧ ليقول :

''For a **subject analytical entry**, the subject heding is given as any any subject card. The heading is followed by the phrase regarding the paging ....''.

فهل يدرك السويدان من هذا النص أن الفهرسة التحليلية تنصرف أيضاً إلى الموضوعات أم أنه ما زال على فهمه الذي يقصر الفهرسة التحليلية على المؤلف والعنوان لياً للحقائق .

وهاك يا أخ سويدان كتاباً عادياً آخر يؤكد أن الفهرسة التحليلية بالموضوعات وليست قاصرة على المؤلف والعنوان كما التبس عليك وجعلك تنقل أيضاً من ترجمة عربية لم تفهم معناها فأوردتها في غير سياقها . ففي كتاب Esther J. Piercy المعنون : Commonsense Cataloging الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤ والمنقح بواسطة Marian - Sanner - نجد ما نصه عن المداخل التحليلية في الفهرسة ص ٤٠ :

''Parts of samebooks of sufficient imporatnace to require Cards to bring them out in the **Catalog.** Cards for such as entries are Called **analytics since they analyze contents of the book ore set of books.**

''These are subject analytics, title analytics, author analytics, author - title fanalytics, and **title - author** analytics. They are used most often for **Composite works, Collections, Compilations** and so forth''.

فالنص هنا صريح وواضح ولا يحتاج إلى مهارة خاصة لاستيعابه

فهو يؤكد ضرورة إعداد مداخل تحليلية بالموضوعات في الأعمال المركبة .

هل بعد تلك الأدلة الدامغة التي طلبها منا سعادة الدكتور ، أما زال السويدان يصر على أننا وقعنا في «خطأ علمي كبير» وأننا أردنا أن نكحلها فأعميناها وأننا دخلنا في متاهة جديدة لأن «الفهرسة التحليلية لا تمت إلى الموضوع بأية صلة لأنها في حقيقة الأمر جزء من الفهرسة الوصفية» . هذا هو كلام السويدان الذي يفتي بغير سند من العلم . فما أوردناه هنا هو قليل جداً من نصوص كثيرة جداً تؤكد أن الفهرسة التحليلية تنسحب على الموضوع كما تنسحب على المؤلف والعنوان ولكن الدكتور السويدان — يفرح بقشة يتشبث بها فينقل نصوصاً لا يفهم معناها ثم يفرح أكثر عندما يدسها في غير سياقها وغير ماقصد إليه أصحابها .

ولم يكتف السويدان بهذا الخلط العلمي فذهب يقول : « ... وعلى أي حال لا يستغرب منه (أي أنا شعبان خليفة) أن يقول أي شيء لأنه يدعي أنه هو الذي وضع لنا القواعد والأسس فهو يريد أن يجعل من نفسه مشرعاً تنسب إليه القواعد مثل كتر» . (ص ٢٨٧ عدد شوال ١٤٠٨ هـ من المجلة) .

وبقليل من الأمانة العلمية كان يكفي السويدان لكي يثبت من أننا البادئون بإرساء هذه القواعد والأسس التي طرحناها سنة ١٩٧٤ وأكرر سنة أربع وسبعين وتسعمائة وألف ونشرتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تحت عنوان «نحو قائمة رؤوس موضوعات عربية» . ونحن لا نفتي بغير علم يا أخ سويدان فنحن نفهم النصوص التي نقرؤها ونضعها في سياقها ولا نهوش ولا نشوش كما تفعل فارجع إلى العمل الرسمي المنشور والذي تداولته المكتبات العربية من المحيط إلى الخليج والرجوع إلى الحق فضيلة لا ينكرها إلا جاحد ومتخرص ولا تأخذك العزة بالإثم .

لم يذكر أي مصدر من المصادر التي أتينا عليها كلمة «التكشيف» بل كانت كلها تدور حول الفهرسة التحليلية التي يشير السويدان إلى أنها تعامل في مناهج قسم المكتبات والمعلومات بجامعة الإمام على أنها فهرسة وصفية فقط (ص ٢٨٧ من عدد شوال ١٤٠٨ هـ) .

ومن مظاهر التخبط في تعقيب السويدان زجه بالنصوص في غير موضعها محاولة تبرير موقفه اليائس من العلاقة بين الفهرسة الموضوعية والتصنيف فقد قلنا إن الفهرسة الموضوعية تنقسم إلى : رؤوس الموضوعات والتصنيف أي أن التصنيف ورؤوس الموضوعات هما مظهران لعملة واحدة ومن ثم يقف التصنيف على قدم المساواة مع رؤوس الموضوعات . هو تحليل للموضوعات برموز وهي تحليل للموضوعات بألفاظ وكلمات ، السبيل مختلف لغاية واحدة . ولكن الدكتور السويدان كعادته دس نصوصاً استشهد بها ولم يفهم معناها يدلل بها على أن التصنيف ليس من الفهرسة الموضوعية ، وإنما الفهرسة الموضوعية تقتصر على رؤوس الموضوعات والتصنيف شيء متفرد ليس من الفهرسة في شيء ولا يقف معها في نفس الخط . ومن الطريف أن بعض تلك النصوص تدينه وتدحض ما ذهب إليه ولكن لأنه لا يفهم ما ينقل فقد توهم أن النص معه رغم أنه ضده على طول الخط .

استشهد السويدان بنص من كتاب A. C. Foskett الذي « عرض بشكل خاص كلا من التصنيف وقوائم رؤوس الموضوعات ولم يقل بأن أحدهما مشتق من الآخر أو جزء منه بل كل منهما له خصائصه وأهدافه ودوره في معالجة الموضوعات » .

من قال بأن التصنيف مشتق من رؤوس الموضوعات أو أن رؤوس الموضوعات مشتقة من التصنيف ، أي دفاع بائس يائس هزيل . إن هذا النص يؤكد المساواة بين التصنيف ورؤوس الموضوعات واندارجهما معاً تحت الفهرسة الموضوعية وهو ما أكدت عليه في ردي على السويدان فأي تخبط هذا الذي تردى إليه .

لقد تمادى السيد الدكتور في استشهاداته الخاطئة عندما نقل عن بيرنهاردت F.S. Bernhardt فقد خص هذا المؤلف الفصل العاشر للمداخل الموضوعية Subject approach وقسمه إلى قسمين «هما : ١ — رؤوس الموضوعات ٢ — التصنيف » . أليس في هذا العرض ما يجعل التصنيف ورؤوس الموضوعات تسير على قدم المساواة والمؤلف يعلم أن الـ Subject approach هو مرادف تماماً - Subject Cataloguing - ولكن الدكتور الذي نقل النص لا يدرك ذلك .

ويختتم السيد الدكتور دفاعه عن عدم انتماء التصنيف إلى الفهرسة الموضوعية بعبارات مضطربة من بينها قوله «أليست كل هذه الأدلة مقنعة تؤكد أن كلاً من التصنيف والفهرسة الموضوعية وجهان مختلفان لتنظيم الموضوعات وليس كما يدعي (أي أنا شعبان خليفة) جزء من الفهرسة الموضوعية» .

فأين تلك الأدلة وأين النص الذي ينفي عدم انتماء التصنيف إلى الفهرسة الموضوعية ، إن الدفاع السلبي الذي قدمه سيادته قد أساء إلى قضيته ولم يدعمها . وأنا أهدي سيادة الدكتور نصين يؤكدان صراحة وبالإيجاب أن الفهرسة الموضوعية تنقسم إلى رؤوس الموضوعات والتصنيف والنصان يعبران عن رأي عام وليس وجهة نظر أو رأي قابل للنقاش .

هذان النصان وردا في قاموس هارود Harrod's Librarians,

Glassy and Reference Book الطبعة الرابعة ١٩٧٧ ، السادسة ١٩٨٧ .

يقول هارود تحت «الفهرس الموضوعي» ما نصه :

"**Subject Catalogue.** Any Catalogue arranged by subjects, whether in **alphabetical** or Classified order which directs users to the documents dealing with them".

فالفهرس الموضوعي هنا إما هجائي برؤوس الموضوعات أو مصنف ، لا يحتاج الأمر إلى ذكاء كبير لفهم واستيعاب حقيقة بسيطة كهذه . يؤكد ذلك أيضاً وبلا مواربة نفس القاموس تحت مدخل الفهرسة الموضوعية .

"**Subject Cataloguing:** 1 - That part of cataloguing which involves the allacation of subject headings for specific books or other documents. 2 - The branch of cataloguing which is not concerned with descriptive cataloguing. **In 1940** The Library of Congress adopted **this term** to cover **both classification** and **subject headings,** previously subject headings had been assigned by descriptive cataloguers not classifirs".

وعندما تستخدم أكبر مكتبة في العالم مصطلح الفهرسة الموضوعية ليشمل التصنيف ورؤوس الموضوعات ويتم التصنيف ورؤوس الموضوعات في قسم اسمه قسم الفهرسة الموضوعية ، وعندما يرد هذا المصطلح بهذا المفهوم في قاموس مصطلحات متخصص فإنه يعبر إذن عن رأي عام وجماعي . ولا يمكن لأي شخص عنده ذرة من فهم أن يجعل التصنيف مساوياً للفهرسة الموضوعية بل جزء منها يقف نداً لرؤوس الموضوعات . ولو أن سعادة الدكتور السويدان خفف من غلوائه ووضع كلامه على أنه وجهة نظر أو رأي أو حوار قابل للنقاش والأخذ والرد لكان أخلق به وأزكى له ولكنه تنطع وجعل رأيه الصواب المطلق ومن يخالفه فهو مغالط فهل تغالط مكتبة الكونجرس أكبر مكتبات العالم وأعمقها خبرة اللهم لطفك ، فعندما نصحت الأخ السويدان بقراءة كتاب دراسي في الموضوع كنت أعني ذلك فعلاً وليته أخذ بالنصح بدلاً من التعالي والاستكبار إذن كان قد فهم واستوعب .

لقد أخذته العزة بالإثم فتمادى في الباطل الذي مارسه ضد الدراسة في القائمة تحت شعار من النصوص التي لم يفهم معناها ودسها في غير سياقها على النحو الذي وضحناه وفندناه ، ردد سعادة الدكتور ناصر السويدان نفس المغالطات التي أسهب فيها في نقده الأول ضد القائمة نفسها فيما يتعلق بحجم القائمة والتوازن والحواشي ... ولن نتوقف طويلاً أمام تلك المغالطات بل سنمر عليها سريعاً لأننا رددنا عليها بما فيه الكفاية وما تعقيبه الجديد إلا ترديد لما سبق .

فقد عزا سيادته حجم القائمة الكبرى إلى التكرار والأمثلة والأسماء التي حشوناها حشواً بلا مبرر — إي والله هذا هو أسلوبه — فقد ضربنا أمثلة على الدول بمصر والسعودية والمدن بالقاهرة والرياض والأشخاص بعرب وعجم على حد تعبيره ...

هذا الهجوم على حجم القائمة مصدره عدم الفهم ليس إلا فالرؤوس المفاتيح ظاهرة أساسية من أسس إعداد القوائم (انظر رأس موضوع Shakespear, William, M.S. في قائمتي سيرز والكونجرس على سبيل المثال) ونحن لم نبالغ في الأمثلة ولا الرؤوس المفاتيح كما ذهب الأخ الناقد فأصحاب القائمة مصريون والناشر سعودي والمكتبات العربية تتعامل مع إنتاج فكري عربي وأجنبي مترجم إلى اللغة العربية وقائمة جامعة الرياض فيما يعرف الأخ الدكتور ضرب أيضاً أمثلة بمصر والسعودية !! وليس لهذه الأمثلة دخل في حجم القائمة وكان أخلق بالدكتور السويدان أن يمسك ورقة وقلماً ويحصي عدد الرؤوس الأمثلة ، والرؤوس المفاتيح التي وردت بالقائمة ويقيسها إلى العدد النهائي للرؤوس بها فكم يا ترى عدد الأمثلة مائة ، مائتان ، ثلاثمائة ، بين خمسة وعشرين ألف رأس موضوع في مجلدين . هذا هو الأسلوب العلمي الرصين الذي نقبله ، أما التشويش والتهويش فهو أسلوب غير مقبول . ومن الطريف في هذه النقطة أن السويدان يفتي ويرد على نفسه فهو يقول (ص ٢٩٠ من تعقيبه شوال ١٤٠٨ هـ) « وفي رد الدكتور شعبان لم يذكر شيئاً عن هذه المسألة وكأنه اعتراف ولكن إذا كان قد أقر بهذا الخطأ فلماذا نعيد بحثه مرة أخرى والجواب أنني أعيد ذكره هنا تأكيداً لما قلت أن العبرة ليست في عدد الرؤوس الموضوعات في القائمة...» هل نتدنى إلى هذا المستوى فنرد على أشياء واضحة بذاتها ينكرها السويدان وهي الرؤوس المفاتيح والأمثلة والأسماء التي جرت عليها عادة القوائم .

ومن الطريف أن السويدان كان قد طالبنا في نقده بالتوازن بين الموضوعات وقد حدد قصده من التوازن بعبارة واضحة هي « من الأسس الهامة في بناء قوائم رؤوس الموضوعات أن يراعى التوازن في تغطية كافة الموضوعات بنفس المستوى من **التفصيل** فلا يجوز أن يطغى موضوع أو عدة موضوعات وفي نفس الوقت تهمل أو يقل الاهتمام بالموضوعات الأخرى وهذا الوضع يمكن أن يعبر عنه بالانبعاج في تغطية الموضوعات ...» (عدد رجب ١٤٠٧ هـ ص ٧٩) .

وقد رددنا عليه بأن هناك موضوعات ، الإنتاج الفكري العربي

فيها أغزر من غيرها وأن اهتمام المكتبة العربية بها أكثر من غيرها ومن ثم فإننا لا يمكن أن نسوى بينها من حيث التفصيل وضربنا الأمثلة على ذلك في حينه وكعادة السويدان فهم كلمة «نسوى» أننا نقصد العدد وانطلق من هذا الفهم في دفاعه ولوى عبارتنا إلى أنه يطالب «بالتوازن في إعطاء رؤوس موضوعات ــ متساوية لكل علم» (عدد شوال ١٤٠٨ ص ٢٩٢ من هذه المجلة) . وما إلى العدد قصدنا ولكنه يفهم كل شيء بطريقته .

هذا الفهم الخاص للعبارات والأفكار هو الذي يشكل أسلوب الأخ الناقد في النقد وهو الذي يشكل أسلوبه وطريقته في التعقيب ، فهو يلوي التعبيرات والأفكار ، المهم هو أنه يخرج من أية مناقشة منتصراً .

من هذا القبيل أيضاً عندما تحدث الأخ الناقد عن الحواشي في القائمة ، وفهمها فهماً خاصاً يخرج عن أي عرف أو تقاليد عندما قال في نقده بأن ما يوضح بين قوسين بعد رأس الموضوع «جزء من رأس الموضوع» (عدد رجب ١٤٠٧ هـ من هذه المجلة ص ٦٦) وقصر فهمه للحواشي على مايتبع رأس الموضوع من فقرات تأتي تحته لتشرحه وتبين طريقة استخدامه وقد شرحنا له في ردنا على نقده قصدنا من الحواشي وهي أربع : حاشية حدية ــ حاشية التقسيم الجغرافي ــ حاشية الصفة الدالة على الجنسية ــ الحاشية التفسيرية . وفسرنا كيف اختلط عليه الأمر وكيف فهم الحواشي على أنها جزء من رأس الموضوع وكيف خلط بين وظيفة القائمة ووظيفة القاموس ولكنه كعادته عاد وكرر مرة أخرى ما ردده سابقاً في نقده فهو يحب «الإعادة للتأكيد» .

وعندما عالج الرجل في تعقيبه قضية التفريعات في قائمتنا الكبرى عاد مرة أخرى إلى تكرار نفس الكلام ــ وهو لا يمل التكرار ــ وما زلنا عند رأينا في أن لكل دولة حديثة في شبه الجزيرة العربية الحق في أن يكون لها نصيبها من العصر الجاهلي والإسلامي والحديث . وهذا الرأي لم نخترعه من عندنا ولم ينبت من فراغ فقد رأى المؤرخون أصحاب الاختصاص على استخدام التسميات الحديثة للمناطق لمعالجة تاريخها في عصور سابقة على التسمية هذا واقع في كتب التاريخ العادية كما هو واقع في المؤتمرات والندوات التي هي مجمع المؤرخين ذوي التخصص وسأضرب مثالاً واحداً بمؤتمر حديث وآخر قديم «**الخليج العربي في العصر العباسي**» الذي يعقد في دولة الإمارات العربية فبراير ١٩٨٩ . ولعل الأخ الناقد يعرف أن تسمية الخليج العربي هي تسمية حديثة جداً لا تتجاوز ثلاثين عاماً وقبل الإسلام وطوال العصور الوسطى الإسلامية كان الاسم هو (بحر فارس) . ومن غير المنطقي أو المعقول أن يكون أصحاب

الاختصاص في جهة والمكتبيون في جهة ثانية فهل يفهم السويدان ما لا يفهمه أصحاب العلم من المؤرخين وهل يرى ما يرونه أم أن المسألة هي مجرد حذلقة وادعاء لمجرد الخروج من مأزق علمي . ولو أن سيادته وضع رأيه على أنه وجهة نظر قابلة للنقاش لكان أخلق به وأزكى له ، ولكنه يعرض رأيه دائماً على أنه الصواب المطلق وما عداه مغالطات وعدم دراية .

وأهدى السويدان بعض عناوين البحوث المقدمة إلى «مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية» الذي عقد في الدوحة ٢١-٢٨ مارس **١٩٧٦** والتي تؤكد استخدام التسميات الحديثة لعصور تاريخية ووسيطة وهذه البحوث لمؤرخين عرب كبار يعرفهم السويدان تمام المعرفة :

القبائل العربية في الخليج قبل الإسلام ــ ناصر الدين الأسد .

ــ دور عرب الخليج في نشر الإسلام ــ بدوي عبد اللطيف عوض .

سياسة الفاطميين في الخليج ــ عبد المنعم ماجد .

ــ مكانة الخليج العربي التجارية ومصادرها خلال العصور الوسطى الإسلامية .

ــ التجارة البحرية في الخليج في صدر الإسلام ــ السيد عبد العزيز سالم .

ــ دور الأيلة في تجاره الخليج ــ صالح الحمارنة .

هؤلاء المؤرخون يعرفون تماماً أنه من الجائز استخدام التسميات الحديثة للمناطق في معالجة عصورها التاريخية المختلفة ، ويعرفون تماماً أن الخليج العربي ، التسمية الحديثة كانت قبل الإسلام وبعده هي (بحر الفرس) . ولكنهم استخدموها في عصر ما قبل الإسلام والعصور الإسلامية المتعاقبة كما يتضح من عناوين الأبحاث التي تقدموا بها إلى المؤتمر مجمع المؤرخين العلماء أصحاب الاختصاص . ولكن الأخ الناقد يحلو له أن يتهمنا وتخرصاً بأننا قد وقعنا في خطأ فادح والمغالطة . إنها العزة الآثمة .

ويبقى السويدان أخاً وصديقاً ورفيق درب من حقه علينا أن نأخذ بيده إلى النور والرشد والرشاد عندما تختلط عليه الأمور ، وأن ندعو له بالصلاح وبالهداية وراحة البال وهدوء الضمير .